

43

كتابي



اعترافات
جان چاك روسو
الجزء الخامس

Looloo

www.dvd4arab.com

المؤسسة العربية الحديثة
للتوزيع والتسويق
بمبادرة من مؤسسة

هاني زاهد



**اعترافات
جان چاك روسو
الجزء الخامس**



Looloo

www.dv14m.com

الأجزاء السابقة . . في سطور

الكتاب الأول

ولدت في (جنيف) ، في سنة ١٧١٢ ، لأب كان يعمل في
صناعة الساعات ، ولأم توفيت عند مولدى . وبدلاً من أن
يكرهنى أبى لذلك ، فإنه أسرف في حبه لى ، لأننى كنت شديد
الشبه بأبى .

تنبه إحصاسى قبل أن يتنبه لكرى . ثم عمداً أبى إلى
أسلوب خطر ، إذ اشركنى في قراءة الروايات والكتب الدسمة .

اضطر أبى إلى أن يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه
وبين مسكرى فرنسى ، كادت تلقى به إلى السجن دون مبرر
قانونى . فبقيت في كنف خالى «برنار» ، الذى كان مقروجا من
عمى ، والذى أرسلنى مع ابنه إلى (بوسى) لنقيم في رعاية القس
البروتستانتى «لامبرسييه» ، ولتلقى العلم على يديه وبذى
أخته . وكانت الأمسة «لامبرسييه» توليفى حنان الأم ، ولكن
عقابها إيأى نبه المشاعر الحسية والشهوانية في كيانى !

على اثر عقاب ظالم ، لاذت لم ارتكبه ، كرهت الظلم ،
وولت طمانينة طفولتى . وتركت الدراسة فالحقتى خالى
بمكتب موثق للمعتود ، على أمل أن اشق طريقى في المحاسبة
— فيما بعد — ولكنى لم استخ هذا العمل ، فرأى خالى أن من
مصلحتى أن اتعلم حرفة . والحقتى كرسى — أو تلميذاً صانع —
لدى حفار كان ينقش على المعادن . وعينى بالشمعة بالجمال

الذين كانوا يكبروننى سنا ، فتعلمت السرقة ، لا سيما وأن معلمى كان يقسو على بالمقاب والحرمان . ومع ذلك غاننى لم اكن اسرق حبا فى المال أو الجيازة .. وإلى جانب هذا ، اشتد شغفى بالقراءة حتى أصبح تهوسا .

واضطرتنى قسوة معلمى ، وتفورى من حيلتى هذه ، إلى الهرب من (جنيف) .. فانتهى بى المطاف إلى سيدة محسنة فى (انيسى) ، كان ملك سربينيا قد خصها بمعاشى ، لأنها اعتنقت الكاثوليكية .. تلك هى « مدام دى فاران » التى أشفقت على ، وأرسلتنى إلى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانتية ، وأصبحت كاثوليكا .

واستطعت بعد ذلك حياة الترحال ، وعانيت الفاقة والمتاعب . ثم انتهيت إلى العودة إلى السيدة دى فاران ، التى رحبت بى ، وأنزلتنى من نفسها منزلة الابن ، وأقردت لى غرفة فى دارها ، وراحت تنفق على تعليمى الموسيقى ، رغم تضائل مواردها .. وتعلقت بهذه السيدة تعلقا ملك على كل حواسى وعقلى .. ووبرور الأيام صرت ادعوها « ماما » !

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم . فقد أوعدتنى « ماما » مرة لأماون السيد « لوميتز » ، الذى كان رئيسا للفرقة الموسيقى بكنيسة (انيسى) ، والذى اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفر من وجوههم .. وقد رافقته إلى (ليون) . وعندما عدت إلى (انيسى) ، إذا بى أفاجا بأن « ماما » قد رحلت فى بعض ثلثونها ، ولم ادر لها مقصدا أو مقرا !

واقمت فترة مع « فينتور » وهو شاب كنت أعرفه من قبل ،

وكان يزعم أنه موسيقى موهوب . وكان لبقا ، أنيقا ، مرحا ، يستهوى النساء .. وفى تلك الأثناء ، كان أبى قد تزوج من امرأة على شئ من الدهاء والقول المعسول ، وشغل عنى !

انتهى بى المطاف إلى (لوزان) ، حيث رحمت أتكسب عيشى بتدريس الموسيقى ، بأذلا جهدى . فى الوقت ذاته — إلى تنمية معرفتى بها . وحاولت إذ ذاك أن أكون ملحنسا ، دون ما إلمام كاف بأصول التلحين ، فمضى لحنى الاول بفشل ذريع ، جعلنى أعيش فى حزن وهوان لفترة من الوقت .

ولم اكف طيلة هذه الأحداث من الحنين إلى « ماما » ، لا لحاجتى المادية نحسب ، وإنما لحاجتى القلبية قبل كل شئ ! .. ومع ذلك ، فإن تعلقى بها — برغم ما كان عليه من تاجع وقوة — لم يكن ليحول بينى وبين أن أحب غيرها . ولكن ، على غير شاكلة حبى لها !

وقدر لى أن أذهب إلى باريس ، ولكننى لم ألق فيها الحظ الذى كانت تصوره لى أحلامى . على اتنى ظفرت هنالك بنبا جعلنى انطلق من جديد بحثا عن السيدة دى « فاران » . وهكذا أخذت أجوب الأقاليم على غير هدى ، متعرضا للشرد ، والتضور جوعا ، والظوم فى الطرقات .. حتى عرفت أخيرا أن « ماما » الحبيبة قد استقرت فى (شابيرى) ، فخلفت إليها .. وما كان احلاه من لقاء !

واستطاعت « ماما » أن تحصل لى على منصب فى « المساحة » ، فبدأت أكسب عيشى بعمل مشرفا ! .. وكانت هذه خير خاتمة لبأكورة صياى !

واقبت في دار « ماما » ، في (شامبيري) .. ولكنها لم تكن في بهاء دارها الأخرى في (انيسي) ، إذ كانت موارد « ماما » في تضالٍ ، وكانت أمورهم مضطربة . وفي هذه الحياة الجديدة ، اكتشفت أن « ماما » كانت على علاقة بخادها الوق « كلود أنيه » . وكان شابا لا يكبرني بكثير ، ولكنه كان رزينا وقورا ، غدا منى بمثابة المربي . ومع أنني لم أنج من الألم ، إذ أدركت أن نسبة من استطاع أن يعيش مع « ماما » في مودة تفوق مودتي كثيرا ، إلا أن وفائي للسيدة امتد إلى الشاب ، فقد كنت راغبا في مساعدتها هي قبل كل شيء !

وانصرفت إلى الموسيقى - في تلك الأثناء - في استغراق ملك على حواسي ، وحملني على أن استقيل من عملي في « المساحة » ، وأن أستعين على الحياة بتدريس هذا الفن . وقادني هذا إلى المجتمع الراقى ، وإلى دور ذوي الجاه والثراء . وبقدر ما تعرضت للمغازلات من فتيات ونساء هذا الوسط ، فإن سذاجتي - التي ذهبت إلى درجة الغباء - كانت تفوت على الفهم . إلى أن أحسست « ماما » بأن إحدى السيدات كانت توشك أن توقعني في أحبالها ، فاشفقت على من مخاطر شبابي ، ورات أن تنقذني منها بأغرب طريقة خطرت لامرأة في مثل ظروفها .. بأن تمنحني نفسها ! .. وهكذا أخذت « ماما » تروى عطشي إلى النساء من معينها .. على أن العلاقة البدنية لم تفسد شيئا من براءة علاقاتنا العاطفية والروحية والفكرية ، كما أنها لم تؤثر على علاقة كل منا بخادمها وعشيقها « كلود أنيه » ، بل قامت بين « ثلاثتنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض !

وما لبث « أنيه » أن مات - وهو في ريعان شبابه - فحطت محله في تدبير شئون « ماما » وماليتها . ولاحظت أن مواردنا كانت في نضوب ، فأخذت أعمل جاهدا على أن أجلبها هاربة من الإفلاس . وانتهى بي التفكير إلى وجوب الحصول على عمل ، كي أعول من دخله « ماما » إذا ألت بها الفاقة . وفي سبيل ذلك رايت أن أتعلم الطبخين ، فكان هذا الاتجاه عاملا جديدا على تهديد مواردنا المتضائلة ! .. وكذلك شرعت في تأليف الأغاني .

وقضيت عامين أو ثلاثة بين الموسيقى ، ومجالسة الحكام وذوى الجاه ، والرحلات .. وما لبثت صحتي أن أخذت تتداعى ، وغلبني الاكتئاب والأسى والتشاؤم ، فنصح لي الطبيب بأن أقيم في الريف ، وسرعان ما استأجرت « ماما » منزلا ذا حديقة وبستان ، في ضيعة (شامريت) . وهناك ، نعمت بأهنا فترة في حياتي .. مع « ماما » !

ولكنه كان هناء قصير الأجل .. غنى تلك الأثناء ، شعرت بضيق في القلب ، وضيق في التنفس ، وطنين في الأذنين ، وتراخ في حيويتي ، مما أوحى إلي بأن عمري لن يطول ، فرايت أن استمتع بما تبقى منه أعظم استمتاع . وأقبلت على دراسة العلوم والآداب ، كما أكثر من الأسفار ، أنشد علليا .

وفي إحدى هذه الأسفار ، التقيت بالسيدة دي « لارناج » وكانت تكبرني في السن كثيرا ، ولكنها راحت تعمل على أغوائي حتى إذا رأت ما كان الخجل والتردد يحلله من قيود تشل

إقبالي عليها ، لم تتورع عن أن تكون هي البائدة بالعناق والتقبيل .. وأصبحت عشيقتي خلال الرحلة ! ولو أنني عشت مائة عام ، لما استطعت أن أفكر قط في هذه المرأة الفاتنة دون أن يطغى السرور على ! .. كانت تمتعني مع « ماما » مثوية بالأسى والضيق .. أما مع السيدة دي لارناج ، فقد كنت مخورا بروجولتي ، مزهوا بسمادتي .

وكانت صديمة لي أن عدت إلى « ماما » ، فوجدت أن شأبا غري قد حل محلي أثناء غيابي .. وكان جاهلا ، مغرورا ، استطاع أن يغرض علي « ماما » سلطانه ، فلم استطع أن أطيق بقاء إلى جوارها ، وقررت أن أهجر الدار ، وأن أرحل إلى باريس ، لأعرض على « الأكاديمية » طريقة ابتكرتها لتسجيل « النوتة » الموسيقية بالأرقام بدلا من العلامات .

الكتاب الثاني

وصلت إلى باريس في خريف سنة ١٧٤١ .. واستطاع بعض من جهلت إليهم خطابات للتوصية ، أن يمتنني من التقدم إلى « الأكاديمية » برسالتي التي قدر لي أن يناقشني فيها علماء لم يكن بينهم من له إلمام كاف بالموسيقى ، فانتبهوا إلى الحكم بعدم صلاحية طريقتي . وبدلا من أن أسسلم للنقوطة ، أسلمت نفسي للضمول وللقدر ، ورحلت أقتر على نفسي لأفيد بها تبقى من موارد المتضائلة .

وأخرجني الأب « كاستيل » من استسلامي للكسل ، إذ عسرغني بالبارونة « دي بوزينفال » وابنتهما المركزة

« دي بروجولي » ، وبالسيدة «دوبان» .. وكان يملن إلى الموسيقى .. ولقد أبدت لي السيدة « دي بروجولي » عطفا خاصا ، ونصحني بتعلم «اللاتيكيت» ! .. أما السيدة «دوبان» ، فكانت غائبة الشخصية . وقد تعرفت لديها على السيد « دي غرانكوي » ، ابن زوجها . وقد أطعمني لطفها ، فبهت حبا بها ، وكتبت لها رسالة غرامية ، ردتها إلي مع تأنيب جدد له دمي ! .. وارتد عقلي إلى — بعد ذلك — فغذمت بصادقتها والتردد على دارها .

وفي تلك الأثناء ، أقبلت على وضع « أوبرا » من حياة ثلاثة من الشعراء ، هم «تاس» ، و«أونيد» ، و«انكاريون» .. وقد أسبغتها « عرائس الشعر اللطاف » .. وقبل أن افرغ منها ، التحقت بالعمل كسكرتير للسيد الكونت « دي مونتيجي » ، سفير فرنسا في البندقية .. ورحلت إلى هناك .

واستطعت في هذا المنصب أن أبدي مهارة وحكمة ، وأن اكتسب محبة الفرنسيين المقيمين في (البندقية) ، وإن اكتسبت عدااء السفير ، إذ كان رجلا أحق ، جاهلا ، جشعا ، أسلم قياده لمستشارين من الإيطاليين استفلاذ اشنع استغلال ، ولوقعا بينه وبين الفرنسيين هناك .. واستطاعا أن يوغرا صدره على لأنني كنت مخلصا لعمله ، جادا في مسلكي ، معترزا بكرامتي . وكان من جراء ذلك أن راح السفير بضايقتي ويكثر من مشاكلتي ، حتى اضطرت — في النهاية — إلى أن أترك العمل في السفارة ، برغم أن السيد « دي مونتيجي » أس أن يسوى حسابي ، وأن يدفع إلي استحقاقي

وفي (باريس) ، رحلت أشكو تصرفات السفير معى لذوى النفوذ ، فكان كل امرئ يقرئنى على أذننى وظلمت ، ولكن احدا لم يحاول أن ينصفنى .. على أن الرجل لم يلبث أن جنى على نفسه بتصرفاته الحمقاء ، فاستدعى إلى باريس ، واتمى عن منصبه ، وأوعز إليه أن يرد إلى ما كنت استحق من نقود لديه .. على أن عدالة شكايائى ، وعدم اكتراث احد بانصافى طيلة تلك الفترة ، خلفت فى نفسى بذور السخط على المدنية الحمقاء ، التى تضخى نطمها بالمصلحة العامة ، والعدالة الحققة ، وتخلع شرعية السلطة العامة على جور الاقوياء واستبدادهم بالضعفاء !

وتفرغت لاستكمال « الأوبرا » التى كنت قد بدأتها .. وفى تلك الاثناء ، تعلقت بفنائة محتشمة ساذجة كانت تعمل فى الفندق الذى نزلت فيه ، فسرعان ما برح بنا الهوى .. واعتزمت لى بزلة وحيدة تعرضت لها فى فترة براقتها ، فلم يحل هذا دون أن ازداد حبا لها !

واكتملت « أوبراى » ، فعرضتها على « رامو » - الذى كان واسع النفوذ فى الوسط الفنى - ولكنه تحامل عليها ، وأذكت تحامله تلميذته - السيدة ديلا بويلينير - فراح يتهمنى بأننى سرقت الألحان .. على أن السيد « ريشيليو » شجعنى ، وسألنى أن أغير الفصل الأخير من « الأوبرا » ، لیسعى لعرضها على مشهد من الملك . وما لبث أن شغلنى عنها بان اناط بى تعديل « أوبرا » كانت من تأليف « غولتر » وتلحين « رامو » . وادى اشتراكى مع هذين العظميين فى عمل كهذا ، إلى إذكاء روحى

المعنوية . غير أن « رامو » استطاع - بالتواطؤ مع السيدة ديلا بويلينير - أن يحول دون أن يعرف الراى العام نصيبى فى ذلك العمل !

وادت كل هذه الظروف إلى تثبيط عزيمتى نحو الرقى . فلم أعد أفكر فى أكثر من كسب قوتى وقوت تيريز ، بالعمل كمسكرتير للسيدة دوبان ، والسيد دى فرانكوى .. وأقبلت فى تلك الاثناء على دراسة الكيمياء مع الآخر .

انتهجت علاقتى بتيريز ثمرة اسلمناها إلى ملجأ اللقطاء .. وكذلك فعلنا بأبنائنا الذين تماقبوا حتى صاروا خمسة !

وما لبثت أن قرأت صدىة عن الموضوع الذى حسده المحفل العلمى بديجون لمباراته فى العام التالى ، وهو : « هل ساعد تقدم العلوم والفنون على إفساد الأخلاق أو على تطهيرها ؟ » .. وانتابتنى شبه غيبوبة ، وأتانى خلالها إلهام أوحى إلى بمقال فى الموضوع أرسلته إلى المحفل .

وفى تلك الاثناء كنت قد أثثت لنفسى مسكنا خاصا « صممت فيه « تيريز » إلى .. وسرعان ما اتبلت أسرتها تعيش معنا . ويقدر ما سعدت بلحظات هائلة مع غنائى « فائنى شقتت بأهلها الذين كانوا يستفدون مواردنا - من عملها - ومواردى .

وقدر لمعالى أن يفوز فى العام التالى - ١٧٥٠ - بجائزة محفل ديجون ، فأيقظ ذلك فى نفسى حب التحرر من خدمة الغير ، والسعى إلى أن أكون إنسانا ناضلا ، ذا استقلال ذاتى .

وأصبحت صحتي - في هذه الفترة - فأوحى إلى طبيب شهير بأنني لن أبقى في الحياة لأكثر من ستة أشهر . فقررت أن أعيشها حراً مستقلاً ، ولو اضطررت هذا إلى حياة الكفاف . . واشتد عزمي على أن أتمسك باستقلالي ، فاستخدمت كل قوى الروحية في تحطيم أغلال الرأي العام ، وفي أن أقدم بشجاعة على ما أراه خيراً ، دون أن أحفل بأراء الناس . فأوعز بسلكي هذا صيدور أصدقائي .

وعملت كناسخ للقطع الموسيقية ، بعد أن استقلت من خدمة السيدة دو بيان والسيد دي فرانكويي . . وأخذت أنصو نحو النقش لأصلح من أمر نفسي . وكان مقالتي قد أحدث في تلك الأثناء ضجة فمكثت شواغلي الأدبية ، حتى الهفتي عن عملي في نسخ الموسيقى . . وأثار المقال انتقادات مريرة ، اشتبك فيها الملك « ستانيسلاس » البولندي بنفسه ، فانصرفت إلى الخود عن رأيي في جرأة خشي على بعض أصدقائي منها .

وما لبثت أن أدركت أن العيش في فقر وحرية ، ليس بالسهولة التي يتصورها المرء دائماً . . ولقد حاول بعض المعجبين بي أن يعرضوني عن فلك الهدايا ، ولكني رحت أرفض جميع الهدايا ، دون ما استثناء . . ولم يصادف هذا المسلك هوى من نفس السيدة لوفاسير - أم تيريز - ولا أفلح ما اتسمت به ابتها من تجرد من النفع الذاتي ، في صدها عن قبول الهدايا من وراء ظهري ، ومن أغرائها ابتها على أن تقبلها هي الأخرى ، أو أن تكتم عني أمرها ، على الأقل !

ومن هنا اشتد الخلاف بيني وبين السيدة لوفاسير التي راحت تحرض ابتها على ، وتذمني لدى أصدقائي ، وتقامر بح من كانوا يحاولون منهم أن ينالوا مني . . ولقد أدى اندماجي في المجتمع إلى أن أعمل على إفكاء اعتدادي بنفسي ، فأحالني الحياة إلى هجاء لاذع ، وإلى أن أزدري آداب اللياقة . . فاضطر السلفرون إلى أن يحدوا من سخريتهم .

وأدت قصة « عراف القرية » إلى نالقي في المجتمع ، ففكر بعارفي . . وكانت هذه « الأوبرا » من طراز جديد ، وقد استطاعت أن تكتسب إعجاب الجمهور ، كما حضر الملك وحاشيته عرضها في البلاط . . ولقيت من التكريم ما أثار خلجي ، حتى أنني عندما دعيت إلى القصر الملكي ، وقيل لي إن من المعتقد أن الملك قد أزمع أن يعلنني بأنه قرر منحى معاشاً سنوياً ، بادرت إلى التهرب من المناسبة ، وتخلت عن المعاشي .

وزاد النجاح من تنكر أصدقائي لي ، وتآلبهم على . . وفي تلك الأثناء ، وضعت رسالتي عن : « حديث في عدم المساواة » ، التي أثارت فيها بعد ضجة كبيرة ، واجتلبت على نقبة الحكومات ، لا سيما حكومة (جنيف) .

وفي ذات يوم ، دعيت السيدة ديناي إلى مرافقتها إلى ضيحتها (الاشيفريت) ، حيث كان العمل جارياً في إضافة جناح إلى القصر . . وهناك « وجدتني قد جددت بناء كوخ صغير كان في طرف المتنزهات المحيطة بالقصر ، في متاخمة غايية (بونمورتسي) . . وكنت قد أبديت من قبل إعجابي بـ »

جميل . فعملت السيدة على إعداده لسكنائى ، ودعنتى للإقامة فيه . وبالرغم مما أثاره هذا من تخرصات « أصدقائى ! الذين راحوا يروجون أننى أعيش على كرم السيدة ديبينائى ، غانتى لم أتردد فى هجران باريس » والاقامة فى (الريميتاج) - كما كان ذلك الكوخ يسمى - مصطحبا « تيريز » وإمها .

وهناك ، تفرغت للإنتاج الأدبى . ومع أننى بدأت أشعر بأن إقامتى على مقربة من السيدة ديبينائى ، وفى ضيافتها ، قد حد بعض الشيء من حريتى ، إلا أن هذا لم يحد من إقبالى على الإنتاج .

وفى هذه الفترة بالذات ، اشتدت توثق العلاقات بينى وبين « تيريز » ، وازداد فهم كل منا للآخر . . وقد يعجب القارئ لهذه الرابطة التى توجتها فى شيخوختى - وبعد خمس وعشرين سنة من المعاشرة - بالزواج . . قد يعجب القارئ لهذه الرابطة ، إذا صارحته بأننى لم أحب يوما « تيريز » ولا اشتيتها . . ومع ذلك فأنها كانت « ومها » أعز امرأتين لدى ! . . الواقع أن ما دفعنى إلى التعلق بتيريز - من البداية - هو أننى كنت أتوق إلى زميلة أندمج معها روحا وقلبا . . وكان لطفها وسذاجتها وأخلاقتها كفيفة بأن توحى إلى بأنها خير من تصلح لذلك . ولكن ولاءها لامها وأسرتها ، وجشع هؤلاء ، كانا يفسدان علينا هناعنا . . وكانا يجمعان تيريز ملكا لأهلها ، أكثر مما كانت ملكا لى ، أو ملكا لنفسها !

وكنتم أشعر بحاجة إلى صديق يملا فراغ قلبى بوده ، وبحفونى على التخلص من كسلى المعتاد ، فرحت أعزز علاقاتى

بديدرو ، والراهب دى كونديلاك ، وغيرهما . . وما لبثت أن وجدتتى مرتعيا فى أحضان الأدب ، الذى كنت قد هجرته . وأقضى بى هذا إلى دنيا جديدة من الفكر ، فلم أعد أرى فى فلسفتنا سوى خلل ، ولا فى نظامنا الاجتماعى سوى ظلم وشقاء . . وانتفيت إلى أن لوثر الحياة فى عزلة - فى الريف - متعيا بسنن الطبيعة ، فلم يقتصر لى أصدقائى المزعومون هذا المسلك !

وقضيت أربع سنوات فى هذه الفورة ، لم أعتقد خلالها سوى كل جميل وجميل . ومن هنا نبعث بلاغتى المفاجئة ، وتولد ذلك اللهب السماوى الصادق ، الذى الهبى وانتشر فى كتبى الأولى . . وازدريت أطلاق عصرى ومبادئه وأوهامه ، دون أن احتل بسخرية أصحاب تلك المبادئ . فإذا معظم أصدقائى - لا سيما البارون « دولباخ » وعصبة ، و « جريم » و « ديدرو » - يتقلبون على ، بل إنهم استمالوا إليهم لم « تيريز » ، وحاولوا استمالة « تيريز » نفسها ، لولا أن حب الفتاة ووفاءها دفعها إلى أن تصارحنى بكل شيء ، عندما أدركت الخطر الذى كان محدقا بى ، من جراء دسائس الأصدقاء المزعومين .

ولم يعكر على صفاء السيش فى مسكنى النائى ، وعزلتى الفاتنة ، سوى أننى كنت رهنا بتدبيرات السيدة « ديبينائى » ، وإزعاج الزائرين الذين كانوا يتوافدون على دارى . . وأخذت فى تلك الأثناء أحن إلى أم « شارميت » وإلى الماضى النهى ، وإلى الحسان والتليذات اللائى . . وإلى حبيبى المبكر . .

وإذا بجان الجاد ، المتكشف ، الذي أشرف على الخامسة والأربعين ، يرتد نجاة هائلا وراء الحب .. وطوحت بي استحالة اقتناص المخلوقات الحقيقية ، إلى عالم الأوهام والخيالات ، كي أغذى صبايبي من عالم خيالي ، تمرره أطيف نائنة !

وفي أوج نشوئي بهذا العالم السحري ، عاودني المرض القاسي (احتباس البول) . وضاعف من أساى المتاعب المنزلية . إذ كانت السيدة «لوفاسير» - أم تيريز - تؤلب أبتها على . ورأيتهامعنة في التآمر مع « جريم » وعصبة « دولباخ » ، فلم أجد بدا من أن أقصيهما عن داري ، وإن كفلت لها نفقات الإقامة في (باريس) .

على أنني لم البث أن عدت إلى عالم خيالي ، فتمثلت الحب والصداقة - وهما معبودا قلبي - في شكل حوريتين متجانستين ، متحابتين ، ورحمت أفسفى عليهما كل ما كنت أعجب به من صفات الجنس الآخر ، ووهبت إحداهما حبيبا كانت الأخرى صديقه الخون .. ثم أسكنتهما عالما سحريا جمعت فيه كل ما كنت أعجب به من روائع الطبيعة في البقاع التي شهدت .. ثم رحت أسكب خيالاتي على الورق ، ولذا منها كتابي : « جولي » .

وفي تلك الأثناء ، زارني السيدة الكونتة دوديتو ، أخت السيد ديبيناي ، فتوثقت بيننا عرى الصداقة . وكانت زيارتها أشبه بفتاحة قصة غرامية .. ولم تكن السيدة دوديتو جبيلة ، فقد شوه الجدرى وجهها ، كما أنها كانت قصيرة البصر . ولكنها أوتيت إشراقة الشباب ، وجاذبية قوية ، وقواما بديعا ،

وخفرا بضاعف من بهائيا . كما كانت لها أخلاق نبيلة ، وكانت شديدة الوفاء لعشيقها « دى سان - لامبير » ، السذى كان يستحثها على أن توثق صلاتها بي . على أن علاقتي بها تحولت إلى وجد مشبوب ، غلبني على أمرى ، فلم أزع الصداقة ، ولا السن .. ولقد حرصت هي على أن تكبح جماحي ، ولم تاب على شيئا مما يستطيع أرق الود أن يكفله ، ولكنهما لم تمنحنى شيئا كان يحتمل أن يريدها في حماة الخيانة !

على أنني أخطئ إذا قلت أن حبي لم يلق جزاء ، بل إنه كان حيا متمادلا لدى الطرفين ، وإن لم يكن متبادلا بينهما .. كان كلانا نشوان بالهوى .. هواى إياها ، وهواها حبيبها! .. وكالنت زفرانا ودبوعنا ونجوانا نمتزج مقترابط .. حتى لقد كان من المستحيل ألا نتحد .. ومع أنني في غمرة الجوى ، كنت أنساق للدوافع الشهوية ، إلا أن السيدة دوديتو لم تنس نفسها لحظة واحدة .. ومع أنها لم تاب على عناقا أو قبلا ، إلا أنها ظلت ماهرة الجسد والقلب ! ..

ولم أعطن في اقتنائي إلى أن « دولباخ » والسيدة «ديبيناي» قد لاحظا ما بيننا ، وأن الأخيرة دست لنا لدى « سان - لامبير » الذى كان مع الجيش في (ويستفاليا) . وانضم إلى المتآمرين « جريم » الذى كان ناقها لأن السيدة «دوديتو» صدته من قبل . واستثارنى أن جاءت السيدة ديبيناي إلى (ليرميلاج) مرة ، وحاولت أن تغرى تيريز بأن تطلعها على ما كنت ألقاه من رسائل السيدة «دوديتو» . فغادى بي أكتب إليها في قصوة ، كاشفا عن انتباهي إلى مؤامراتها الخفية . ومع أن الوثائم عاد بيننا ثابتة ، إلا أن البث لم تحسول إلى

خصام ، عندما عرضت على السيدة ديبيناى ان اصحبها فى رحلة إلى جنيف ، قايبت .

وفى تلك الأثناء ، نشر ديدرو كتابه « أبناء السفاح » . فاحزننى أن وجدت فيه تلميحات غير كريمة ، لا سيما قوله انه « لا يلزم المذلة سوى أهل الخبث » . وكتبت إليه عاتيا فى رفق . . ولكن هذا لم يزد إلا نحاما . واستولت الضجة التى اخذ خصومى بثرونها - باسم الصداقة - على اذهان الناس ، حتى أصبحت فى نظرهم مخلعا . بل ان السيدة دودينو ، لم تلبث أن حملتنى على أن اذهب إلى باريس ، لاسمى إلى صلح معه . ولكن هذا الصلح لم يقدر له دوام . ولم تكن الأيام تزيدنى إلا يقينا من غدر " جريم " وخداعه . على انه أضاف إلى ذلك استعلاء قريبا « مذ أصبح خليلي لدام ديبيناى » ثم تطورت الأحوال وتفاقمت بعد أن أقصيت مدام لوفاسير عن دارى « إذ انها كانت عينا له ولزمرة المتأمرين . . واستنحل الأمر » حتى انتهى بى إلى أن غادرت (ليرميانج) ، وأقيمت فى دار صغيرة فى (مون لوى) مونمورنسى .

وما لبثت مدام دودينو أن بارحت الريف - هى الأخرى - فانتهت بذلك علاقاتى الشخصية بها . وأقسم بأن هواى التعمس لم يفقد شيئا من عنفوانه ، ولكن كرم «سان - لامبير» : وولاءه له ، تركا أثرا قويا فى نفسى « حتى أن شهورائى تبارقننى . ومن المحتمل أن الوجد الذى اذكته فى قلبى « هو أقوى وجسد شعر به أى رجل عن الإطلاق . وسيبقى دائما مجدا مكرما لدى السماء ولدينا ، بفضل التضحيات الغضة ، والألوية . التى قدمنها فى سبيل الواجب ، والشرف ، والحب ، والصداقة .

وبدا ان مقابى فى « مونمورنسى » قد ساء السيدة ديبيناى وجريم ، فمعدا العزم على أن يقضيا على قضاء مبرما . فراحا وحلفاؤها يشهرون بى ، ويبدرون الاتهامات الخبيثة ضدى . وهم يظهرون بالعطف والاشفاق على ، فسرعان ما خدع الراى العام بحيلهم ، واعتقد أننى كنت غادرا بأصدقائى « جاحدا لأفضالهم ، ونظموا حملة بارعة لتشويه سمعتى ، وليس ما يوغرهم ضدى سوى أننى احتفظت ببساطة ميولى الأصلية ، وتشبعت بمبادئى وواجباتى ، وسلكت فى جلد طرق الاستقامة والاستقلال . فلم أتملق أو أنزف على حساب العدالة والحق .

واقبل الشتاء . فلم اعد اغادر الدار ، وفى عزلى هذه . انهمت قصة « جولى » وأرسلتها إلى الناشر . . ورا تلك الأثناء ، تعرفت بالسيد المارشال دوق دي لوكسمبورج والسيدة زوجته . وكانا من المبح نجوم البلاط الملكى . . كما كان الدوق صديقا شخسيا للملك . وقد غبرائى بطفلهما ومجاملتهما ، وقربائى إليهما . . وسرعان ما وجدتني أسير سحر الدوقة الفاتنة ، لا سيما حين رحت اقرأ عليها قصة « جولى » ، وهى فى مخدعها . . واستولى على الدوقة شغف طاغ بـ « جولى » وبمؤلفها . فأصبحت لا تنكلم إلا عنى ، ولا تفكر إلا فى . وكلفت تعانقنى عشر مرات فى النهار ، ولا تجلس إلى مائدة إلا إذا كنت معها .

وطلبت الدوقة نسخة من قصتى الجديدة « هيلويس » ، فخطر لى أن أضف إلى القصة صفحات كنت كتبها بعنوان « مغامرات اللورد إدوارد » . . وكانها كان القصة « هيلويس » .

إذ كان في تلك المغامرات ذكر لركيزة رومانية متهتكة . وكانت فكرة خرقاء ، إذ انها أوحى للدوقة بأن ثمة شبيب بينها وبين بطة القصة - وهو مالا بد قد أدى شعورها - وما حدثت الأمر إلا بعدد أمد طويل ، وبسبب ظواهر أخرى ترقبت عليه . فقد حدث أن اتيل المراقب العام للمالية الفرنسية من منصبه ، لأنه اتخذ إجراءات شديدة لإنتقاذ الدولة من طغيان رجال المال ، فكتبت اهنة بهذه الإقالة المشرقة ، واستطاعت الدوقة أن تحصل على صورة من هذا الخطاب « دون أن افطن إلى انها من فريق « جامعى المال » . وما لبث المفور أن دب ببلى وبينها ، وإن ظل زوجها وثيق العلاقة بي !

وباتصالي بالدوقة دى لوكمسبورج ، تعرفت إلى السيدة دى بوفليير ، اختها . . كما أتني لم البث أن غدوت مدينا لما . عندما تنازل السيد الأمير « دى كونتى » بزيارتي مرثين و داري ، وبإسباغ عطفه على . وقد كدت ارتكب حماقة جديدة . بأن اغدو بتافسها له في حب السيدة دى بوفليير ، له لا أتري كنت - وقد بلغت الخمسين - أحكم منى عندما تطلبت في هوى السيدة دوديتو ، فعرفت كيف أقاوم وجدى .

وهنا تنتهى مجموعة الرسائل التي كانت بمثابة دليل لى فى الكراسات السابقة ، وأصبح على أن اعتمد على ذاكرتى فيها بقى .

والآن . . تعال نواصل قراءة هذا الجزء
الباقي من الاعترافات ، وهو أهمها . .

الكراسة الحادية عشرة

سنة ١٧٦١

ومع أن قصة « جولى » - التي استغرقت طباعتها أمدا طويلا - لم تكن قد ظهرت بعد حتى نهاية سنة ١٧٦٠ ، إلا انها كانت قد شرعت تثير ضجة كبرى . فان السيدة دى لوكمسبورج راحت تتحدث عنها في البلاط ، كما أن السيدة دوديتو كانت تتحدث عنها في باريس . بل إن هذه الأخيرة استأذنتني ، باسم سان - لاميير ، في قراءة القصة - من النسخة المخطوطة - على ملك بولندا ، الذي غتن بها . وبعد ديكلو - الذي كنت قد سمحت بقراءتها عليه - إلى الحديث عنها في الجمع (الأكاديمية) . فكانت باريس بأسرها تنحرق شوقا في انتظار هذه القصة ، وحوصرت مفاجر الكتب في شارع سان جاك . و (بآليه رويال) بالناس الذين كانوا يتساعلون عن انماها !

وظهرت أخيرا . فكان نجاحها الخارق منبشيا مع الشوق الذي كانت ترققب به ! (١)

وتحدثت السيدة زوجة ولى العهد - التي كانت من أوائل من اطلعوا عليها - إلى السيدة دى لوكمسبورج عنباء غوصفتها

« عجب » روسو « على هذا بقوله : « كانت النسخة تؤثر للقراءة مائتة مرة » في الساعة . في الإله الأولى لشهر نوفمبر . »

بأنها مؤلف يسلب الألياب . ولقد انقسمت الآراء بين أهل الأدب . أما لدى الجيهور ، فلم يكن ثمة سوى رأى واحد . . وافقت النساء - بوجه خاص - بالكتاب وبالمؤلف . إلى حد أنه لم يكن بينهم من لم يكن في وسعي أن أغزو قلوبهن ، لو أنني شئت ، سوى القليلات . . حتى في الأوساط المراقية! . . ولدى على ذلك أدلة لا أبغى نشرها ولكنها تؤيد قولي ، دون ما حاجة إلى ذلك . ومن العجيب أن هذا الكتاب كان أكثر نجاحا في فرنسا منه في بقية أوروبا ، بالرغم من أن الفرنسيين - رجالا ونساء - لم يجدوا منى معاملة طيبة جدا فيه . ولقد كانت ضالكة نجاحه في سويسرا ، وعظم نجاحه في باريس . مناقضين لكل ما توقعتم . أهل كانت الصداقة والحب والفضيلة أكثر سسلطانا في باريس منها في أى مكان آخر . . لا ، بلا شك ، وإنما كان لا يزال يقلب عليها ذلك الشعور العام ، الذى ينتشى به القلب ، عندما تصور له الأحاسيس النقية « الناعمة » الفاضلة . . والذى يحدونا إلى أن نعتز بها لدى الغير من هذه الأحاسيس التى لم يعد لدينا منها شيء . . أن الفساد يشيع اليوم في كل مكان « فلا وجود لأخلاق ولا لفضيلة في أوروبا . فإذا قدر أن يكون ثمة حب باقى لها ، فإن باريس هى المكان الذى يجب أن نبحث عنه فيه (١) .

وفي غمرة هذه الأياميل والفرحات العاطفية ، كان لا بد من الإلمام بتعطيل القلب البشرى تحليلا صحيحا ، حتى لا يخلط

(١) أشتات « روسو » في هامش كتابه : « كتبت هذا في سنة ١٧٦٦ » .

المرء الأحاسيس الفطرية الصادقة بها . كان لا بد - للشعور بالمعاطف القلبية المرفهة التى اشتعل عليها هذا الكتاب - من رقة ولباقة لا تتوفران إلا بالاتصال بالمجتمع الراقى ، إذا جاز لى أن أقول هذا . وإنى لأشبهه الجزء الرابع من هذا المؤلف بكتاب « أميرة كليف » ، دون ما تورع . . وأؤكد أن هذين الكتابين ما كانت قيمتهما لتتجلى ، لو أن قراءتهما اقتصرتا على الأتاعليم وحدها . لذلك فلا عجب من أن أعظم نجح طفرت به « جولى » كان في البلاط الملكى . فقد أثارت هناك أهواء عارمة . . ولكنها مستترة - كانت خليقة بأن تحظى بالإعجاب « لأن أفراد الحاشية كانوا على دراية وبران بأن يستشعروا ما وراءها . على أنه لا بد من الإشارة هنا إلى مفارقة ظاهرة . . تلك هى أن مطالعة هذا النوع من المؤلفات ، لا يلائم - يقينا - أولئك الأنكباء الذين لا يتجه ذكائهم إلا إلى المكر ، والذين لم يؤتوا من اللامعية إلا ما يمكنهم من أن يكتشفوا . . والذين لا يبصرون شيئا على الإطلاق « حيث لا يتبدى للأبصار سوى كل ما هو طيب وحسن . . غلو أن « جولى » نشرت في بلد معين يخطر ببالي - مثلا - لما أقبل أحد على قراءتها حتى نهايتها ، ولمأت في يوم مولدها ! ولقد جمعت معظم الرسائل التى كتبت إلى عن هذا المؤلف ، في حزمة عهدت بها إلى السيدة « دى نادياك » (١) . فإذا قدر

(١) كانت السيدة دى نادياك رئيسة لدير « جومير فونتان » ، الذى كان

يقع بتيقطة مدينة « زوان » ، والذى كان يقع بين « تورين » و « جنيف » .

لهذه المجموعة أن ترى النور ، فانها ستكشف عن كثير من الغرائب ، وعن تناقض في الرأي ، يبين ما يلتقي المسره إذا ما تعرض لمسألة نهم الرأي العام . على أن اقل ما عطن إليه القوم ، هو عين الميزة التي ستجعل هذا المؤلف فريدا في نوعه دائما . . . ميزة بساطة الموضوع ، وتسلسل السياق السدى اقتصر على ثلاثة أشخاص ، وتتابع في سنة مجلدات دون ما استعانة بأحداث ، أو مفاهيم خيالية ، أو شوائب من أي نوع ، سواء فيما يتعلق بإبطال القصة أو بتصرفاتهم . . . وكان « ديدرو » قد أطرى « ريتشاردسن » (٢) كثيرا ، للنفوس الهائل الذي نجلى في مواقف قصته ، ولتعدد الشخصيات التي قدمها . وليس من شك في أن « ريتشاردسن » كان موفقا إذ خلع على تلك الشخصيات كل الصفات المميزة . على أنه عمد - فيما يتعلق بصدها - إلى ما هو شائع لدى القاصصين غير الناضجين الذين يتسرون على تهاية افكارهم بزحمة الشخصيات والوقائع . إذ أن من السهل استثارة الاهتمام ، بتقديم سيل لا انقطاع له من الأحداث العجيبة والوجوه المستحدثة ، التي

=

دى تر - = كلمة مدينة سور - حيث نزل « رومو » لفترة من الزمن . ومما يذكر ، أن روسو كتب تعلية من الموسيقى الدينية - يوحى من هذه السيدة . ولا تزال النسخة الخطية لهذه القطعة مودعة في المكتبة الملكية - بالتحف الفرنسي .

(٢) « ريتشاردسن » مؤلف « أميرة كليف » التي يتيسر روسو بقصته

« جولى » .

تتوالى وكأنها أطراف مصباح سحري . . . ولكن استبقاء هذا الاهتمام على الدوام - بنفس الأشياء ، ودون ما وقائع غريبة مذهشة ، أمر بالغ المشقة . . . وعندما تتساوى جميع الاعتبارات ، نجد أن بساطة الموضوع تضاعف من جمال الكتاب . . . ومن هنا نرى أن قصص « ريتشاردسن » ، وإن تفوقت في كثير من الاعتبارات ، إلا انها لا تقاس ، من هذه الناحية ، بقصتي . وإذا كانت هذه قد ماتت - وإني لأدرك هذا ، وأعرفه السبب - إلا انها لن تلبث أن تبعث من جديد . وما كنت أخشى سوى أن يكون تطور القصة مملا ، بحكم بساطته ، وأن أكون قد عجزت عن توفير قدر كاف من الاهتمام ، يظل مستمرا حتى نهايتها « ولكني لم ألبث أن اطمانت ، بفضل واقعة هزت مشاعري أكثر مما هزتها جميع التهاني والمدح التي أجبها على هذا الكتاب :

ذلك أن القصة ظهرت في بداية أعياد المرافع (الكرنفال) . فحملها أحد الباعة المتجولين إلى السيدة الأميرة « دى تالمون » (١) ، في أحد الأيام التي أقيمت بها الحفلات الراقصة بدار « الأوبرا » - وبعد أن تناولت السيدة العشاء ، ارتدت ثيابها تأهباً للذهاب إلى الحفلة . حتى إذا اضطرت إلى الانتظار ساعة ، عمدت إلى قراءة القصة الجديدة ، وعند منتصف الليل ، أمرت بأن تشد الجياد إلى عربتها ، ثم واصلت القراءة . وأقبل

(١) استترك « روسو » في هامش كتابه تالما ، وسما كانت سيدة أخرى ، لا أعرف اسمها . بعد أن

من أعلنها بأن العربة معدة ، ولكنها لم تجب . وإذا رأى خدمها أنها قد نسيت نفسها ، أقبلوا بنبهونها إلى أن الساعة بلغت الثانية صباحا . فقلت وهي مسترسلة في القراءة : « لا داعي بعد للعجلة ! » . وبعد فترة ، تبين أن ساعتها كانت قد توقفت من العمل « فدفقت الجرس لتستعلم عن الوقت » فقبل لها أن الساعة كانت الرابعة . فقلت : « إذن غالوقت جد متأخر . ولا سبيل إلى الذهاب إلى المرقص » فاطلقوا الجياد ! » . وظلمت ثيابها ، ثم قضت بقية الليل في القراءة !

ومذ رويت لى هذه الواقعة ، أصبحت مشوقا دائما إلى رؤية السيدة دي تالمون ، لا لى أعرف منها - بالذات - أن الواقعة صحيحة ، فحسب ، وإنما لأننى لم أكن أظن قط أن من الممكن أن يشعر أى شخص بهمل هذا الاهتمام المحتشم نحو « جولى » ، دون أن يكون قد أوى الحاسة السادسة . . حاسة الإدراك الخلقى والأدبى التى لم تحط بها سوى قلوب فلائيل « والتى لا سبيل بدونها إلى فهم قلبى !

ولقد كان الأمر الذى جعل النساء يؤثرننى بهذه الدرجة . هو الاعتقاد الذى داخلهن بأننى أودعت الكتاب سرى الحقيقة ، وأننى بالذات ، كنت بطل هذه القصة . ولقد نغ من تغلغل هذا الاعتقاد ، أن كتبت السيدة دي بولينياك إلى السيدة دي فرديلان « لترجوني أن اسمح لها بأن ترى صورة « جولى » . فلقد اقتنع الفاس جميعا بأن من المستحيل التعبير عن الأحاسيس بهذا الإبداع ، دون أن أكون قد شعرت بها . . ولا وصف نورات الحب بهذا الأسلوب المتأجج ، ما لم تكن



وإذا رأى خدمها أنها قد نسيت نفسها . أقبلوا بنبهونها إلى أن الساعة بلغت

الثانية صباحا

منبعثة من الفؤاد مباشرة . ولقد كان الناس على حق في ذلك . فمن المحقق اننى كتبت هذه القصة وأنا في أشد حالات الجوى استمارا . . على أن من الخطأ الظن بأنه لا بد من مادة واقعية لإحداث هذا اللهيبة . . كما أن من أبعد الأمور عن الإدراك ، تصور مدى الوجد الذي كانت تذكيه في فؤادي مخلوقات خيالية موهومة « فغيبا عدا بعض ذكريات قلائل من الصبا . ومن السيدة دوديتو ، لم يكن الشوق — الذي كابفته ووصفته — قائما إلا نحو أطراف الخيال السابحة في الهواء .

ولم أشأ أن أعزز أو أن أهدم خطأ كان في صالحى . ومن الميسور للمرء أن يتبين من المقدمة التى صفتها على شكل حوار ، والثى طبعتها على حدة ، كيف تركت الراى العام في شك إزاء هذه النقطة . وقد يقول المترمنون إن الواجب كان يقتضىنى أن أعلن الحقيقة بجلاله تام . على اننى — من ناحيتى — لا أرى التزاما كان يحدونى إلى أن أفعل ذلك ، واعتقد اننى كنت خليقا بأن أبدو غيبيا ، أكثر منى صريحا ، لو اننى اقدمت على « البيان ، دون ما ضرورة تدعو إليه !

وظهر حوالى ذلك الوقت — تقريبا — « السلام الدائم » . الذى كتبت قد عهدت ، في العام السابق ، بمخطوطه إلى شخص — يدعى السيد « دى باستيد » — كان رئيس تحرير صحيفة تدعى « لوموند » ، أى العالم ، وقد رغب في أن ينشر كل مخطوطاتى في هذه الصحيفة ، رضيت أم لم أرض ! . . ولقد كان من معارف السيد ديكلو ، فراح يلح على باسمه في أن

أساعده على ملء صفحات « لوموند » . وكان قد سمع عن « جولى » ، فأرادنى على أن أنشرها في صحيفته ، كما ود لو أنشر فيها « أميل » . وكان خليقا بأن يرغب في أن أنشر فيها « العقد الاجتماعى » لو أنه حدس وجوده . فلما ضقت بإلحاحه — في النهاية — قررت أن أنزل له عما خرجت به من « السلام الدائم » في مقابل اننى عشر « لوى » . وكان الاتفاق بيننا على أن ينشره في صحيفته ، ولكنه لم يكد يستولى على المخطوط « حتى رأى أن يطبعه في كتاب مستقل ، بعد حذف فقرات منه اقتطعها الرقيب . نرى ما الذى كان خليقا بأن يحدث ، لو اننى كنت قد أضفت إلى المخطوط آرائى وتعليقاتى على الكتاب الاصلى ! اننى لحسن الحظ لم اتحدث عنها إلى السيد دى باستيد ، ومن ثم لمانها لم تدخل ضمن صفقتنا ! . . ولا تزال هذه الآراء بين يورائى ، مسجلة بخط اليد (١) . وإذا قدر لها أن تظهر ، فسوف يتجلى كم كانت فكاهات « فولتير » وآراؤه المعتدة . في هذا الموضوع ، خليفة بأن تضحكى . . انا الذى أدرك تمام الإدراك مدى نكاه هذا المسكين « فيما يتعلق بالأمور السياسية التى جرؤ على أن يتحم نفسه فيها !

وفي غمرة تجاحى لدى الراى العام ، والحظوة التى نلتها لدى السيدات ، رحبت أشعر بأننى كنت أفقد مكانتى في قصر دى لوكسمبورج ، لا لدى السيد المارشال — الذى كان يبدو

(١) انظر من أصل هذا الكتاب في طبعته الأولى ، ص ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠

أنه راح يضاعف بره بى وصداقته لى . يوما بعد يوم -- وإنما لدى السيدة المارشالة ! .. فان مخدعيا لم يعد يفتح كثيرا في وجهى . بعد أن لم يعد لدى ما أقرؤه عليها . ومع أننى كنت أتردد على القصر بانتظام بالغ خلال زيارتهما لمونورنسى -- إلا أننى أصبحت نادرا ما أراها . في غير أوقات اجتماعنا حول المائدة . بل أن المقعد المجاور لها . لم يعد قاصرا على وحدى . كما كان العهد من قبل ! .. وإذا لم تعد السيدة تعرضه على -- وأصبحت تقسط في الحديث إلى « ولم يعد لدى -- أنا الآخر -- الكثير مما يقال لها ، فإننى ارتحت كثيرا إلى اتخاذ مكان أخسر حول المائدة » كنت أشعر فيه بالحرية ، لا سيما في المساء . إذ وجسدتنى أتعود -- دون أن أظن -- الجلوس على مقربة من السيد المارشال .

وبمناسبة « المساء » ، أتذكر أننى قلت أننى لم أكن أتناول العشاء في القصر . وقد كان هذا صحيحا ، في بداية التعارف . على أنه لما كان السيد دى لوكسمبورج قد اعتاد الا تناول غداء قط ، بل ولا إلى أن يظهر حول مائدة الغداء . فقد ترنّب على ذلك أننى لم أتناول الطعام معه قط ، برغم انقضاء شهور عديدة على تعارفنا ، كنت فيها قد ألغيت التردد على الدار . وكان من الكرم بحيث أشار إلى ذلك ، بما دعانى إلى أن أقرر الذهاب لتناول العشاء هناك ، في بعض الأحيان التى لا يكون فيها ثمة ضيوف عديديون . وكنت أستمتع بذلك كثيرا . إذ أنا ، كما قد اعدتنا -- تقريبا -- تناول الغداء في الهواء الطلق ، و « دون ما كلفة » -- كما يقال -- في حين أن العشاء كان يستغرق وقتا طويلا ، لأن الضيوف كانوا ينشدون فيه فرصة

الراحة بعد نزهة طويلة على الأقدام . . وكان الطعام جد شهي ، لأن السيد دى لوكسمبورج كان أكلوا . . كما كانت المائدة مستحبة ، لأن السيدة دى لوكسمبورج كانت تقترح الانخبا ، في كثير من الجلال واللطف الساحرين . وبدون هذا الإيضاح يتعذر إدراك الفقرة التى وردت في ختام إحدى رسائل السيد دى لوكسمبورج : الملف « ج » -- رقم ٣٦ ، إذ قال السيد أنه كان يتذكر نزهاننا بكثير من السرور ، لا سيما حين كنا نعود إلى القصر في المساء ، غلا نجد أثرا لعجلات العربات في ساحة القصر . ذلك لأنه لما كانت الرمال -- التى يكتسى بها الغناء -- لا تسوى إلا في الصباح ، فإننى كنت أستطيع أن أحس من عدد الخطوط التى تخلفها عليها العجلات ، عدد الضيوف الذين وصلوا في غرة الأميل !

ولقد اترعت تلك السنة (١٦٧١) كأس المحن التى حاقت بهذا السيد الكريم مذ كان لى شرف التعرف إليه ، وكأنما كانت الشرور التى راح القدر يعدها لى ، مسوقة لأن تبسدا بالرجل الذى شعرت نحوه بأمس صدق الود ، والذي كان جسديرا بكل ولاء . . ففى العام الأول لتعارفنا ، فقد اخته : السيدة الدوقة دى فيلروي . . وفى العام الثانى ، فقد اخته السيدة الأميرة دى روبيك . . وفى الثالث ، نجع في ابنه الأوحد -- الدوق دى مونورنسى -- وفي حفيده الكونت دى لوكسمبورج ، الوريث الأوحد والأخير للأسرة ولقبها . ولقد حصل السيد المارشال كل هذه التكريات بجلد ياد -- في الظاهر -- ولكن عليه ثقل -- في

الخفاء - دأبها ، ما تبقى من حياته ، وراحت صحته تضمحل وكانت ميتة ابنه - المفجعة ، غير المتوقعة - جذيرة بأن تكون أشد تأثيرا عليه من كل شيء ، إذ أنها حدثت في عين اللحظة التي كان الملك قد منح فيها ابنه - ووعد بأن يفتح حفيده - الحق في أن يخلقه في قيادة الحرس الخاص - وقسدر عليه أن يتمتع برؤية حياة هذا الطفل - حفيده - الذي تركزت فيه كل هذه الآمال ، تذوى رويدا أمام عينيه ، من جراء ما كان لأمه من ثقة عبياء بالطبيب الذي تسبب في وفاته .. فقامت مات الطفل لفرط حاجته إلى الغذاء ، إذ أنه لم يكن يتغذى على غير العقاقير !

واحسرتاه ! .. ليتهم أخذوا برأى ، فلو أنهم فعلوا لظل الجد والحفيد على قيد الحياة ! .. فكم ظلت وكم كتبت للسيد المارشال .. وكم جلوت الراى للسيدة دى مونورنسى ، بصدف نظام التغذية ، الذى كان يتجاوز حدود التقشف ، والذي كانت تتبعه نحو ابنهما ، بسبب ثقتهما بالطبيب ! .. ومع أن السيدة دى لوكسمبورج كانت تشاطرنى الراى ، إلا أنها لم تشأ أن تتدخل في سلطة الأم ، كما أن السيد دى لوكسمبورج كان لطيفا ، ليئا ، فلم يشأ أن يعارضها ! .. وكانت السيدة دى مونورنسى تكن للطبيب « بوردو » ثقة انتهت بأن رأى ابنها ضحية لها ! .. لشد ما كان الصغير المسكين يفتيط كلها استطاع أن يحصل على إذن بالحضور إلى (مون - لوى) مع السيدة دى بوفليير ، إذ كان يطلب إلى تيريز بعض الطعام فيودع أمعاءه الخاوية شيئا من الغذاء ! .. لكم كنت أرش

- في دخيلتى - لتعاسات العظيمة ، كلها رأيت هذا الوريث لاوحد لمثل هذه الثروة الواسعة ، ومثل هذا الاسم الرفيع ، ومثل هذه الألقاب والرتب الكثيرة ، يلتهم في نهم المتسول كسره صغيرة « متواضعة » من الخبز ! .. على أن الطبيب انتصر على كل ما ظلت وفعلت .. ومات الصغير جوعا ! وهذه الثقة في الدجالين وادعياء الطب - التى اهلكت الحفيد - هى ذاتها التى حفرت قبر الجد ، فضلا عن أنه كان من ضعف العقل ، بحيث راح يحاول أن يخفى على نفسه علل الشيخوخة . فلقد كان السيد دى لوكسمبورج يمانئ - بين أن وآخر - ألا ما في الأصبع الكبرى لقدمه . وقد تمرض - أثناء وجوده في مونورنسى - لنوبة حرمة النوم ، وجعلته شبه محبوم . وإذا جرؤت على أن اللفظ كلمة « النقرس » ، انهالت السيدة دى لوكسمبورج على ثانيا ، فقد أعلن وصيف السيد المارشال وجراحه أن مرضه لم يكن من النقرس في شيء ، وراحا يسيفان على العضو المجوع بلسا ، وهذا الألم - لسوء الحظ - فلما أخذ يعود بعد ذلك ، كانوا يلجأون ، دون ما تردد ، إلى عين الدواء الذى أحدث الراحة وسرى الوجع من قبل .. وباضحلال صحة السيد المارشال ، أخذت آلامه تزداد ، فكانت العقاقير تزداد معها ! .. وعندما تبيئت السيدة دى لوكسمبورج - في النهاية - أن النقرس هو الذى كان مصدر الآلام ، عارضت هذا العلاج الأخرق . فراحوا يكتمون عنها - بعد ذلك - حاله ، حتى مات السيد دى لوكسمبورج بعد سنوات قليلة ، بفضل خطئه - ومن جراء ضراره على أن يعالج نفسه بنفسه ، وفي هوان . ولكن ..

ليس لنا أن نمنع في استباق المصائب ، فكم لدى من حديث أريد أن أرويّه قبل ذلك !

* * *

ولقد كان من التحسّس العجيب حقاً أن كل شيء كنت أقوله أو أفعله ، بدا وكأنه مسوق إليّ أن يسوء السيدة دي لوكسمبورج . ولو كنت في أشد الشوق إليّ أن أحتفظ برضاها . . . ولم تكن الآلام التي احتملها السيد دي لوكسمبورج — من الصدمات التي تعاقبت عليه — تزيدني إلا تعلقاً به ، وبالتالي ، بالسيدة دي لوكسمبورج ، إذ كانا يبدوان دوماً صادقي الاتحاد إلى درجة أن العواطف التي تخالغ المرء نحو أحدهما ، كانت تمتد بطبيعة الوضع إلى الآخر . . . ولقد راحت الشيفوخة تثقل كاهل السيد المارشال . كان حضوره المتواصل في البلاط الملكي ، والواجبات التي يتطلبها ذلك ، ورحلات الصيد المتتابعة ، والارهاق الذي كان يترتب على الخدمة خلال فصل الصيد ، كل هذه كانت تتطلب قوة الشباب ، ولم أكن أرى ثمة وسيلة تمكنه من القوة التي يتطلبها منصبه . وإذا لم يكن ثمة بد من أن توزع رتيبه على الغير ، وأن يتطفرء بريق اسمه بعد موته — لعدم وجود وريث له — فلم يكن هناك ما بدعوه إلى أن يستمر في حياة عمليّة مرهقة ، كانت الغاية الرئيسية منها هي أن يستبقى لأبنائه ما كان له من حظوة لدى المعامل !

وفي أحد الأيام ، كنا نحن الثلاثة معا ، ولا غريب بيننا ، وقد راح السيد المارشال يشكو من متاعب وأجباته في البلاط ، بروح الرجل الذي ثبطت المصائب عزيمته . فجزّوت على أن

نصدمته عن التقاعد . وأزجيت إليه النصيحة التي قدمها «سيتياس» إلى «اييروس» (١) . فنضيد ولم يجب برأي قاطع . ولكن السيدة دي لوكسمبورج راحت — في أول لحظة رأتني فيها على حدة — تلومني في عنف على نصيحتي التي أزعجتني . . على ما بدا لي . وأضافت إليّ ذلك إشارة لم ألبث أن شعرت بمدتها . ولم تلبث أن حولتني عن فكرة العودة ثانية إلى هذا الموضوع . . تلك هي أن اعتياد العيش في البلاط الملكي طويلاً ، أصبح ضرورة لا غنى عنها . بل إنه كان — حتى في تلك الظروف — ملهاة تصرف بال السيد دي لوكسمبورج عن همومه . وأن اعتزال البلاط — الذي نصحتني به — لن يكون مبعث راحة واستجمام له . بقدر ما يكون إقصاء ونفيا ! . . ولن يلبث الخمول والملل والحزن أن يضعا لحياته نهاية ! . . ومع أنها رأت ولا يد أنها قد أقنعتني ، ومع أنها كانت تستطيع أن تتركني إلى الوعد الذي قطعته لها « والذي ظلمت أصونه » فقد لاح لي أنها لم تطهّن يوماً من هذه الفاحية . وإنني لأذكر أن أحفلتني

(١) كان « بيروش » ملكاً على « اييرس » بين سنتي ٢١٨ و ٢٧٢ قبل الميلاد . وقد غزا إيطاليا قبل وفاته بثمانى سنوات ، ومع أنه هزم الرومان برتين . إلا أنه تكبد خسائر جسيمة . وكتب عليه أن ينكسر في النهاية وأن يعود إلى بلاده اليونانية . أما « سيتياس » فكان وزيره ومستشاره ، وكان الملك يقول أنه يحكمه أكسبه من المدن ما لم تنكسبه أباحا الجيوش . على أن الوزير كان يمارش جموح الملك في مطامحه . وقد حاول أن يثنيه عن غزو إيطاليا بحيث سطره التاريخ مثلاً للنصح اليقظ . . . « وروسو » .

بالمسيد المارشال أصبح - منذ ذلك الحين - نادرا ، وكانت خلواتنا تتعرض باستمرار لما يقطع علينا حبلها !

وفي الوقت الذي تعاونت فيه بلاهاتي ونحسى على الإساءة إلى - لدى السيدة - لم يكن هناك من يشفع لى لديها : ممن كانت تؤثرهم بمقابلاتها ومودتها . لا سيما الراهب دى بوفيطير الذى أوتى أكبر قسم من الفكاه يتاح لشباب فى سنه ، والذى لم يكن يعيل إلى البتة ! . . ولم يقتصر أمره على انه كان الوحيد - فى حاشية السيدة المارشالة - الذى لم يكن يبدى أنه احتفاء بى ، على الاطلاق ، بل إننى لاحظت - فى كل زيارة يؤديها إلى مونمورنسى - أننى كنت أفقد شيئا من حظونى لدى السيدة . على أنه من المحقق أن من الصحيح أن مجرد وجوده كان كافيا لأن يؤدي إلى ذلك ، دون أى تعمد من ناحيته . . فإن سخافاتى كانت تبدو معنمة ، ثقيلة ، إلى جانب لحاته المتسمة بالجلال وبسمو الروح . ولقد كانت زيارته لمونمورنسى نادرة ، خلال العامين الأولين ، وكنت بفضل تساهل السيدة المارشالة ، قادرا على أن أحتفظ بمكانتى ولكنه لم يكد يزداد انتظاما فى زيارته ، حتى وجدتني مقصيا عن هذه المكانة ، دون ما أمل فى استعادتها !

ولقد كنت على استعداد لأن انطوى تحت جناحه ، وأن اتخذ الوضع الذى يحمله على مصادقتى ، لولا أن خرج موقفى - الذى جعل من رضاه عنى ضرورة لازمة لى - كان هو عين السبب الذى بمنعنى من أن أكسب هذا الرضى ! . . وإذا كل ما رحمت أبذل فى هذا الصدد ، يطيش فيؤدى إلى القضاء على ما كان لى من حظوة لدى السيدة المارشالة ، دون

أن يجسدىنى أى نفع فى التقرب إليه ! . . وكان فى وسعه أن يوفق فى كل شيء ، بفضل فكائه ، بيد أن عجزه التام عن الاستمرار فى الداب ، وميله إلى النزق واللهو ، لم يمكنه من أن يكتسب سوى حق غير مكتمل فى كل عمل . ولقد اتبع له - على سبيل التعويض - أن يؤدى كثيرا من هذه الأعمال ، فكان هذا - فى حد ذاته - هو كل ما يلزمه لكى يلعب فى المجتمع الراقى « الذى كان يصبو إلى التآلق فيه ! . . كان يحسن نظم القصائد الصغيرة ، ويتقن كتابة الرسائل القصيرة « ويمزج الموسيقى ببعض المهارة ، ويرسم هونا ما بالطباشير الملونة . وقد أبدى رغبة فى أن يرسم لوحة للسيدة دى لويسبورج ، فجاءت اللوحة بشعة ، وقالت السيدة إنها لم تكن تشبهها فى شيء ، وقد كانت محقة تماما فى ذلك . ولقد سألتى الراهب الفادر راينى ، فإذا بى - كائى غيبى كذاب - أزعم أن اللوحة كانت تشبهها . وكنت بذلك أرجو أن أتملق الراهب ، ولكننى لم أتملق السيدة المارشالة ، فسجلتها ضدى فى قائمة الأخطاء ، بينها راح الراهب يضحك منى ، بعد أن نجحت خدعته ! . . ولقد تعلمت - بفضل نتيجة هذه المحاولة ، التى جاءت متأخرة ، فى التلق والمداينة - ألا أقدم مخفارا على الرياء والتبلق ، بالرغم من مثرفلا !



(١) « بالرغم من مثرفا » : مثل اصطلاح عليه « فى الحديث حين يصر على عمل لم يؤت موهبة يمكنه من انقائه ، وكان يفتنى بغيره على التواضع لى بنارس النظم وإن لم يؤت ملكة الشعر .

لقد كانت ميزتي التي فطرت عليا ، هي أن أقول للناس حقائق مديدة - ولكنها جافة قاسية - في كثير من التحسرس والشجاعة . وكان خليقا بي أن اظل على ذلك . . . إنني لم اخلق تطلكي أطري - ولن أقول : اتلق - الغير . ولقد كان سوء توجيه الاطراء الذي حاولت أن أزججه ، أكثر إيذاء لي من أقسى لوم قد رلى أن أصدره . واني لأذكر هنا مثالا بلغ من فظاعته أن عواقبه لم تغير مجرى حياتي فمحسب ، بل إنها ربما أثرت على سمعتي كذلك ، عبر الأجيال !

فلقد اعتاد السيد « دي شوازيل »^(١) أن يغد إلى القصر لتناول العشاء ، في بعض الاحيان ، خلال فترات إقامة السيد والسيدة دي لوكسبورج في مونتورنسي . وأقبل ذات يوم ، وأنا افتاد القصر . فدار الحديث عني ، وروى له السيد دي لوكسبورج قصتي في (البندقية) مع السيد دي مونتيجي . فقال السيد دي شوازيل إنه كان من الخسارة حقا أن هجرت العمل الدبلوماسي ، وأنتى إذا رغبت في العودة إلى هذا العمل ، فلن يجد ما يسره أكثر من أن يستخدمني . وأبلغني السيد دي لوكسبورج بالأمر ، ففأثرت به أكثر مما ينبغي ، إذ أنتى لم أعتد أن ألقى من الوزراء أية مجاملة . وليس بوسعي أن

(١) الدوق اتيين - فرانوا دي شوازيل ، كان وزيرا للخارجية في عهد لويس الخامس عشر ، وأبدى براعة في اصلاح الفتاح السيفة التي ترويت على حرب السنوات السبع . وتدين له فرنسا بكثير من الانفسال العسكرية والدبلوماسية . وقد عاش بين مكى ١٧١٩ و ١٧٨٥

أجزم بأننى لم أكن على استعداد لأن أجعل من نفسي أحق ، مرة أخرى - بالرغم من قرارى السابقة - لو أن صحتى كانت تنبى لي أن أفكر في الأمر ! إن الطموح لم يعتد أن يملكنى إلا في الفترات الموجزة التي كانت كل الشهوات الأخرى تفرقني خلالها . ولكن مرة واحدة من هذه الفترات ، كانت كفيلة بأن تنكس عواطفى مرة أخرى . ومن ثم فإن هذه القبة الكريمة من السيد دي شوازيل ، ملكت على شعورى ، ودعمت التقدير الذي كانت بعض أعماله الوزارية قد حملتني على أن أكنه له . فقد كان « حلف الأسرة » بالذات « يبدو - في نظري - دليلا على أن الرجل كان سياسيا من سساسة الصف الأول (١) . وقد ازدادت تقديرا عندما قارنت أعماله بأعمال من سبقوه في المنصب ، دون أن استثنى منهم السيدة دي بومبادور التي كنت أعتبرها بمثابة « رئيس للوزراء » ! . . . وعندما كان يشاع أن واحدا من هذين الاثنين يناجز الآخر العداء ، فاعتقد أنني كنت أدعو بالنصر لفرنسا ، عندما كنت أدعو بالنصر للسيد دي شوازيل .

ذلك لأننى كنت أشتعر دائما نفسورا من السيدة دي بومبادور ، حتى عندما رأيتها - قبل أن يرتفع نجمها - لدى السيدة ديلا بويلينير ، وكانت إذ ذاك ما تزال تحمل اسم السيدة ديتوال . ومنذ ذلك الحين ، أحقتني منها صمتها إزاء

(١) حلف الأسرة : معاهدة تحالف عسكري ، تمّت في سنة ١٧١٧

الفرنسيين المتكئين في فرنسا وأسبانيا . وكانت معاهدة ١٧١٧

موضوع « ديفرو » (١) ، ومسلكتها نحوى ، سواء فيما يتعلق بتمثيلتى « اعياد رامير » (٢) أو « عرائس الشجر اللطاف » (٣) ، أو أوبرا « عراف القرية » (٤) التى لم تعد على باى دخل أو نفع يتناسب مع نجاحها . ففى كل هذه المناسبات ، كنت اجد السيدة دى بومبادور قليلة الحرص على ان ترضينى . على ان هذا لم يمنع الشبلىبيه دى لورنيزى من ان يقترح على ان أولف شيئا فى مديح هذه السيدة ، فى تلك الآونة ، موحيا إلى بان هذا قد يجذبنى نفعاً . ولقد اثار هذا الاقتراح استنكارى ، لا سيما إذ رأيت بجلاء انه لم يكن صادرا عنه شخصيا . . . وقد أدركت تماما ان هذا الرجل « الذى لم يكن ذا قيمة — فى حد ذاته — لم يكن ليفكر أو يعمل قط ، إلا بإيعاز من سواء . ولم أوت قط من القدرة ما يمكننى من كبح نفسى لكى أخفى عنه أزدرائى لاقتراحه . . . أو لكى أخفى عن أى امرئ آخر عدم

(١) كان « ديفرو » قد سجن ، وكتب « روسو » إلى السيدة دى بومبادور كى تفضل على اطلاق سراحه (صفحة ١١٦ — الجزء الثالث) .

(٢) أوبرا كان « غولنير » قد وضع كلماتها ، كما وضع « رامير » الحائزها ، ثم عهد الدوق وبشليو إلى « زوتو » بان يمد كتابة الكلام والموسيقى مع تنقيحها (انظر صفحة ٩٢ ، من الجزء الثالث) .

(٣) أوبرا كان قد شرع فى تأليفها فى اول عهده ملائمة فى باريس (صفحة ٢٤ — الجزء ٢) ، وعرضت فى حفلة خاصة حضرها ريشيليو (صفحة ٩٢ — جزء ٢) .

(٤) أوبرا من تأليف روسو ، عرضت على مسرح القمر الملكى بحضور الملك (. . . صفحة ١٦٠ — الجزء ٣) .

يملى إلى الخطوة الموعودة . ولقد أدركت هى ذلك ، وإنى لموقن من ذلك . . . كل هذه الاعترافات وحدث بين مصلحتى الذاتية ومبولى الطبيعية ، فى الادعيات التى كنت أرجو فيها النجاح للسيد دى شوازيل . . . وكنت قد شعرت — قبيل ذلك — بتحبيز لمقدراته ومواهبه ، التى كانت كل ما اعرفه عنه . . . كما إننى كنت مفعبا بالعرفان لما أبداه نحوى من نوايا طيبة ، جاهلا — فى عزلتى — بأذواقه ومسالكه فى الحياة ، ومن ثم نقد رحت انطلع إليه كانه المنتقم للجمهور ولئى ! . . . ولما كنت — فى ذلك الحين — منصرفا إلى وضع الخطوط النهائية فى مؤلفى « العقد الاجتماعى » ، فأننى وضعت فى فترة واحدة رأيى فى الوزارات السابقة ، وفى هذه الوزارة أوشكت ان تغضى عليها . ولقد أغفلت — فى هذه المناسبة — اكثر مبادئ رسوخا فى نفسى . ولم يخطر ببالى ان المرء إذا أراد ان يتحسس فى المديح وفى اللوم ، فى مقال واحد — دون ان يورد أسماها ما — فمن الواجب ان يقصر المديح على أولئك الذين يتصدهم به ، بأسلوب لا يجعل مجالا لأشد النفوس انانية ، لأن تسيء فهمه . ولقد كنت من الحباقة بحيث ظنفتنى فى ما من من هذا ، فلم يخطر ببالى قط ان من الممكن تأويل ما قصدت إليه . ولسوف يتجلى فيها بعد ما إذا كنت قد أصبت !

ومن مظاهر سوء طالعى ، أننى كنت دائما على اتصال ببعض الكاتبات من النساء . وقد خلت أننى لن ألبث ان اتفادى ذلك ، بمعلقاتى بسيدات الطبقة الراقية على الأقل . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، بل إن حظى بالاحتضان . . . ومع ان السيدة دى لوكسمبورج لم تتعرض

كنت أعرف - إلا أن السيدة الكونتيسة دى بوفليير كانت مصحبة بها . فقد كتبت مأساة - تمثيلية نثرية - قرنت في البداية . ثم أديررت على حاشية السيد الأمير دى كونتى فقوبلت بإطراء . ولكن السيدة لم تقنع بكل هذا الإطراء . فشاعت أن تستشيرنى أنا الآخر « لتحظى بالفناء بنى . وقد منحتها هذا الثناء . ولكن في عبارات معتدلة ، بقدر ما كان المؤلف يستحق . وفوق ذلك ، فقد رأيت أن من واجبنى أن أطلعها على أن تمثيلتها - التى كانت بعنوان « العبد الكريم » - شديدة التشبه جدا بمرحية إنجليزية لم تكن معروفة على نطاق واسع ، ولكنها ترجعت إلى الفرنسية ، وكانت تحمل اسم « اورونوكو » . ولقد شكرت لى السيدة دى بوفليير رأى ، وأكدت لى لغورها ألا علاقة البقية لمرحيتها بالمرحية الأخرى . ولم أبع قط بهذه السرقة الأدبية لمخلوق من البشر سواها ، وما صارحتها - هى - إلا أداء لواجب القته على عاتقى . بيد أن هذا لم يصدنى عن أن أكثر من التفكير - منذ ذلك الحين - في الطريقة التى أذى بها « جيل بلا » واجبه نحو الاستفاد الواعظ ، وما ترتب على ذلك . (١)

* * *

(١) قصة « جيل بلا » من أكل التلذذات الخلقية - وقد وضعها « لوساج » في سنة ١٧١٥ ، وجعل بطلها يعيش مثالا للأخلاق ، برغم ما كانت الحياة تلوح به إليه من أحداث . والحادث الذى أشار إليه « روسو » « دار بين جيل بلا » و« أمست غرناطة » ، وقد رسم فيه « لوساج » صورة وأتمة للكاتب الذين يتظاهرون بالتمسك الشديد للحقيقة ، ولكنهم لا يكون لها قيمة منهم وبين أنفسهم !

والى جانب الراهب دى بوفليير - الذى لم يحبنى قط - والسيدة دى بوفليير ، التى ارتكبت نحوها أخطاء لا تغتفرها براة ولا كاتبة ، فإن بقية أصدقاء السيدة المارشالة كانوا دائما تطللى الميل إلى أن يكونوا أصدقاء لى . وكان منهم السيد دى « هينو » رئيس البرلمان الذى لم يعفه أنضامه إلى زمرة المؤلفين من عيوبهم . . والسيد « دوديفان » « والأنسة » دى ليسيفناس « ، اللتان كانتا على صلة وثيقة ببولنير ، وعلى صداقة حميمة بدالمير ، الذى انتهت ثانيتهما إلى الإقامة معه . بكل شرف وصلاح طبعاً ، فيجب ألا يؤول هذا على أى محمل آخر ! . . ولقد بدأت بشعور قوى نحو السيدة دوديفان ، التى أثار ضياع بصرها إثماتى . ولكن منهجها في المعيشة كان يناقض منهجى تماماً ، حتى أن ساعة استيقاظ أحدها من النوم ، كانت هى ساعة هجوع الآخر تقريبا . . وكان شغفها الجامع بالطرائف الفكرية البسيطة ، والأهمية التى كانت تضعها - سواء بالحق أو بالباطل - على كل خلاف كان يظهر ، والعنف الفاسم الذى كانت تطلق به تعليقاتها في لهجة خطابية . ومخالاتها في التعصب لكل شيء أو ضد كل شيء - مما لم يكن يسمح لها بأن تتكلم في موضوع إلا بانفعال - وتحيزها الذى كان يفوق المعقول ، وعنادها الذى لا يلين ، وتحمسها غير الحكيم الذى كان يحملها عليه التمتع لرائها المستوحاة من العاطفة . . كل هذه لم تلبث أن حولتنى من الاهتمام الذى كنت على استعداد لأن أولياها إياه ولقد لاحظت ذلك . فكان هذا كافياً لأن يثير شغلها

بمدى ما ينبغي أن يخشاه المرء من امرأة لها هذه الشخصية .
إلا أنني كنت أؤثر أن أعرض نفسي لسعارة حقدتها « على أن
أعرضها لودها !

وكانها لم يكف أن يكون لي أصدقاء قليلون في حاشية السيدة
دى لوكسبورج ، فإذا لي أعداء في أسرتها .. ومع أن هؤلاء
الأعداء انحصروا في واحد ، إلا أنه كان .. في الموقف الذي أصبحت
أجد نفسي فيه — يعادل مائة . ومن المحقق أن هذا الشخص
لم يكن أخاها ، السيد الدوق دى فيلروي ، الذي لم يكف
بأن زارني في داري ، بل دعاني عدة مرات إلى ضيعة (فيلروي)
.. ولما كنت قد أجبت دعوته بكل احترام وأدب ، فإنه أخذ
هذا الجواب على محمل القبول ، ودبر مع السيد والسيدة دى
لوكسبورج رحلة تستغرق حوالى خمسة عشر يوما : كان
على أن أرافقهم فيها . وكانت التقادير التي تتطلبها صحتي .
لا تسمح لي بأن أنتقل من داري دون ما نعرض للضرر ، فرجوت
السيد دى لوكسبورج بأن يتكرم بالاعتذار عني . ويرى من
جوابه (المرف « د » — رقم ٣) أنه أدى ذلك أبداعا يمكن ،
ولم يبد لي السيد الدوق دى فيلروي مطلقا يقل عما عهدت منه .
ولكن ابن أخيه « ووريثه — المركيز دى فيلروي الشاب — لم
بشاطر ما شرغني به من عواطف كريمة .. واعترف أنني
— بدوري — لم أوله ما كنت أولى عمه من احترام . وكانت
مظاهره المتعجرفة ، الفاسدة تجعله — في نظري — لا يطاق .
نإذا فتورى نحوه لا يجلب على سوى بغضائه .

وفي ذات مساء ، ذهب إلى درجة أن سبني على المائدة ،

نأسأت تلقى الاهانة ، لأنني غبي ، ولست حاضر البديهة ، بل
أن الغضب يلبني القدر الذي أوتيته من الذكاء ، بدلا من أن
يرهنه ويشحذه . وكان لدى كلب تلقينه هدية — وهو بعد
صغير — عقب وصولي إلى (البريتاج) مباشرة ، وأطلقت عليه
اسم « دوق » . ومع أن هذا الكلب لم يكن جميلا . إلا أنه كان
من سلالة نادرة ، وقد جعلته مسديقي وصاحبي ، وكان —
يقينا — أكثر استحقاقا لهذا الوصف من معظم أولئك الذين
استحلوه لأنفسهم ، فلم يلبث أن غدا محبوبا في قصر مونبورنسي
يفضل طبيعته اللطيفة المستطحة ، ويفضل تعلق كل منا
بالآخر « بيد أنني في لحظة من لحظات الضعف الأحمق ، غيرت
اسمه إلى « تركي » ، وكانها لم تكن هناك مئات من الكلاب
تدعى « مركيز » « دون أن يشعر أى « مركيز » بإهانة في ذلك .
ولقد راح المركيز دى فيلروي — الذي علم بهذا التغير في الاسم
— يلح علي ، حتى اضطرني إلى أن أروي ما فعلت ، في حضور
القوم .. ولم تكن الاهانة التي نشأت عن اسم « دوق » — في
القصة — ممثلة في إطلاقه على كلب ، وإنما في أنني لم البث
أن جرمته منه . وكان أسوأ ما في الأمر ، هو أن كثيرا من
الأدواق (١) كانوا حضورا ، وكان السيد دى لوكسبورج
دوقا ، وكذلك كان ابنه . وكان المركيز دى فيلروي مرشحا
لأن يصبح دوقا — وأنه لكذلك الآن — فراح يلجؤ في تسميوة
للحرج الذي دفعني إليه ، وبالأثر الذي أحدثه . ولقد تأكدت

(١) يفضل المترجم أن يجمع « دوق » على « أدواق » ، فليس له من
« دوقات » ، وهي جمع « دوقة » .

— في اليوم التالي — بأن عمته قد اتبته في عتب على ذلك . ومن الممكن تصور مدى ما كان هذا القترع كتيلا بأن يصلح علاقاتي به كثيرا ، لو أننا افترضناه صادقا !

ولم يكن لي من مدافع ضد هذا كله — سواء في قصر لوكسنبورج أو في القلعة — سوى الشينالييه دي لورنزي . الذي كان يجاهر بأنه مسديقي . ولكنه كان ما يزال صديقا لدامبير ، أكثر مما كان لي ! فقد راح — تحت رعايته — يلقي حظوة لدى النساء ، بزعم أنه عالم هندسي كبير . وكان إلى جانب ذلك . المدلل صاحب الحظوة — أو بالأحرى القط الواحد — للسيدة الكونتيسة دي بوفليير . التي كانت هي الأخرى صديقة حميمة لدامبير . . فما كان للشينالييه دي لورنزي من وجود ولا كان بوسعها أن يفكر ، إلا بقرعها . وهكذا كان كل من يتصلون بالسيدة دي لوكسنبورج يبدون وكأنهم يعملون معا على إيدائي في رأيها ، في الوقت الذي كنت فيه بعيدا عن أن أجد مقاومة خارجية تصلح من نزقي ، وتستقي لي رضا السيدة . ومع ذلك فأنها — إلى جانب تكريمها بأن تتمتع كتاب « أميل » — أبدت لي دليلا جديدا على كرمها وعطفها ، مما جعلني على أن اعتقد بأنها كانت ما تزال تحتفظ لي — بل وستظل دائما تحتفظ لي — بالصدقة التي كثيرا ما وعدتني بأن تؤثمني بها إلى نهاية عمري ، حتى وإن كانت قد بدأت تسأمني !

وما أن خطر لي أن يوسمي أن اطمئن إلى هذا الشعور من ناحيتها ، حتى شرعت أسري عن غواذي ، بأن اعترف لها بكل أخطائي نحوها . إذ كان مبدئي الوطيد ، يحملني على أن أبين

نفسى لاصدقائي على حقيقتي ، لا أسوا ولا أطيب . فاطلعتنا على علاقاتي بقرع ، وبتناجها جميعا ، دون أن اغفل الطريقة التي تخلصت بها من اطفالي . وتلقت اعترافاتي في تطف ، بل في تطف بالغ ، واعفتني من اللوم الذي كنت استحقته . . وكان أكثر ما أثر في نفسي — بوجه خاص — ذلك الكرم الذي اغدقته على ترميز ، فكانت تمنحها هدايا صغيرة وتستدعيها ، وتشجعها على أن تزورها ، وتلقاها بكثير من الحنان واللطف . . وكثيرا ما كانت تقبلها أمام الجميع . ولقد استخف الفتاة المسكينة الفرح والعرفان اللذان كنت اضطررها إياهما يقينا . . بل إن الكرم الذي كان السيد والسيدة دي لوكسنبورج بغمراني به خلالها ، أكثر تأثيرا في نفسي من داك الذي كانا يظهيرانه نحوي مباشرة .

ظلت الأمور على هذا الوضع فترة طويلة ، ولكن السيدة المارشالة لم تلبث — في النهاية — أن أمعنت في تفضيلها ، فأعربت عن رغبتها في أن تستقر اطفالي وتكفلهم (١) . وكانت قد عرفت أنني قد وضعت رمزا في ثياب الطفل الأكبر ، فسألته النسخة الثانية لهذا الرمز « قدمتها إليها . واستخدمت في هذا البحث وصفيها الخاص وموضع ثقتها « لاروش » ، الذي

(١) كان روسو قد ألحق خمسة من « أميل » بطفله . وروى المسلمات والمبرات في طفله . وروى المسلمات والمبرات في طفله . وروى المسلمات والمبرات في طفله .

قام بتحريات لم تؤد إلى طائل ، فلم يتمكن من العثور على شيء . بالرغم من انه لم يكن قد انتضى على إيداع الطفل أكثر من اثنتي عشرة أو أربع عشرة سنة ، ولو أن سجلات ملجأ اللقطاء كانت منظملة ، أو لو أن التحريات كانت دقيقة ، لما عجز العثور على الرمز . ومهما يكن من الأمر . فأننى كنت أقل استياء لهذا الفصل ، مما كان ينبغي على لو أننى كنت قد تتبع آثار الطفل منذ مولده . ولو أن طفلا قدم إلى — على مدى البيانات التى قدمتها — على أنه ابنى ، لكان الشك فيما إذا كان هو ابنى حقا ، أو أنه أبدل بطفل آخر . خليقا بأن بيعت هواجس نضنى فؤادى ، ولما نعمت بالاحساس الطبيعى الصادق . فى أكل آيات سحره . . فلا بد — واستبقاء هذا الشعور وسحره — من توغر الآلة والاعتقاد منذ مولد الطفل ، على الأمل ، ولكن البعاد الطويل لطفل لم يعرفه المرء بعد ، يوهن شعور الأبوة والأمومة ، ولا يلبث أن يقضى عليه تماما فى النهاية . فلا سبيل هناك البتة إلى أن يحظى طفل كفلته مربية ، بحب يضارع ما يحظى به طفل نشأ تحت بصر المرء . . وقد يخفف هذا الخاطر من التبعات التى ترتبت على أخطائى ، ولكنه بضائع من وطأة أصلها ومنبعها :

وقد يكون من المفيد أن نلاحظ أن « لاروش » هذا ، بالذات ، قد تعرف — عن طريق تيريز — بالسيدة لوغاسير . التى ظلت « جريم » يكفلها فى « دوى » ، على مغربة من (لاشيفريت) ، وعلى مسافة جد قصيرة من (مونمورنسى) . فلما غادرت هذه المنطقة ، استعنت بلاروش فى مواصلة إرسال النقود التى لم

كف يوما عن إيداعها بها . واعتقد انه كثيرا ما كان يحسن إليها هدايا من السيدة المارشالة ، ومن ثم فانها لم تكن تستحق أى عطف أو رثاء ، يرغم انها ظلت دائمة الشكوى . أما «جريم» ، فأننى طبعث على ألا أحب الكلام عن أرى أن من واجبى أن أكرههم ، ومن ثم فأننى لم أتحدث عنه إطلاقا إلى السيدة دى لوكسمبورج . اللهم إلا فى الحالات التى كنت اضطر فيها إلى ذلك اضطرارا . على أنها ذكرت اسمه مرارا ، دون أن تنبئنى بها كان من رأيها فيه . بل ودون أن تدعى استشف ما إذا كان هذا الرجل من معارفها . أو لم يكن . ولما كان التحفظ من أولئك الذين أحبهم ، أو الذين درجوا على الصراحة التامة معى ، أمرا لا يلائم مزاجى — لا سيما حين يكون فى أمور تخصهم — لذلك غاننى كثيرا ما فكرت ، منذ ذلك الحين ، فى أمر هذا التحفظ الذى أبدته السيدة لى . . على أن هذا التفكير لم يكن براودنى ، إلا عندما تجعله الأحداث أمرا طبيعيا !

وإذ مكثت فترة طويلة ، دون أن أسمع أى حديث عن «اميل» — بعد أن وكلفت أمر الكتاب إلى السيدة دى لوكسمبورج — علمت فى النهاية ، أن الصفقة قد أبرمت فى باريس ، مع الكتيب « دوشين » . ثم أبرمت بوساطته مع «نياولم» فى (امستردام) . وقد أرسلت السيدة دى لوكسمبورج إلى نسختى العقدين — مع دوشين — كى أوقعهما . وتبينت أنهما كتبتا بنفس الخط الذى كانت تكتب به رسائل السيد دى ماليزيرب ، إذ انه لم يكن يكتبها بيده .

وحملتى تأكيدى من أن الاتفاق قد تم تحت سحر عذرا

السيد وبموافقته ، إلى أن أوقع وأنا مطمئن . وإذا ذاك أعطاني « دوشين » عن نسخته من المخطوطات ستة آلاف فرنك - هي نصف الحساب - ومائة أو مائتي نسخة من الكتاب المطبوع « على ما اظن . وما إن وقعت نسختي العقد حتى أرسلتها إلى السيدة دي لوكسمبورج - وفقا لرغبتها - فأعطت إحداهما إلى « دوشين » واستبقت الأخرى ، بدلا من أن ترسلها لي ، فلم أرها بعد ذلك !

ومع أن تعرفي إلى السيد والسيدة دي لوكسمبورج أمضيت شيئا من التعديل على شروعي في الاعتزال ، إلا أنه لم يصرفني نهائيا عن هذه الخطبة . بل إنني ظلت أشعر - حتى في أوج حظوتي لدى السيدة المارشالة - بأنني ما كنت لأحتمل أو أطيق الأشخاص المحيطين بالسيد المارشال ومبا ، لولا صدق تعلقي بهما . وكانت كل حيرتي تتمثل في محاولة التوفيق بين هذا التعلق وبين نوع الحياة الأكثر ملاءمة لذوقي وأقل إهدا لمصنعي . فقد كان الإرهاق المستمر ، والعشاء المتأخر يجعلان صحتي غير مستقرة على حال ، ورغم كل العناية التي كانت تبذل لتجنب تعريضى لأي ضرر . إذ كان السيد المارشال وزوجته يبديان كل اهتمام بهذه الفاحية ، شأنهما بأية ناحية أخرى ، فلي كل مساء - مثلا - لم يكن السيد المارشال ليفعل أن يصحبني بعد العشاء ، شئت أو لم أشأ ، لأخذو جسديهم في الإيواء إلى الفراش مبكرا . ولم يكف عن ذلك إلا قبيل نكبتى بأهد وجيز ، والسبب لم أدر به :

بل إنني قبل أن ألمح فتور السيدة المارشالة ، رغبت في أن أحقق مشروعى القديم ، حتى لا أعرض نفسي لهذا الفتور ، ولكن الوسائل أعوزتني لهذا التحقيق . فكنت مضطرا إلى أن أنتظر حتى يتم إبرام الاتفاق الخاص بكتاب « أميل » . وفي خلال هذا الانتظار ، وضعت المخطوط الأخيرة في كتاب « العقد الاجتماعي » ، ثم أرسلته إلى « ربي » ، محددا ثمن المخطوط بألف فرنك ، فأعطاني هذا المبلغ . وربما كان من المستحسن ألا أغفل هنا واقعة صغيرة تتعلق بالمخطوط المذكور . فلقد أرسلته في غلاف محكم الاختام إلى « ديفوزان » ، وكان كاهنا من بلاد الفود (١) ، وقسا تابعا لسفارة هولندا ، وقد اعتاد أن يقد أحيانا لزيارتي . فتكفل بحمل المخطوط إلى « ربي » الذي كان على اتصال به . ولقد كان المخطوط مكتوبا بخط جد رفيع ودقيق ، فكان من الصغر بحيث أنه لم يملأ جيبه . ومع ذلك ، فقد حدث - بينما كان يجتاز الحدود - أن وقعت الحربة ، بطريقة لا أدريها ، في أيدي موظفي الجمارك ، الذين فضوها وفحصوها ، ثم ردوها إليهم في الحال ، عندما طالب بها باسم السفير . وقد أتاح له هذا الحادث فرصة الإطلاع على المخطوط ، كما أتيتني في ضاجة ! . ولقد أظنبت - في الوقت ذاته - في إطرأ المؤلف ، دون ما كلفة لوم أو انتقاد ، محتفظا لنفسه - بلا ريب - بحق القيام بدور المنتقم للمسيحية عندما قدر للكتاب أن يظهر ! . ولقد استخلص المخطوط وأرسله إلى « ربي » . هذه - في الواقع - هي القصة التي

أوردها في الرسالة التي أنيأتني فيها بالأمر ، وهذا كل ما قدر لي أن أعرفه عن الواقعة .

وإلى جانب هذين الكتابين — « أميل » و « العقد الاجتماعي » — و « الموسوعة الموسيقية » التي كنت أعمل فيها من وقت إلى آخر ، كانت لدي مؤلفات أخرى أقل أهمية ، وكلها معدة للنشر ، فاعتزمت أن أنشرها متفرقة ، أو مع مجموعة عامة تشمل مؤلفاتي ، إذا قدر لي أن أصدر واحدة . وكان أهم هذه المؤلفات — التي لا يزال أغلبها مخطوطات كتبها « روبيريو » — « رسالة في منشأ اللغات » ، كنت قد قراتها على السيد دي ماليزيرب والشيفالييه لورنزي الذي استحسنتها . ولقد حسبت ما تدره على هذه المؤلفات جميعا — بعد تغطية كافة النفقات — بما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف من الفرنكات ، على الأقل . . وهو مبلغ قررت أن أستثمره ليدر ريعا مدى الحياة « لصالح ولصالح تيريز » . على أن نذهب بعد ذلك — كما ذكرت لها — لنقيم معا في أعماق أحد الأقاليم الريفية ، حيث لا أزعج الرأي العام بنفسى ، ولا أشغل نفسي بشيء اللهم إلا أن أختتم أيامي في سلام ، مواصلا عمل الخير قدر وسعني . في الوسط المحيط بي . . ومستأنفا كتابة الذكريات التي كنت أفكر فيها ، على مهل !

هكذا كان المشروع الذي يسر لي تحقيقه كرم « ربي » . . هذا الكرم الذي ينبغي ألا أمر به من الصامتين . فإن هذا الناشر ، الذي سمعت عنه الكثير من « سوس » ، في باريس ، كان الوحيد — بين كل أولئك الذين كانت لي بهم علاقات — الذي



فلقد أرسلته في غلاف محكم الأحم إلى « ديفواران » . .

كنت أجد منه ما يرضيني دائماً). ومن المحقق أننا كنا نختلف أحياناً بشأن نشر كتيبي ، إذ أنه كان متلکنا ، بينما كنت أنا متمجلاً . ولكنني كنت أجد جدامين ودقيق في المسائل المادية والإجراءات التي تتعلق بها ، بالرغم من أنني لم أعقد معه قط اتفاقاً رسمياً . وهو - كذلك - الوحيد الذي أقر سراحة بأنه أئد من معاملاته معي . وكثيراً ما أنبأني بأنه مدين لي بشروته ، وعرض علي أن يشاركني فيها . ولما كان عاجزاً عن أن يظهرني مباشرة على عرفاته ، فقد رغب في أن يشهدني عليه بما بيديه لظليلتي ، فرصد لها معاشاً سنوياً قدره ثلاثمائة فرنك مدى حياتها . وثبت في عقد التسجيل أن هذا المبلغ كان عرفاناً منه بالفوائد التي أتحته له . ولقد سوى هذه المسألة معي في غير ضجة ولا إعلان ولا من . ولو لم أكن أنا أول من تحدث عنها إلى الناس أجمعين . لما علم أحد عنها شيئاً . . . فلقد تأثرت بهذا الإجراء ، إلى درجة أنني منذ ذلك الحين أصبحت مرتبطاً برأي بود صادق . ولتقدم رغب - بعد ذلك بوقت وجيز - في أن أكون أباً روحياً - «أنسينا» - لأحد أطفاله ، فوافقت . وكان من دواعي أساى ، أنني - في الحال التي انحدرت إليها - كنت محروماً من كل فرصة تمكنني من أن أجعل وقائي ذا نفع لابنتي الروحية ولاهليها . ترى كيف نسني لي - وأنا المتن إلى هذه الدرجة لما أبدأ

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « عندما كتبت هذا ، كنت بعيداً عن أن أنسوه ، أو أتبين ، أو أحمي أعمال النفس التي اكتشفت - فيما بعد - حدوثها في طبع مؤلفائي ، والتي انطقت إلى الاعتراف بها . »

هذا الناشر من كرم متواضع - أن أكون أقل امتناناً للمواظف الصارخة التي كان كثير من عليه القوم بيدونها وهم يملأون الكون بالطغطنة بالخير الذي يقولون أنهم رغبوا في إسدائه إلى ، والذي لم أشعر به البتة . . . فكان الذنب في ذلك ذنبهم ، أم تراه كان ذنبي ؟ . . . أكان الأمر مجرد زهو باطل منهم ، أم أنه كان جحوداً مني ؟ . . . ألا زن الأمر - أيها القارئ الماقل - واحكم . . . أها أنا ، سوف الوذ بالصمت !

ولقد كان هذا المعاش مورداً كبيراً لتفريز ، وعزاء عظيمي لي . وفيما عدا هذا العزاء ، كنت أبعد من أن أطمع في أن أحصل منه - ولا من جميع العدايا التي كانت تقدم إليها - أي نفع مباشر لي شخصياً . فكانت هي المنصرمة الوحيدة في الجميع ، على الدوام ، وعندما كنت احتفظ لها بمالها ، كنت أقدم لها عنه حساباً أميناً دون أن أضع فلساً واحداً منه في نفقاتنا المشتركة ، حتى عندما يقدر لها أن تكون أكثر منى ثروة . وكنت أقول لها : « إن مالي لنا معاً ، أما مالك فانه لك وحدك ! » . وما كنت قط عن أن أتبع معها هذا المبدأ الذي كثيراً ما كنت أردده على بسميها . أما أولئك الذين أوتوا من الخسرة ما أباح لهم أن يهتموني بأنني كنت أتقبل بيديها ، ما كنت أرغضه ببسدي ، فليسوا يحكمون على قلبي إلا بما كانت عليه قلوبهم - دون شك - . وأنهم ليسيؤون غمى كل الإساءة . ولقد كنت على استعداد لأن أساطرها - عن طيب نفس - الخبز الذي تكسبه بعرقها ، ولكني ما كنت قط لأساطرها ما تنلقاه إحساناً . . .

وأني لالجباً إلى شهادتها في هذه المسألة ، سواء الآن أم فيما بعد ، عندما يقدر لها أن تعيش بدوني .

الطبع ، فلما استقر رأينا في النهاية على الشكل وحجم الحروف ، وبعد أن أرسل لي عدة صفحات مطبوعة ، أدخلت عليها بعض تعديلات طفيفة ، أعاد الطبع من جديد .. فوجدنا أننا - بعد ستة أشهر - أقل تقدما مما كنا في أول يوم . وبينما كانت هذه التجارب تجري ، اكتشفت أن الكتاب كان يطبع في فرنسا ، كما كان يطبع في هولندا ، طبعتين مستقلتين ! .. فما الذي كنت املك أن افعله ؟ .. إنني لم أجد ممالك مخطوط كتابي . وكنت بمبدأ كل البعد عن أن تكون لي أية يد في الطبعة الفرنسية ، بل إنني كنت دائما أعارض في إصدارها ، ولكن .. لما كان طبعها جاريا على قدم وساق ، بالرغم مني ، وما دام من الممكن استخدامها كمثال للطبعة الأخرى ، فأنني وجدت من المستحسن أن ألقى نظرة على التجارب « البروفات » ، حتى لا يحرف كتابي أو يشوه . ثم أن المؤلف ، كان يطبع بموافقة تامة من رقيب المطبوعات ، فهو الذي كان يوجه المشروع - بطريقة ما - وكثيرا ما كتب إلي ، بل إنه جاء لزيارتي بصدها في مناسبة معينة ، سأتكلم عنها حالا !

وبينما كان « دوشين » يتقدم بخطى سسلحفائية ، كان « فياولم » - الذي تعمد أن يعوقه - يتقدم بخطى أكثر بطءا . إذ أن الصفحات لم تكن ترسل إليه بالانتظام الذي كانت تطبع به . وقد خابره الظن في أنه لاحظ سوء نية من جانب « دوشين » ، أعنى « دي جاي » الذي كان يمثله . وإذا رأى أن الاتفاق لم يكن ينفذ ، كتب إلى خطابات إثر خطابات ، مليئة بالشكايات والظلمات ، التي كنت أقل مقدرا على علاجها من علاج

على أنها - لسوء الحظ - قليلة الإلمام بالشؤون الاقتصادية ، من كافة الاعتبارات ، قليلة الحرص على المال ، مبرمة .. لا عن غرور أو نهم ، وإنما عن إهمال غز « عجيب ! .. وليس في هذه الدنيا من أوتى الكمال ، فإذا لم يكن ثمة يد من أن يكون لصفاتها الرائعة ، ما يقابلها في كثرة التناقض ، فأنني أوشر أن تكون لها عيوب ، على أن تكون لها رذائل .. وإن كانت هذه المعبود أكثر إساءة إلينا صاعا من الرذائل » في بعض الأحيان ! .. أن الجهود التي بذلتها من أجلها - كما فعلت من قبل ، من أجل « مايا » - كي أجمع لها بعض المخدرات التي تصبح يوما موردا لعيشها « تفوق كل تصور .. بيد أنها كانت دائما جهودا مضنية . فإن أيها منهما - سواء هي أو مايا - لم تحاول يوما أن تعمل لمصلحتها ، فكان كل شيء لا يلبث - برغم كل جهودي - أن يضيع بمجرد أن يأتي ! .. ومع البساطة التي كانت « تميز » تفهيجها ، فإن المعاش الذي رصده لها « ربي » لم يكن قط كائيا لحاجاتها « كما إنني لم أكن أستبقى شيئا من دخلتي في كل عام . فكأننا لم يخلق ليصبح غنيا ، في أي يوم من الأيام . ولست اعتبر هذا من مساويء حفظنا ، إطلانا !

وطبع « العقد الاجتماعي » دون ما كثير إرجاء ، فكان على النقيض من « أميل » الذي كنت مضطرا إلى انتظار نشره . قبل أن أنفذ مشروع اعتكافي . وكان « دوشين » يبعث إلي - من وقت إلى آخر - بنماذج من الحروف لأختار منها .. وكلما اخترت ، أرسل لي نماذج أخرى غيرها ، بدلا من أن يشرع في

المشكلات التي كانت تتعلق بمصلحتي . ولقد كان صديقه « جيران » - الذي يكثر جدا من زيارتي في ذلك الحين - لا يفتأ يتحدث إلى عن هذا الكتاب ، ولكن في كل من التحفظ المسرف . كان يعرف ، ولا يعرف ، أن الكتاب كان يطبع في فرنسا .. وكان يعرف ، ولا يعرف ، أن الرقيب كان مهتما به بنفسه .. وكان يشفق على من الحرج الذي سببه لي هذا الكتاب ، بينما كان - في الوقت ذاته - ينهني بالخرق « دون أن ينثنى قط بها هناك من خرق .. وكان يراوغ ويداور ويهارى دون انقطاع .. كان يبدو وكأنه يتكلم ليستدرجني إلى الكلام . وكانت طباتينتي - خلال تلك الفترة - مكتملة إلى درجة أنني كنت اضحك من اللهجة المتحفظة والغامضة التي كان ينتهجها في هذه المسألة ، وأعتبرها عادة نشأت عنده من الاتصال المستمر بالإدارات الوزارية والقضائية . وكنت متأكدا من أن كل الاعتبارات الخاصة بهذا الكتاب كانت كما ينبغي لها أن تكون ، ومقتضا كل الاقتناع بأن الكتاب لم يحز رضا ورعاية الرقيب فحسب ، وإنما كان يستحق رضا الوزير نفسه ، وقد ظفر به ومن ثم فقد رحت أهني نفسي على حسن تصرفي ، واضحك من ضعف قلوب أصدقائي ، الذين كانوا يبدون القلق من أجلي . ولقد كان « ديكلو » من هؤلاء القلقين ، واعترف أن فقتي باستقلاليته وحصانته كانت خليقة بأن تنذرني بالخطر ، لو أنني كنت أقبل اطمئنانا إلى فائدة مؤلفي وإلى شرف من كانوا يراعونه . وقد زارني ، موثدا من السيد « باي » ، أثناء طبع « اميل » ، فحدثني عنه . وقرأت عليه إعلان اسقف سافوا لإيمانه ، فانتصت في إعجاب

بالخ ، وفي اغتباط عظيم ، على ما لاح لي . فلما فرغت من القراءة ، قال لي : « عجبا ، أيها المواطن ! .. أفهذه جزء من كتاب يطبع في باريس ؟ » . فقلت له : « أجل .. وقد تقرر طبعه في اللوفر ، بأمر من الملك » . فقال لي : « إني مقتنع بذلك ، ولكن .. هل لك في أن فرضيني بالأنا تذكر لاي امرئ أنك قرأت على هذا الجزء ؟ » .. وكان هذا الأسلوب الشاذ في التعبير عما بنفسه ، خليقا بأن يدهشني ، ولكنه لم يرهيني . فقد كنت أعرف أن ديكلو كان كثير الالتقاء بالسيد دي ماليزيبر ، ومن ثم فقد شق على أن أدرك كيف كان رايه يختلف كثيرا عن رأي ذاك السيد ، في موضوع واحد .



ولقد أتممت في مونمورنسي فوق أربع سنوات ، دون أن استمتع بصحة طيبة ليوم واحد . فبالرغم من أن الهواء كان بدعيا ، إلا أن المياه كانت رديئة « ومن المحتمل كل الاحتمال أن يكون هذا من الأسباب التي ساهمت في استفحال علل المعهودة . وفي أواخر خريف سنة ١٧٦١ ، سقطت مريضا ، وقضيت الشتاء كله في أوجاع لم تكن تهن تقريبا . وكان سقمي البدني يزداد وطأة بالف هم وقلق ، مما يضاعف إحساسي به وتوجعي له . فلقد ظلت تراودني - فترة من الزمن - وساوس خفية ، كئيبة ، لم أكن أدري لها مأتى . وكنت ألقى رسائل جد عجيبة ، خالصة مما ينم عن مرسلوها .. بل ورسائل كانت تحمل توقيعات كاتبها ، ولا نفي عنها . وكانت منها رسالة من مستشار البرلمان في باريس راجيا

عن الوضع الراهن ، ولا مطمئنا إلى نتائج ، فشاء ان يستشيرني في ان اختر ملاذا في (جنيف) أو في (سويسرا) يستطيع ان يأوي إليه مع أسرته . . . ورسالة أخرى من السيد دى . . . ، رئيس الدورة الثيائية في برلمان (. . .) الذى سألني أن أوجه مذكرة استنهض بها أعضاء هذا البرلمان ، الذى كان - في ذلك الوقت - على غير وئام مع البلاط الملكى وعرض - في الوقت ذاته - أن يمنحني بكل الوثائق والمواد التى أحتاج إليها في هذا الصدد .

وعندما أكون معذبا بالألم ، أقعدو فريسة سهلة للانفعال . وهذا ما حدث عندما تسلمت هذه الخطابات ، وقد اظهرت حالى في إجابتي ، إذ رفضت فيها رفضا باتا أن أفعل ما سئلته وبقينا أننى لا ألوم نفسي على هذا الرفض ، إذ كان من المحتمل ان هذه الخطابات لمخاخ أعددها أعدائي (١) ، وقد كان ما سئلته مخالفا للبدائيء التى كنت ما أزال أقل ميلا إلى التحول عنها . بنى في اى وقت آخر . ولكنى رفضت بفظاظة ، في حين أننى كنت أمك ان أرفض في ادب . وقد كنت في هذا مخطئا .

ولسوف توجد الرسائلان اللتان ذكرتهما ، بين أوراقى . ولم يدهشني خطاب المستشار البتة ، لأننى كنت أرى - مثله ومثل كثيرين غيره - أن تداعى الدستور كان ينفذ فرنسا

(١) أضاف « روسو » الى هذا : « كنت أعوت - على سبيل المثال - ان رئيس برلمان (. . .) ، كان وثيق الصلة بجماعة دائرة المعارف ، وبجمعية دولايغ » .

بخراب قريب . كانت الحسائر التى خلفتها حرب منكودة ، ترتبت بأسرها على خطأ من الحكومة (١) . . . وكان الارتباك المالى الذى يجلب على التصور . . . والخلافات المستمرة في الهيئته التنفيذية التى كانت موزعة - حتى ذلك الحين - بين وزيرين أو ثلاثة ، كل منهم في حرب مكتومة مع الآخر ، وثلاثتهم يصمون إلى توريث الملكة في مازق ، ليكبد كل منهم للآخر (٢) . . . والتفهم العام الذى ساد الشعب وكافة طبقات الدولة . . . وتثبت ابراة عنيدة ، درجت دانها على أن تضحو مواهبها الذهبية - إذا كانت قد أوتيت مواهب ما - في سبيل ميولها ونزواتها ، وكانت دانها ما تقصى القادرين عن مناصب الدولة ، لكى تملأها بالمقربين إليها . . . كانت كل هذه العوامل ، تساهم في تبرير مخاوف المستشار ، والجمهور ، وأنا !

ولقد حملتنى هذه الوسائس مرارا على أن أتساءل عما إذا كان من الجدير بى ان أبحث أنا الآخر عن ملجأ لى خارج الملكة ، قبل قيام الاضطرابات التى كان يبدو أنها تهددها . ولكننى كنت - مطمئنا إلى تفاهة شأنى ، وإلى مسلكى الوازع -

(١) حرب السنوات السبع .

(٢) كان وزير المالية ووزير الحربية في صراع « مستمر » على نسق الصراع الذى كان دائرا بين البرلمان ورجال الدين . . . وكان البلاط الملكى ذاته منتميا إلى فريقين ، أحدهما يتزعمه دوق ديجيون ، ويلتف حول ولى العهد ، والآخر يتزعمه الكونت دى سافلى - الذى حظية الملك ، مدام دى بومبادور !



أعتقد أن شيئاً من العاصفة ما كان ليقوى على أن يصل إلى .
في العزلة التي اعتزمت أن أعيش فيها . ولم يكن يحزنني سوى
أن السيد دي لوكمبوريج ، انصرف - في هذه الظروف -
إلى الاضطلاع بهام كانت خليقة بالأجمل موضح رضى من
حكومته ذاتها . وكنت أود لو أنه أعد لنفسه - في مثل هذه
الحال - مخرجاً ، وتاهب لكل الطوارئ ، إذا ما قدر للجهاز
الضخم أن يتهدم . . الأمر الذي كان ثمة ما يبرر الخوف من
حدوثه ، تحت الظروف القاتلة . وما يزال يبدو لى - في
الوقت الحاضر - أنه لا مجال للشك في أنه لو لم تقع جميع
أزمة الحكم - في النهاية - في يد واحدة (١) ، لكانت الملكية
الفرنسية الآن في النزاع الأخير !

وبينما كانت حالى تردد سوءاً ، أخذ طبع « اميل » بزداد
بطءاً . ثم أوقف نهائياً ، في النهاية ، دون أن أتمكن من معرفة
السبب ، ودون أن يتنازل « دي جاى » فيكتب لى . أو يرد
على رسائلى . ولم أستطع أن أحصل على أنباء من أحد . ولا
عرفت شيئاً مما كان يجرى ، إذ أن السيد دي ماليزيرب كان
في الريف ، في تلك الآونة . وما قدر لأية محنة - مهما تكن -
أن ترعجنى أو أن تريكنى ما دمت أعرف كنهها ومبناها ،
ولكننى فطرت على الخوف من الظلمات ، فأنا أكره وأرهى
مظهرها الأسود . . إن الغموض يقلقنى دائماً ، فهو شديد
الغناض مع طبيعتى التى تنسم بصراحة تكاد تبلغ التهور

(١) الدوق دي شوازيل .

ومجافاة الحكمة . إن مرأى أظلم الهوام لا يقزنى إلا قليلاً
- فيها أحسب - ولكننى أذعر إذا ما لحث في الليل شبحاً تحت
كساء أبيض ! . . ومن ثم فقد شغل خيالى - إذ أذكاه هذا
الصمت الطويل - برسم أشباح مرعبة لى . وكنت كلما
تخصت لنشر آخر مؤلفاتى وأفضلها ، وأمعت في إضناء نفسى
بحثاً عما قد يكون السبب في تأخره . ولما كنت أؤمن في التطرف
- في كل شيء - فقد خيل إلى أننى ألح وراء إيقاف طبع
الكتاب « بوادر مصادره !

على أننى لمجزى عن تصور السبب أو الطريقة ، لهذه
المصادرة ، ظلت في أقصى الوان الشك في الدنيا . ورحت
أكتب الخطابات إثر الخطابات ، إلى « جاى » ، وإلى السيد
دى ماليزيرب ، وإلى السيدة دي لوكمبوريج ، دون أن تصلنى
الإجابات قط ، أو أنها لم تكن تند في الأوقات التى كنت أنتوقها ،
فاشتد اضطرابى « حتى لقد رحت اهذى . وسمعت - لسوء
الحظ - في تلك الآونة ، أن الأب « جريفيه » - وكان من
الجزويت - قد تحدث عن « اميل » ، بل وسرد فقرات منه ،
فإذا خيالى يغض - كالبرق الخاطف - هذا الغموض المحير
بأسره . ورأيت بجلاء نام تطورات الأمور ، كما لو أنها كانت
قد كشفت لى . . فتنبئت أن الجزويت قد هاجتهم لهجة
الأزدراء ، التى تحدث بها عن مدارسهم ، فاستولوا على مؤلفى ،
وأنهم هم الذين كانوا يعطلون نشره . . وأنهم قد علموا من
صديقهم « جيران » بحالى الراهنة . . وحينئذ قرأت موسى -
الأمر الذى لم أكن ، أنا نفسى ، أرتاب فيه - وهو الذى كانت

غابتهم هي تعطيل الطبع إلى أن تحدث الوفاة ، معتزمين أن بشوهموا ويعرفوا الكتاب لكي يخدم أغراضهم هم ، بأن يعزوا إلى آراء تخالف آرائى تماما !

وما كان أعجب تلك الوقائع والظروف التى توافقت على عقلى والتفت حول هذه الفكرة الحمقاء فاكسبتها مظهر الحقيقة . . بل راحت تثبت صدقها ! وكنت أعرف أن « جيران » كان على ولاء تام للجزويت ، فعزوت إليهم كل المحاولات الودية التى عرضها على من قبل « واتنعت نفسى بأنه ما الح على بالاتفاق مع « نياولم » إلا بواعز منهم ، وبأنهم ما توصلوا إلى الصفحات الأولى من مؤلى ، إلا عن طريق هذا الناشر ، وأنهم لم يلبثوا أن اهتدوا إلى طريقة لحمل « دوشين » على أن يوقف الطباعة ، ولعلمهم استطاعوا أيضا أن يستولوا على الأصل الخطى للكتاب ، كى يعملوا على مهل فى تحريره ، حتى يطلق موتى الحرية لهم فى أن ينشروا هذا الزيف وفق هواهم . ولقد كنت أثمر دائما . وبالرغم من ملق الأب بيرييه - أن الجزويت لم يكنوا لى شيئا من الحب ، على الإطلاق ، لا لاشتراكى فى جماعة الموسوعة أو « القاموس المحيط » فحسب (١) ، وإنما لأن آرائى - أيضا - كانت أشد عدا لبيادتهم وتفوذهم من كثر زبلاى ، إذ أن من الممكن للتطرف الزندقى والتطرف الدينى أن يتقاربا بفصل تعصبيها المشترك ، بل إن من الممكن أن يتحدوا كما فعلنا فى الصين ، وكما يفعلان الآن فى عدائهما لى . أما

(١) تحدث « روسو » عن هذا المشروع فى صفحة ١١٥ - الجزء الثالث .

العقيدة القائنة على القتل والمجاذىء الخلقية ، والتى تلغى كل سلطان إنسانى على الضمائر ، فانها لا تدع موردا يستفله أولئك الذين يزعمون لأنفسهم هذا السلطان !

ولقد كنت أعرف - كذلك - أن السيد المستشار (١) كان صديقا حميما للجزويت ، فخشيت أن يكون الابن قد وجد نفسه مضطرا إلى أن يسلمهم المخطوط الذى تكتل بحمايته ، نحت الشعور بالحرج أمام أبيه . . بل لقد زين لى الوهم أن أرى أثر هذا التخلّى منه عن المخطوط ، فى تلك التحرشات التى بدىء فى توجيهها إلى . بصدد الجزئين الأولين من الكتاب ، اللذين احتجرا « دون تجليد لبعض أمور تافهة . . فى حين أن الجزئين الباقين ، كائنا - كما هو غير مجهول - بفهمين بآراء عنيفة « ما كان يستدمى إعادة صوغها بأكملها ، إذا كان الرقيب قد انتقدها ، كما فصل بسابقتها . ثم أننى كنت أعرف - فوق هذا ، كما أتبانى به السيد دى ماليزيروب نفسه - أن الراهب « دى جراف » الذى وكل إليه أمر مراجعة هذه الطبعة ، كان هو الآخر من أتباع الجزويت . وهكذا لم أكن أرى سوى الجزويت فى كل مكان ، دون أن أفكر فى أنهم كانوا على اعتاب أبادتهم ، وأنهم كانوا جد منهكين فى الدفاع عن أنفسهم ، فكان لديهم ما يشغلهم عن القاهر ضد طبع كتاب لم يكن لهم به أى شأن .

بل أننى لأخطئ إذ أقول : « دون أن أفكر » ، ما لواقع أننى

(١) المستشار دى ماليزيروب ، والد رقيب

فكرت جيدا ، وكان هذا بالذات من الاعتراضات التى عنى السيد دى ماليزيرب بأن يبيدها لى ، بمجرد ان غطن إلى الفكرة الواهمة التى تملكنى . ولكنى بنزوة من تلك القزوات التى تتملك رجلا يحاول — من اعماق معزله — ان يجلو اسرار جسام الأمور ، وهو لا يعرف عنها شيئا ، لم أشأ قط ان اصدق ان الجيزويت كانوا فى خطر ، بل اعتبرت مثل هذه الشائعات بمثابة حيلة منهم لتخدير اعصاب خصومهم . وكانت انتصاراتهم الماضية — التى لا سبيل إلى انكارها — توحى إلى بفكرة رهيبة عن نفوذهم . حتى اننى رحمت انعى على البرلمان هو انه إزاهم . وكنت أعرف ان السيد دى شوازيل قد درس على أيدي الجيزويت ، وان السيدة دى بومبادور لم تكن على علاقات سيئة معهم ، وأن نحالفهم مع ذوى الخطوة والوزراء ، كان يعتبر دائما ذا نفع كبير لكل من الطرفين ضد عدوهما المشترك . وكان البلاط الملكى يبدو متباعدة عن الزج بنفسه فى هذه الأمور . . . ولما كنت مقتنعا بأن المجتمع إذا تعرض يوما لاية هزة عنيفة ، فلن يكون البرلمان من القوة بحيث يحدث هذه الهزة ، فقد اتخذت من هذا الامراض عن العمل من جانب البلاط ، أساسا لثقة الجيزويت واطمئنانتهم إلى الفوز .

وتصارى القول ، اننى لم اكن أرى فى كل شائعات تلك الفترة ، سوى تعمية وشباك من جانب الجيزويت ، ولما كنت مؤمنا بأنهم — فى موقفهم الامين — قد أوثوا الوقت الكافى لى يعدوا عدتهم لكل شىء ، فإنتى لم اكن أراقب عط فى أنهم لن يلبثوا أن يسحقوا اليانسين ، والبرلمان . واصحاب الموسوعة،

وكل من لم ينصاعوا لريقتهم . . . وانهم إذا اتاحوا لكتابى ان يظهر — فى النهاية — فلن يكون ذلك إلا بعد ان يحولوه إلى سلاح ، وان يستغلوا اسمى فى التقرير بقرائى .

ولقد كتبت اشعر باننى موشك على الموت ، ومن ثم فإنتى لا اكاد ادرى ، كيف ان هذا التهوس لم يقض على ! . . غشد ما جزعت لفكرة ان ذكراى قد تشوه بعد موتى ، فى أفضل كتيبى وأجبرها بالمجد ! . . ابدا ما شعرت ببطل ذلك الخوف من الموت الذى تولانى إذ ذاك ، واعتقد انه لو كان مقدرا لى ان اموت إذ ذاك « لتضيت نحى وأنا فى ياس قائل . بل إتنى اليوم » وأنا ارى أسود وابشع مؤامرة دبرت ضد ذكراى امرىء ، تسير قدما نحو غايتها ، اشعر باننى ساموت اكثر طمأنينة ، إذ أترك خلفى — فى كتاباتى — شاهدا لن يلبث ان ينتصر — إن عاجلا أو آجلا — على مؤامرات البشر !

سنة ١٧٦٢

وكان السيد دى ماليزيرب هو شاهد انفعالى ، ومستودع سرى بشائنه ، لخبذل فى سبيل التسمية عنى جهودا نمت عن طيبة قلب لا ينضب لها معين . ولقد ساهمت السيدة دى لوكمسمبورج فى هذا العمل الطيب ، وزارت « دوشين » عدة مرات ، لى تقبين بدى تقدم سر الطبعة . وأخيرا ، استؤنفت الطباعة ، وراحت تتقدم أسرع من ذى قبل ، وما قدر لى قط أن اعرف سر توقفها من قبل . وأعد نجش — السيد دى ماليزيرب عناء الحضور إلى (لومورفوز) لى يهدى من

رسمتها في الرسائل الأربع ، ان اسعد الفراغ الذي كان يجب ان تملأه المذكرات التي اعترفت من قبل ان اكتبها ! .. إن هذه الوسائل التي أعجب بها السيد دي ماليزيرب ، والتي أطلع عليها أهل باريس ، تعتبر - إلى حد ما - ملخصا لهذا الذي اعرضه هنا بالتفصيل ، ومن ثم فهي جديرة بأن تصان . ولسوف توجد منها - بين أوراقى - نسخة نقلها برجاء منى ، وأرسلها إلى بعد ذلك بسنوات .

وأصبح الشيء الوحيد الذى يكرهنى - منذ ذلك الحين - كلها فكرت . اننى كنت موثقا على الموت ، هو اننى كنت محروما من أى ادب اركن إليه ، واستطيع أن اضيق بين يديه أوراقى ، لكى يراجعها ويفرزها بعد وفاتى ! .. وكنت منذ رحلتى إلى جنيف ، قد اتصلت بـ « مولتو » برباط من المودة ، فقد شغفت بهذا الشاب ، وكنت اتنى لو أنه جاء ليفض عينى عنديا أموت . ولقد أطلعته على هذه الرغبة ، واعتقد أنه كان على استعداد لأن يؤدي هذا الواجب الإنسانى ، وهو راض « لو أن شؤنه وأسرته سمحت له بذلك . أما وقد حرمت من هذا العزاء ، فقد رغبت فى أن أهبه دليلا على ثقى به . على الأقل - بأن أرسلت إليه « إعلان استق سافوا إيمانه » ، قبل النشر . ولقد سر بها ، ولكنى لم أستم فى لهجة رده ما ينم عن أنه كان يشاطرنى الاطمئنان إلى الثقة التى أردت سملى أن أشعره بها . فقد رغب فى الحصول على بعض شغل أدبية لم يقدر لسواه أن يحرزها . ومن ثم أرسلته إليه « رثاء الدوق دورليان عند وفاته » ، وكنت قد أرسلته إلى الرثاء

هواجسى ، ووفق فى ذلك ، إذ ان ثقى التلمة بأستقلته ، ثقلت على تخبط فكرى ، فجعلت كل مجهود منه - ليعمد إلى ذهنى انتزاته - مجهودا مثمرا . وكان من الطبيعى ان يجدنى جد جذير بالرثاء ، بعد كل الذى شهده من شجونى وآلامى . ولقد عاودته فكرة التعمت الفلسفى التى كانت تحيط به وتردد على سمعه باستمرار . فلقد قيل للملا ، عنديا ذهبت للإقامة فى (ليرميثاج) - كما ذكرت من قبل - إننى لن أطيع البقاء طويلا ، فلما رأى المتقولون أننى بقيت هناك . زعموا أن بقائى إنما كان بدافع من عساذى ، وكبريائى ، واستحيائى من أن اراجع . . واننى كنت فى الحقيقة أعانى ضيقا قاتلا ، وشقاء بالغا . ولقد صدق السيد ماليزيرب ذلك ، وكتب إلى . فكان شعورى مضاعفا لصدور هذا الخطأ عن رجل كنت أكن له كثيرا من التقدير ، ومن ثم كتبت له أربع رسائل ثمنا ، شرحت له فيها الدوافع الحقيقية لمسلكى ، ووصفت له بإخلاص ميولى ، وتزعائى « وشخصيتى . وكل ما يخالف مؤادى . . هذه الرسائل الأربع ، التى كتبت دون تحضير ولا مسودات ، وإنها بسرعة ، وبجرة قلم ، ودون ما مراجعة ، قد تكون المؤلفات الوحيدة - فى حياتى - التى كتبتها بسهولة . . والأعجب من هذا أننى كتبتها وسط آلامى والتداعى المفرط الذى كنت أعانيه . وإذ كنت أشعر بأن قوائى كانت فى اضطلال ، فقد تنهدت حسرة إذ فكرت فى اننى سأخلف وراءى - فى آذهان الرجال الأشراف - مثل ذاك الراى الظالم عن نفسى ، ومن ثم فقد حاولت بالصورة السريعة التى

للراهب دارتي ، بيد أنه لم يقدر له أن يلقيه ، إذ عهد بمهمة رشاء النقيب إلى سواه ، على غير ما كان يتوقع !

وما إن استؤنف طبع « أميل » ، حتى مضت العملية قدما وانتهت في هدوء ، وقد لاحظت في هذه المرة ظاهرة عجيبة ، فبعد الصفحات التي حذفتم في قسوة من الجزئين الأولين ، أجيز الجزءان التاليان دون ما اعتراض ، ودون أن يتخذ من محتوياتها ما يمرقل النشر . وكنت ما أزال احتفظ ببعض التوجس الذي ينبئني ألا أغفله هنا . فبعد أن كنت في خوف من الجيزويت ، إذا بي في خوف من اليانسيين ومن الفلاسفة . إذ أننى كعدو لكل ما يسمى تحزبا ، أو تعصبا ، أو تعنفا ، لم أكن أتوقع قط أى خير من أولئك الذين اتوا شيئا من ذلك .

وكان « الثرثاران » (١) قد خلفا — قبل ذلك بزمن — مقرهما القديم ، واستقر بهما المقام جد قريب منى ، حتى لقد كان من الممكن أن يسمع في غرفتهما كل ما يقال في غرفتي أو شرفتي ، كما كان من السهل جدا تسليق السياج القصير الذى كان يفصل حديقتهما عن شرفتي المغلقة الجوانب ، وكنت قد اتخذتها حجرة مكتب ، فأقيمت فيها منضدة تكسدت عليها « برومات » وصفحات « أميل » و « العقد الاجتماعى » . ولقد اعتدت أن أخيط هذه الأوراق بعضها إلى بعض ، عندما ترسل إلى ، وبهذا كنت أحصل على نسخ من كتبى قبل ظهورها

بوقت طويل . وكان غيائى وإهمالى وثقتى بالسيد متى (٢) ، وأطمئنأتى إلى الحقيقة التى كانت تحيط بهسكتى . . كل هذه كثيرا ما كانت تجعلنى أنسى إغلاق الشرفة في الليل ، فكنت أجدها في الصباح مفتوحة . . وما كان هذا ليسبب لى أنفسه شغل ، لولا أن خيل إلى أننى لاحظت أن أوراقى لم تكن كما رقيتها . وإذا لاحظت هذا عدة مرات ، أصبحت أكثر عنابة بإغلاق شرفتى . وكان القتل رديئا ، لا يكاد المفتاح يدور فيه سوى نصف دورة . وإذا ازدادت انتباهها ، وجدت أن المصث بأوراقى أصبح أكثر مما كان عندما كنت أترك الباب مفتوحا .

وأخيرا ، اختفى أحد كتبى يوما وليلتين ، وعجزت تماما عن أن أتبين ما جرى له ، إلى أن كان صباح اليوم الثالث ، إذ وجدته ثابتة على المنضدة ! . . ولم أشعر إذ ذاك — ولا شعرت يوما — بأى ارتياح في السيد متى ، ولا فى ابن أخيه السيد دومولان ، إذ كنت أعرف أن كلا منهما كان يحبنى ، ومن ثم فقد كنت أوليهما كل ثقة . وبدأت أشعر بأطمئنأتى إلى « الثرثارين » يتضاؤل . وكنت أعرف أن لهما علاقة بدالمير — برغم أنها كانتا من اليانسيين — كما أنها كانتا بقبيلان معه في مسكن واحد في باريس . وقد سبب لى هذا شيئا من عدم الارتياح ، وجعلنى أكثر حذرا . فغفلت أوراقى إلى مخدع ، وانصرفت نهائيا عن زيارة هذين الشخصين ، لا سيما وأننى

(١) مستعصبة (مون لوى) ، الدال

(٢) مونوروسى ، بعد أن قادى ليرميلاج

(١) أوود روسو ، ذكرهما في الجزء الرابع .

سمعت كذلك أنني عرضاً - في عدة بيوت - الجزء الأول من « اميل » ، الذي كنت من عدم الحكمة بحيث أنني أعرتها إياه . ومع أنني ظلاً يجاوراني في المكتى إلى أن غادرت المكان ، إلا أنني لم اتصل بهما قط منذ ذلك الحين !

وسيق « العقد الاجتماعي » كتاب « اميل » إلى الظهور ، بشهر أو شهرين . وكان « ربي » - الذي اعتدت دائماً أن أحرم عليه تحريماً باتاً إيفال أي كتاب من كتبى إلى فرنسا - قد أرسل إلى المستشار يرجو الحصول على إذن بأن يدخل « العقد الاجتماعي » إلى فرنسا ، عن طريق « روان » ، حيث كان قد أرسله بحراً . ولم يتلق « ربي » رداً ، فظلت طروده في (روان) عدة أشهر ، ثم ردت إليه ، بعد أن بذلت محاولة لمصادرتها ولكنه أحدث ضجة اضطرت أصحاب المحاولة إلى ردها له . على أن الفضول دفع البعض إلى الحصول على نسخ من (استودام) ، تدوالت في غير ضجة تذكر . ولقد حدثنى « موليون » - الذي كان قد سمع ، بل ورأى بعض هذه النسخ - عن الأمر ، في شيء من الغموض الذي ادعشنى ، وكان خليقاً بأن يثير تلقى - كذلك - لولا أنني في تأكدي من أنني اتبعت القانون في كافة الاعتبارات . ولم آت ما أوأخذ نفسي عليه ، رحت أطمئن نفسي مستنداً إلى مبدئى العظيم . ولم يخالجنى شك في أن السيد دي شوازيل - الذي كان قد أبدى ميلاً طيباً نحوي ، ورضاء عن « اميل » - قد أرسل إلى أن أوردته في هذا الكتاب - أن أوردته في



وإد اوردته إليها ، وجدت أن العت ناورافى أصبح أكثر من كان عدد

كنت أتله اليك مفتوح

هذه المناسبة ، ضد النوايا السيئة التي تصدر عن السببد
دى بومبادور !

وكان من المؤكد أن يوسى إذ ذاك أن اركن إلى انفسال
السيد دى لوكسمبورج « أكثر من ذى قبل ، وأن اطمئن إلى
تعاضده لى عند الضرورة . إذ أنه لم يبد لى يوما ما يفوق
ما كان يبيده لى إذ ذاك من دلائل الود والمداقة . ومع أن
حالى الصحية المحزنة لم تكن تتيح لى أن اسعى إلى القصر
— فعندما قدم فى رحلة عيد الفصح — إلا أنه لم يكن يدع يوما
يمر دون أن يزورنى . وإذا رأى أن الامى لا تنقطع ، اقمعنى
— فى النهاية — بأن اعرض نفسى على الاخ « كوم » (١) . وارسل
يبحث عنه ، ثم احضره بنفسه ، واوتى الجلد على أن يبقى
معى أثناء العملية التى كانت مؤلمة وطويلة ، وهو امر نادر
— وجدير بالتقدير — لدى نبيل عظيم الجاه مثله . على أن
العملية لم تكن تتجاوز استخدام المسابر والمجسات بيد اننى لم
اكن يوما قادرا على تحملها ، حتى على يدى « موران » الذى
حاولها عدة مرات ، ولكنه باء بالفشل باستمرار . على أن
الاخ « كوم » — الذى اوتى مهارة وخفة يد لا تضارعان — وفق
فى النهاية ، إلى إنفاذ مسبر جد صغير ، بعد أن سبب لى الما
عظيما لأكثر من ساعتين ، كنت خلالهما أبذل قصارى جهدى
لأكتم صرخاتى ، حتى لا امس الفؤاد الحساس الذى اوتيه

(١) الاخ « كوم » ، هو جان باسيلاك ، الذى عاش بين سنتي ١٧٠٢ و١٧٨١ ، وكان حجة فى « الحصة » وعمل المثانة والكلى . وكان راهبا .

المارشال الطيب ! .. وخيل إلى الاخ كوم — بعد الفحص
الاول — أنه قد اهتدى إلى « حصوة كبيرة » ، وانبأنى بذلك .
بيد أنه لم يقطع العثور عليها فى الفحص الثانى . وبعد أن
اجرى فحصا ثالثا « وثالثا ، فى عناية ودقة جعلتاني أشمر
بالموت يستطيل كل الطول ، اعلن أن لا « حصوة » هناك
اليتة ، ولكن « البروستاتا » كانت متضجرة ، ومتضخبة إلى
درجة غير عادية . ووجد أن المثانة كبيرة وفى حال جيدة ،
وانهى بأن أبدى لى انفى ساعائى كثيرا ، ولكننى ساعيش
طويلا . وإذا كان قد قدر للنوبة الثانية أن تكتيل ، كما اكتملت
الاولى ، فإن الامى لم تقرب بعد من نهايتها !

وهكذا انتهى بى الأمر ، بعد أن عولجت طيلة هذه السنين
المتتابعة من علل لم تكن بى ، إلى أن أعرف أن دالى لم يكن منه
شفاء ، وإن لم يكن ميئا ، وأنه خلى بأن يظل ما ظلت أنا
على قيد الحياة . ولم يعد خيالى — بعد أن كبخته هذه المعرفة
— بصور لى وفاة اليمة قاسية ، تتم وسط الأوجاع الناشئة
عن « الحصوة » . ومن ثم فقد كفت عن الخوف من أن تكون
تعبئة مسبر كسرت — منذ أمد طويل — فى القناة البولية « قد
غست نواة تكونت حولها « حصوة » . . وإذا تحررت من شرور
الوهم — التى كانت اقسى من أوجاع الحقيقة — رحت اتحمل
هذه الحقيقة فى جلد وصبر . وليس من شك فى اننى منذ
ذلك الحين ، أصبحت أقل توجعا من مرضى ، من ذى قبل .
وما تفكرت مرة أننى كنت مدينا لى لمرض « الحصوة » الذى
لوكسمبورج ، دون أن تهتز مشاعرى .

وإذ عدت - بهذا - إلى الحياة، كما ينبغي أن يقال، أصبحت أكثر من ذي قبل انشغالا بإنجاز ما تبقى من مشروعي (١) . ولم أكن انتظر - لهذا الإنجاز - سوى ظهور " أميل " . وفكرت في (تورين) التي كنت قد زرتها من قبل ، والتي راقت لي . نظرا للطف جوها وأهلها .

« فالأرض الحنون » الخصبة ، البهيجة

وأهلها يشبهونها في كل شيء ■ (٢) !

وكنيت قد تحدثت عن مشروعي إلى السيد دي لوكسبورج، فحاول أن يثنيني عنه . وعشت إلى أن أكلمه بصدده كاهر استقر الرأي عليه . وإذ ذاك اقترح على قصر « ميلو » - الذي كان يقع على بعد خمسة عشر فرسخا من باريس - كملجا قد يناسبني ، وأعرب عن اغتيابه وزوجته بأن يرياني استقر فيه . ولقد صادفت الاقتراح هوى من نفسي ، فلم أرفيه بما يضير . وكان لا بد من رؤية المكان قبل كل شيء ، فانفقا على أن يرسل وصيفه الخاص مع عربة، لتقلني إلى هناك في يوم محدود . ولكنني شعرت - في ذلك اليوم - بوعكة شديدة ، ومن ثم أرجأت الرحلة . ثم تكاثفت عدة عوائق بعد ذلك ، على أن تحول بيني وبين القيام بها . وإذ قدر لي - فيما بعد - أن أسمع أن ضيعة (ميلو) لم تكن من أملاك السيد دي

(١) مشروع اعتزال الأدب والناس .

(٢) بيت من الشعر اللاتيني للفيلسوف تاسو .

لوكسبورج ، وإنيما كانت من أملاك زوجته ، فإني لم أجد كثير عناء في أن أعزى نفسي لعدم ذهابي إلى هناك !

وظهر « أميل » أخيرا ، دون أن أسمع أي فبا جديد عن حذف شيء آخر ، أو عن أية عقبات . وكان السيد دي لوكسبورج قد طلب إلي ، قبل ظهور الكتاب ، كل رسائل السيد دي ماليزيرب التي تتعلق بهذا المؤلف . ولقد حالت ثغني بكل منها ، وشعوري بالطمأنينة التامة ، دون أن أرى في هذا الطلب أية غرابة أو شبهة . ومن ثم فإني أعدت الخطابات ، فيما عدا واحد أو اثنين ، تخلفا عفوا بين صفحات بعض الكتب . وكان السيد دي ماليزيرب قد أشار - قبيل ذلك بفترة من الزمن - إلى أنه قد يسحب الرسائل التي كتبها إلى « دوشين » ، عندما كنت في جرع بشأن الجيزويت . ومن الواجب أن أعترف بأن هذه الرسائل لم تكن مما يشرف عقلي وتفكيري . ولكنني أنبأته بأنني لم أكن نواتا إلى أن أظهر بمظهر بفضل حقيقتي بأية حال ، وأن من الخلق به أن يدع الرسائل لدوشين . . ولست أدري ما إذا كان قد فعل .

ولم يقابل ظهور هذا الكتاب بالضجة والإعجاب اللذين اعتادا أن يحفا بظهور كل مؤلفاتي . بل إن كتابا سواه لم يقابل بمثل ما قوبل به هو من إطراء من الخاصة ، ومن استحصان وأمن من العامة . فإن كل ما كتبه ومثاله لي أقدر الناس على الحكم، عزز رأيي في أنه أفضل مؤلفاتي وأهلها قيمة . ولكن كل الذي قيل لي قيل في أغرب مظاهر التحوط . ~~والكتاب~~ ~~والكتاب~~ من

المهم تكتم الاستحسان واعتباره سرا ! .. فالسيدة « دى بونلير » ، التى ذكرت لى أن مؤلف مثل هذا الكتاب جدير بأن تتسام له تماثيل ، وأن يتلقى آيات التفكير من البشر قاطبة - رجنتى فى نهاية رسالتها - فى غير ما مواراة - بأن أرد إليها الرسالة ! .. أما « دالمير » - الذى كتب لى ما معناه أن الكتاب قد أقر نفوقى وسمو شأنى ، وأنه خليف بأن يجعلنى على رأس كافة الأدباء - فقد أغفل توقيع الرسالة ، مع أنه اعتاد توقيع كل الرسائل التى أرسلها إلى قبل ذلك . ولقد كان « ديكلو » صديقا جديرا بكل ثقة ، وكان رجلا صادقا ، ولكنه كان حذرا حريصا . ومع أنه قدر هذا الكتاب تقديرًا عاليا ، إلا أنه تجنب إبداء أى رأى فيه كتابة ! .. ولقد حمل « لاوندمين » على « إعلان الإيمان » ، وراح يتخبط فى أقواله . وكذلك انتصر « كليرو » على عين هذا الجزء من الكتاب - فى رسالته - ولكنه لم يخش أن يجاهر بمدى تأثره بقراءته . فاعلمنى بمبارات صريحة على أن هذه القراءة قد بعثت الدفء فى نفسه العجوز . وكان - دون جميع من أرسلت إليهم كتابى - الوحيد الذى أعلن على الملأ جهرا وبصوت مدو ، مدى إعباره هذا الكتاب .

أما « متى » - الذى كنت قد أعطيته إحدى النسخ الأولى ، قبل أن يعرض الكتاب للبيع - فقد أعار السيد « دى بلير » المستشار البرلمانى ، ووالد ممثل الحكومة فى (ستراسبورج) ، هذه النسخة . إذ كان للسيد دى بلير بيت ريفى فى (سان جراسيان) وقد اعتاد « متى » - الذى كان من معارفه

القدامى - أن يزوره من آن إلى آخر ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا . ومن ثم فقد مكثه من آن يقرأ « أميل » قبل صدوره . فلما رد السيد دى بلير إليه الكتاب ، أفضى بهذه الملاحظة ، التى رددت على سمنى فى اليوم ذاته : « هذا كتاب جديد بديع يا سيد متى ، ولكنه لن يلبث أن يثير أحداث تتجاوز ما قد يوده المؤلف ! » . ولقد اكتفيت ، حين ردد لى هذا القول ، بأن أنحك ، ولم أر فى هذه الملاحظة أكثر من مجرد مظهر من أساليب المستشارين ، الذين يحبون أن يصفوا جوا من الغبوض على كل شيء . وهكذا لم تترك كل التعليقات المشحونة بالقلق ، والتى نبيت إلى ، سوى أثر ضئيل فى نفسى . فقد كنت أبعد من أن أبصر الكارثة التى كانت موشكة أن تحيق بى ، مقتنعا بجمال مؤلفى ونفحة ، وثقا من أنه فى حدود القانون من كل ناحية ، مرتكبا - كما خيل إلى - إلى كل ما للسيدة دى لوكسمبورج من نفوذ ، بل وإلى رضا الوزراء كذلك . فرحت أحيذ لنفسى القرار الذى اتخذته باعتزال الأدب وأنا فى غمرة انتصاراتى ، وبعد أن سحقت كل الحاسدين لى !

ولم يزعجنى من نشر هذا الكتاب سوى شيء واحد ، ولم يكن إزعاجه صادرا عن مراعاة لسلامتى ، بقدر ما كان منبعا عن رغبة فى أن أطمئن ضميرى . ذلك أننى كنت قد شهدت عن كثب ، وباستنكار - أثناء وجودى فى (ليميتاج) و (مونتورسى) - المنغصات التى كان تنافس الأبراء على اللهو يفرضها على الفلاحين البائسين . فيضطرونهم إلى تحمل الخسائر التى كانت تصيب حقولهم جراء السيد « المتعسر » .

دون أن يجسروا على الذود عن هذه الحقول إلا بأحداث الضجة .
ويضطرمهم إلى أن يقضوا الليالى بين غوامهم وبازلائهم . وهم
بدقون على الأوانى والطبول والأجراس ، لينفروا الوعول
البرية . ولقد شهدت الوحشية القاسية التى كان السيد
الكونت دى شارلوا يعامل بها هؤلاء المساكين ، فحملت - عندها
لوشكت على نهاية « أميل » - حملة شعواء على هذا التصرف
القاسى . وكان هذا العمل منى ، خرقا آخر لمبادئى ، ولم يقدر
له أن يضى دون ما عقاب . فقد سمعت أن رجال السيد الأمير
دى كونتى ، لم يخفوا من تسوئهم على فلاحى أراضيه . ورحت
ارتجفه خشية أن يكون هذا الأمير - الذى كنت أكن له أعق
مشاعر الاحترام والعرفان - قد حمل على محمل الإساءة
إليه ، ما دفعنى الشهم الإنسانى إلى أن أوجهه إلى عمه الكونت
دى شارلوا . على أننى رحمت أطمئن نفسى ، فقد كان ضميرى
يبرر كل التبرير حملتى هذه ، وقد كنت مصيبا فى ذلك . إذ
أننى لم أسمع قط أن هذا الأمير العظيم قد أبدى اتفه اهتمام
لهذه الفقرة التى كتبها قبل أن أحظى بشرف التعرف إليه .
بوقت طويل .

ولقد ظهر قبل نشر كتابى بأيام قلائل ، أو بمعسده - إذ
أننى لا أذكر الوقت تماما - كتاب آخر فى الموضوع ذاته ، نقل
بنفسه عن الجزء الأول من مؤلقى - كلمة بكلمة - فيها مدحا
بعض تعديلات نثرت خلاله . وكان هذا الكتاب يحمل اسم
شخص من (جنيف) كان يدعى « باليكسير » ، قبل - على

ما جاء فى عنوانه - أنه كان قد فاز بجائزة مجمع (هارليم) .
وادركت دون عتاء أن هذا المحفل وهذه الجائزة ابتدعا حديثا
لنعية الراى العام عن السرقة . بيد أننى رايت - كذلك - أن
فى هذا مؤامرة داخلية ، لم أستطع أن أدرك أن كانت تتمثل فى
نقل مخطوطى إلى الناشر - الأمر الذى لم يكن من سبيل إلى
السرقة بدونه - أم فى إنشاء قصة الجائزة المزعومة ، التى
كانت تستدعى ضرورة إنشاء الهيئة التى منحتها ! . ولم
أستطع أن أبدد هذا الفموض إلا بعد سنوات عديدة ، وبناء
على كلمة أقلت من « ديفرنوا » فيكتفى من أن أثبت خلال
الأحداث أولئك الذين رسموا دور السيد باليكسير !

وبدأت القبضة المكتومة التى تسبق العاصفة ، تقفاهى إلى
السمع . وراى كل من أوتى بصيرة ثاقبة ، أن ثمة مكيدة
كانت تتفاعل ، لتحقيق بكتابى وبى ، وأنها لن تلبث أن تنفجر .
أما أنا ، فإن أطمئنانى وغشائى كانا من الضخامة بحيث أننى لم
أبصر محتى . بل إننى لم أجدس شيئا عن سببها ، بالرغم
من أننى بدأت أشعر بأثرها . فقد تمثلت بدايتها فى دهاء
بارع ، اتجه إلى الترويج لفكرة مؤداها أن المعاملة القاسية التى
كان الجيزويت يلقونها ، ما كان ينبغى أن توحى بأى سبيل
إلى إبداء العطف نحو الكتب والمؤلفين الذين يهاجمون الدين .
ولقد وجه إلى اللوم لأننى وضعت اسمى على « أميل » ، وكأننى
لم أكن قد وضعته على كتاباتى الأخرى دون أن يقال لى
شيء عن ذلك ، وبدأ كأنها كان ثمة خوف من أن يضطر القوم
إلى اتخاذ خطوات قد يأسفون ، ولأنهم كانوا قد كتبوا
ضرورية ، وكانت رعوتى قد

ولقد بلغتني هذه الأقاويل ، ولكنها لم تسبب لى أقل قلق بل انه لم يخطر لى إطلاقا ان المسألة كلها ما يستتت شخصيا . . . انا الذى كنت أشعر باننى فوق كل لوم ، وأنتى مؤيد أشد تأييد ، وأنتى بخير من كافة النواحي ، وانه لم يكن لى ان أخشى ان تتركنى السيدة دي لوكمسمبورج وسط المآزق ، من أجل ذنب إذا كان قد ارتكب حقا ، فقد كانت هى منشأه الأوحى : . . على أننى لما كنت قد عرفت من تطورات الأمور عادة - فى مثل هذه القضايا - ان السخط كان ينصب على الناشرين ، دون المؤلفين ، فقد داخلنى القلق من أجل « دوشين » المسكين ، لو أن السيد دي ماليزيرب تخلى عنه !

وظللت ساكنا . . وتضاعفت الشائعات ، وسرعان ما تغيرت لهجتها ، وبدأ ان الراى العام ، والبرلمان بوجه خاص ، قد أهاجمها صتى . وبعد أيام تلائل ، أصبح الانفعال غظيما ، وتبدل هدف التهديدات وأصبحت موجهة إلى - انا بالذات - مباشرة ، وسهمت أعضاء البرلمان يقولون بكل صراحة الانع يرجى من إحراق الكتب ، وإنما يجب إحراق المؤلفين . اما الناشرون ، فلم تذكر كلمة واحدة عنهم . . وفى المرة الأولى التى رددت فيها أمامى هذه الآراء - التى كانت أجدر بأن تصدر عن محقق مفرض ، وليس عن عضو فى الشيوخ - لم يداخلنى أى شك فى أنها كانت ابتكارا من عصبة دولياخ ، أريد به إثارة دمرى ودفعى إلى الفرار . وضحكت لهذه الحيلة الصيبانية ، وقلت لنفسى وأنا أسخر منهم ، إنه لو أتبع لهم أن يعرفوا حقيقة الأمور ، لبحثوا عن وسيلة أخرى لإرهابى .

بيد ان الشائعة لم تثبت أن بلغت من الوضوح ما أوحى بانها جدية . وكان السيد والسيدة دي لوكمسمبورج قد بكرا فى زيارتهما الثانية لوممورنسى ، بحيث أنهما كانا هناك فى بداية شهر يونيو . ولم أسمع فى دارهما حديثا يذكر عن كتابى الجديدين ، برغم الضجة التى أحدثها فى باريس ، كما أن ربى الدار لم يحدثانى إطلاقا فى هذا الصدد .

ومع ذلك ، فقد تصادف أن كنت على انفراد مع السيد دي لوكمسمبورج - ذات صباح - فبألتنى : « هل تحدثت بسوء عن السيد دي شوازيل فى كتاب : المقد الاجتماعى ؟ » . فاجلت دهشة « قلت : « أنا ؟ . . يقينا : لا ! أقسم لك . على أننى قدمت له عكس هذا . . فبقلم لم يكن يوما متعلقا . كتبت فيه أبداع إطراء حظى به وزير ، فى أى يوم من الأيام ! » . وأردفت بأن تلوت عليه الفقرة كلها فعاد يتساءل : « وفى اميل ؟ » . فاجبت : « ولا كلمة . . ليست به كلمة واحدة تتعلق بالسيد » . فهتف فى حرارة لم تكن من عادته : « آه ! . . كان خليقا بك أن تفعل الشيء ذاته فى الكتاب الآخر ، أو ان تكون أكثر وضوحا فيما كتبت ! » . فاجبت : « لقد خلت اننى فعلت . . ولقد قدرته تقديرا كأنيا » . وكان على وشك أن يرد إلى القول : ولجحت انه كان يتأهب لأن يصارحنى بما كان يخفى ، ولكنه كبح نفسه ، ولأذ بالصمت . فما أنعمس سياسة عضو حاشية الملك ، إذ انها تطفى على الصداقة ذاتها ، فى أحسن القلوب !

ولقد أثار هذا الحديث ، على خصوصية لوكمسمبورج .

موقفي - أو بشأن ناحية معينة ، على الأمل - وجعلني أدرك أنني كنت هدف المهاجمين . ورحبت أنني هذا التحس - الذي لا نظير له - والذي قلب إلى غير صالح كل طيب قلته أو فعلته . ومع ذلك ، فقد ظلت أصر بأنه كان لي أن أعتمد في هذه المسألة على السيدة دي لوكمبورج ، والسيد باليزيرب ، فلم أر كيف كان في الوسع إزاحتها للوصول إلى . إذ أنني - منذ تلك اللحظة - شعرت بجلاء أن المسألة لم تعد مسألة إنصاف أو عدالة ، وأنه لن يكون ثمة أكثر من بيتين ما إذا كنت مخطئاً حقاً ، أو لم أكن . على أن هدير العاصفة أخذ يزداد شيئاً فشيئاً . بل أن " نياولم " نفسه ، لم يلبث أن أظلمني خلال ثورته المسهبة . على أسفه لأنه أقحم نفسه في هذا المؤلف ، وعلى يقينه من سوء الطالع الذي كان يتهدد الكتاب وكتابه . ومع ذلك ، فقد بقي أمر واحد ظل يطمئنتني دائماً : فلتد كنت أرى السيدة دي لوكمبورج جسد هادئة النفس مطمئنة ، بل وضاحكة ، مما أوحى بأنها كانت واثقة من نفسها ، إذ أنها لم تبسد أي قلق من ناحيتي . ولم تنسب بكلمة إشفاق أو اعتذار ، وأنها كانت ترمق تطور هذه المسألة في هدوء ، وكأنها لم تكن لها يد فيها ، أو كأنها لم تكن تشعر بأنفسها اهتمام بأمري ! . . ولم يكن بدهشني سوى أنها لم تقل لي شيئاً البتة ، إذ لاح لي أنه كان خليقاً بها أن تقول لي شيئاً ما . أما السيدة دي بوفلير ، فقد تراعت أقل طمأنينة . وكانت تروح وتغدو والاضطراب يلزمها ، وتسرف في الحركة ، وتؤكد لي أن السيد الأمير دي كوتني كان يبذل الكثير لصد الضربة التي كانت تعد لي ، والتي كانت تعزوها دائماً إلى

الأحوال الراهنة ، التي كان على البرلمان فيها إلا يتبع للجزويت غرضة اتهامه بالتهاون إزاء الدين . على أنها كانت تبدو قليلة الثقة في نجاح خطوات الأمير وخطواتها . وكانت أحاديثها أدعى إلى الجزع منها إلى التسرية ، فقد مالت دائماً إلى حملى على مغادرة البلاد . وكانت لا تنى تتصحنى بالنزوح إلى إنجلترا ، حيث كان بوسعها أن تتيح لي كثيراً من الأصدقاء بينهم " هيوم " الشهير ، الذي كان صديقاً لها منذ أمد طويل . وإذا رأتني سادراً في مكينتي . اتخذت نهجاً آخر كان أقدر على زحزحتي من جمودي . فقد أوجت إلى بأنني قد اضطر - إذا قبض على ، واستجوبت - إلى أن أذكر اسم السيدة دي لوكمبورج ، وبأن صداقتها لي كانت تستحق ما هو أفضل من أن أعرض نفسي للاضطراب لإخراجها ! . . ولقد أجبتها بأن بوسعها أن تطمئن إلى أنني لن أقحمها في مثل هذه الحال . فرددت بأن هذا العزم أيسر قولاً منه تنفيذاً ، وقد كانت على صواب في ذلك . لا سيما معي أنا بالذات ، إذ كنت مصراً كل الأصرار على ألا أطفئ كذباً أو أقول زوراً أمام القضاء . مهما يكن الخطر الذي قد يترتب على قول الحق !

وإذا رأت أن هذه الفكرة قد أثرت في نفسي ، وإن لم يكن بوسعي بعد أن أحمل نفسي على الفرار . راحت تتحدث إلى عن " الباستيل " - بضعة أسابيع - كوسيلة للتهرب من سلطة البرلمان التشريعية ، إذ لم يكن للبرلمان أي شأن بسجوني الحكومة . ولم يدرك أن هذا الكلام العجيب ، على شريطة ألا يلتبس . . .

إلى الحديث عن هذا الاقتراح مرة أخرى ، أدركت أنها إنها
أبدته لتبطلنى ، وأن حيلة كهذه - تضع نهاية لكل شيء - لم
تكن مرفوعة !

بعد ذلك بأيام قلائل ، تلقى السيد المارشال من أسقف
(دوى) - صديق جريم والسيدة ديبيناى - رسالة ضمنها
نبا قال أنه من مصدر موثوق به ، عن اعتزام البرلمان أن يتخذ
إجراءات غاية في القسوة ضدى ، وأن مرسومًا بإلقاء القبض
على سبصدر في يوم حدده . ورأيت أن هذا النبا غريب من
عصبة دولباخ ، فقد كنت أعرف أن البرلمان كان شديد الحرص
على الشكليات ، وأنه من الانتهاك لجميع هذه الشكليات أن
يبدأ - في هذه المناسبة - بمرسوم بالاعتقال ، قبل أن يثبت
بالطرق المشروعة بما إذا كنت أعترف بالكتاب وبأننى كنت
مؤلفه حقًا . وقلت للسيدة دى بوغليز : « إن أمر الاعتقال
- المبني على مجرد البلاغ العادى - لا يصدر إلا في حالة تلك
الجرائم التى تمس الأمن العام وذلك خشية تمكن المجرمين من
الفرار . أما إذا أريد عقاب ذنب كذبنى ، لا يستحق سوى
التكريم والمكافأة ، فإن العرف يقضى باتخاذ الإجراءات
القضائية ضد الكتاب ، مع تفادى المساس بالمؤلف تسر
الإمكان ! » . وعند ذلك نبهتنى إلى غرقى دقيق ، كنت قد
نسيت ، لتبين لى أنه كان من التكريم لى أن يصدر قرار بالقبض
على ، بدلا من استدعائى لسماع أقوالى !

وتلقت في اليوم التالى رسالة من « جاي » الذى أنبأنى بأنه

كان - في عين اليوم الذى كتب فيه الرسالة - في زيارة للسيد
لثوم - العام ، فلمح على مكتبه مسودة « أعنى » ضد كتاب
« اميل » ومولته . ولاحظوا أن « جاي » كان شريكا لدوشين
الذى طبع الكتاب ، وأنه كان مطمئنا إلى حيلته الخاص ،
فتطوع لإزجاء هذا النبا إلى المؤلف من قبيل الإحسان ! ..
وكان من البسيط « بل من الطبيعى ، أن يتاح لتاجر كتب قدر
له أن يزور السيد المدعى العام ، أن يقرأ - في هدوء -
المخطوطات والمسودات المتناثرة على مكتبه !! .. ولقد أكدت
لى السيدة دى بوغليز وغيرها أن الأمر كان صحيحا . ومن
جاء السخافات التى كانت تلقى في أذنى دون انقطاع ، أصبحت
مبالا إلى الاعتقاد بأن الناس جميعا قد اختبلوا !

وشعرت بيقين من أن ثمة سرا وراء كل هذا .. سرا كان
يحجب عني ، فرحت أرقب في هدوء مجرى الأحداث ، وأنا
وطيد الثقة باستقامة مسلكى ، وبراعتى في المسالة بأسرها .
بل أننى كنت جد سعيد بأن أساق إلى شرف المعانة في سبيل
الحقيقة ، مهما يكن الجور الذى يرتقبني . وبدلا من أن أخاف
واستتر ، وأظيت على زيارة القصر يوميا ، وعلى التريض على
قدمى - كعادتى - في أصيل كل يوم . وفي اليوم الثامن من
شهر يونيو - وهو اليوم السابق لإصدار المرسوم - قمت
برياضتى في صحبة استاذين من الوعاظ ، هما الأب المانى
والأب ماتدار . وحملنا معنا بعض القوت ، إلى (شلبو) ،
حيث استمتعنا بوجبة شهية . وكنا قد فسرنا أن نعمل معنا
كوبات ، فاستعصنا عنها بأعواد من القش ، ونحن نجلس خلالها

النبيذ من الزجاجات ، متلهفين على اختيار أسماك الأعواد .
لكي نرى أيها أكثر قدرة على الامتناع . وما كنت يوما أكثر
منى طربا في ذلك اليوم !

ولقد ذكرت كيف أنني كنت أعاني من الأرق في صيبي .
ولقد تعودت من ذلك الحين أن أقرأ في السرير — في كل ليلة —
حتى أشعر بعيني تغفوان ، فأطفئ الشمعة ، وأحاول أن أنام
لبضع دقائق ، لم تكن ندوم طويلا . وكانت مطالعاتي الليلية
المعتادة هي « التوراة » ، واستطعت بهذه الطريقة أن أقرأه
خمس مرات أو سنا ، على الأقل . وفي مساء ذلك اليوم بالذات ،
وجدت نفسي أكثر يقظة من المعتاد ، فواصلت القراءة فترة
أطول ، حتى أتيت على السفر الذي ينتهي بقصة الملويين
وأقرايم ، وهو سفر القضاة إذا لم تخن الذاكرا ، إذ أنني
لم أنظر إليه قط منذ ذلك الحين . ولقد ناثرت كل التأثير بيده
القصة . وكنت مستغرقا في التفكير فيها ، بين النوم واليقظة .
عندما انتبهت فجأة إلى ضجة وضوء . وكانت « تيريز » هي
التي حملت الضوء ، وتقدمت تقود السيد « لاروش » الذي
قال إذ رأيته أجعل مذمورا : « لا تنزعج ! .. لقد أتيت من
لدى السيدة المارشالة ، التي كتبت لك ، كما أرسلت إليك
خطابا من السيد الأمير دي كونتي » . وفعلنا وجدت داخل
رسالة السيدة دي لوكسمبورج ، رسالة من الأمير جعلها إليها
أحد رسله ، وقد ضمنها أنه قد تقرّر — برغم كل جهوده —
اتخاذ أقصى الإجراءات ضد . ومما فكره : « أن الانفعال بالغ
الشدة ، ولا سبيل إلى منع هذه الضربة ، فبالإلّا يطالب بها ،

والبرلمان راغب فيها . وفي الساعة السابعة صباحا ، سيصدر
الرسوم بإلقاء القبض ، وسيجري تنفيذ في الحال . وقد
توصلت إلى أنه لن يطارد إذا بادر إلى الابتعاد ، أما إذا أصر
على رغبته في أن يسلمهم نفسه ، فسيلقى القبض عليه ! ..
وراح « لاروش » يستطفني — باسم السيدة المارشالة — أن
أبادر فأذهب للتشاور معها . وكانت الساعة الثانية صباحا ،
وقد أوت إلى مخدعها ، ولكنه أضاف : « إنها في انتظارك » ، ولن
ننام حتى تراك . فبادرت إلى ارتداء ثيابي ، وأسهرت إليها !

وبدت لي مضطربة ، لأول مرة . ومضى قلقلها مشاعري .
وما كنت بمنجى من الانفعال — أنا الآخر — في هذه اللحظة
المخجلة — في جوف الليل — ولكنني نسيت نفسي حين رأيته ،
فلم أعد أفكر إلا غيبا ، وفي الدور المحزن الذي كان عليها أن
تؤديه ، إذا سلمت نفسي . ذلك لأنني في شعوري بأنني أوتيت
الشجاعة على ألا أقول سوى الحق — ولو أدى ذلك إلى
الاضرار بي وإلى إهلاكى — لم أتوقع أن يكون لدى من حضور
الذهن ، أو الدماء ، بل ولا أن يكون لدى الجلد الكافي على أن
تحاشي إقحامها « إذا ما اشتد الضغط على . ودفعني هذا إلى
أن أقرر أن أضحي بسمعتي في سبيل راحة بالها ، وأن أفعل من
أجلها — في هذه المناسبة — ما لم يكن في وسع أية قوة أن تفريتي
على أن أفعله من أجل نفسي . وما أن استقر رأيي ، حتى أعلنه
لها ، غير راغب في أن أحط من قيمة تضحيتي بأن أمكنها من
أن تشتريها ! واتى لوانق من أنها ما كانت لتخطيء فبعد الحافز
الذي دفعني إلى ذلك . بيد أنها — وقد لم يكن لها رأي —

قدرت هذا الحافز . ولقد بهتت لهذا التفاضل ، حتى لقد وجدتني أوازن بين المضي والتراجع . ولكن السيد المارشال أقبل ، كما وصلت السيدة دي بوفلر من (باريس) بمعد لحظات ، ففعلنا ما كان خليقا بالسيدة دي لوكسمبورج أن تفعله . واستسلمت لإطراءاتهما ، فقد استحييت من أن أتراجع ، ولم تعد ثمة مسألة سوى اختيار المكان الذي الوذ به ، وموعد رحيلى . وعرض السيد دي لوكسمبورج أن أبقى أياها مستخفا في داره ، لأن هذا يتبع لى وقتا للتدبير والبت في بحبوحة من الوقت . ولم أقبل هذا إطلاقا ، ولا قبلت اقتراح الانتقال سرا إلى قلعة الأسرة ، بل أصررت على رغبتي في الرحيل في اليوم ذاته ، مفضلا هذا على البقاء مستخفا في أى مكان !

* * *

ولما كنت قد شعرت بأن لى أعداء مستترين وأقوياء في المملكة ، فقد رأيت أن لأبد لى من أن أغادر فرنسا — برغم حبى إياها — لأضمن راحة بالى . وكانت رغبتي الأولى هى أن أجا إلى (جنيف) ، ولكن لحظة تفكير واحدة ، كانت كافية لأن تحولنى عن ارتكاب هذه حماقة . فقد كنت أعرف أن الحكومة الفرنسية — التى كان لها في جنيف نفوذ يفوق ما لها في باريس — لن تدعنى في سلام في أى من هاتين المدينتين ، إذا كانت قد عقدت عزمها على اضطهادى . وكنت أعرف أن كتابى : « حديث في عدم المساواة » قد أثار ضدى — في المجلس — كراهية كان يزيد من خطورتها أن هذه الهيئة لم تكن تجسر على أن تكشفها علانية . ثم أننى كنت أعرف أن المجلس كان

شديد التحمس لتحريم تداول كتابى « هيلويس الجديدة » ، عند ظهوره — بناء على تحريض الدكتور ترونشان — ولكنه حين تبين أن أية هيئة أخرى لم تحذ حذوه — ولا في باريس ذاتها — خجل من خسته ، ورجع عن التحريم . لذلك لم يخالجنى شك في أن المجلس إذا ما وجد الفرصة الراهنة سانحة ، لن يذخر وسما في استغلالها . وكنت أدرك أن ثمة غيرة خفية توغر صدور كل أهل جنيف ضدى — برغم كل المظاهر الجبيلة — وأن هذه الغيرة لم تكن ترجو سوى مناسبة سانحة لتشيع نهبها . ومع ذلك فإن الشعور الوطنى كان يدعونى إلى العودة إلى وطنى ، ولو أننى استطعت أن أقنع نفسى بأنه كان في وسعى أن أمشى في سلام هناك ، لما ترددت لحظة . أما وقد كانت الكرامة والعقل لا يقران أن الوذ بوطنى كلاجئ ، فقد عزمتم ، على أن أقيم على مقربة منه فحسب ، فامكث في سويسرا في انتظار ما قد يجرى في (جنيف) بشأنى . ولسوف يتجلى أن هذا التردد لم يدم طويلا !

وعارضت السيدة دي بوفلر هذا القرار طويلا ، وعادت تبذل جهودا جديدة لحملنى على أن أنقل إلى إنجلترا . ولكنها لم تزعزع عزمى ، فما أحببت قط إنجلترا ولا الإنجليز . وبدلا من أن تتغلب لباقة السيدة دي بوفلر على نفورى ، بدا أنها راحت تضاعفه ، دون أن أدري السر في ذلك .

وإذ اعتزمت الرحيل في اليوم ذاته ، فقد شرعت في ذلك منذ الصباح ، واعتبرتني مسافرا بالثقة للجميع : وس ثم غاب « لاروش » — الذى كنت قد أرسلته ليحضر إلى أمي — لم

يشأ أن يقول لتبريز نفسها ما إذا كنت قد رحلت أو لم أرحل .
 وكنت منذ اعترفت يوما أن اكتب ذكريات حياتي . قد جمعت
 عددا من الرسائل والأوراق ، ومن ثم فقد أضطر إلى أن يذهب
 إلى داري عدة مرات لنقلها . وكانت هذه الأوراق - التي
 فحستها من قبل - قد جمعت على حدة ، لذلك قضيت بقية
 الصباح في فحص الأوراق الأخرى ، معترضا إلا آخذ من إلا
 ما يكون ذا نفع لي ، وأن أحرق الباقي . ولقد رغب السيد
 دي لوكمسبورج في أن يساعدني في هذا العمل ، الذي استغرق
 وقتا طويلا ، حتى أننا لم نستطع أن نفرغ منه في فترة الصباح ،
 ولم أجد متسعا من الوقت كي أحرق شيئا . فعرض السيد
 المارشال أن يتكفل بفحص الأوراق المتبقية ، وأن يحرق بنفسه
 الفضلات - دون أن يدع هذه المهمة لأحد سواه - وأن يرسل
 إلى كل ما يستبقه . ولقد قبلت هذا العرض وأنا جدد بمفبط
 بأن اتحرر من هذا الشاغل ، حتى أتكن من أن أقضى المساعات
 القلائل التي ما زالت باقية لدى ، مع أولئك الذين كانوا جدد
 أمراء على ، والذين كنت مزمعا مراقبتهم إلى الأبد . . . وأخذ
 السيد المارشال مفتاح الحجرة التي تركت فيها هذه الأوراق .
 وأرسل - تحت إلحاحي الدائب - في استدعاء « عمتي »
 المسكينة ، التي كانت تكتوي بالحيرة القاتلة إزاء ما قد جرى
 لي ، وما هو موثك أن يجري . والتي كانت ترتقب الجنود
 - في كل لحظة - دون أن تدري كيف تعاملهم ، ولا ما ينبغي
 أن تجيبهم به !

وأحضرها « لاروش » إلى القصر ، دون أن يذكر لها شيئا .

وكانت تظنني قد أصبحت على بعد شاسع . فما أن رأتني ،
 حتى أطلقت صرخاتها الحبيسة ، وارتبت بين ذراعي .
 فيا للهودة ، ويا لتجاوب القلوب ! ويا للمعاشرة ، ويا للألفة !
 . . لقد جمعت في تلك اللحظة - العذبة والقاسية - كل الأيام
 الهنيئة ، الناعمة ، الوادعة ، التي قضيتها معا ، لتزيدني
 شعورا بوطاة أول فراق لنا ، بعد أن كان كل منا لا يكاد يغيب
 عن بصر الآخر يوما واحدا ، خلال فقرة تقرب من سبعة عشر
 عاما ! . . ولم يقو المارشال - الذي كان يشهد هذا العناق -
 على كبح دموعه ، فتركنا ! . . ولم تشأ تبريز أن تفارقتني ،
 فأوضحت لها ما في مرأقتها إياي - في تلك الظروف - من
 صعاب ، وضرورة بقائها لكي تسوى شئونني ، وتحصل
 أموالي . ولقد كان من المعتاد - عند إصدار مرسوم بالقبض
 على امرئ - أن يستولى على أوراقه ، أو أن توضع الاختام
 على مقتنياته ، أو أن يوقع الحجز عليها ويعين وصي لحراستها .
 ومن ثم فقد كان من اللازم أن تبقى هي ، لكي تراقب ما يجري ،
 وتبذل تصاري وسعها . ووعدتها بأنها لن تلبث أن تلحق بي في
 القريب . وقد عزز السيد المارشال وعدي ، ولكنني لم ألق قط
 أن أتنبأ بالمكان الذي كنت أعزم الذهاب إليه ! حتى إذا سألتها
 أولئك القادمون للقبض على ، كان بوسعها أن تعرب عن جوهلها
 بذلك صادقة . وعندما احتضنتها في لحظة الفراق ، شعرت
 بأنفعالي عاطفي غير عادي . فقلت لها في حرارة ، وكأنها كنت
 - والسفاه ! - اتبأ بما يضره المستقبل : « عليك أن تتذرع
 بالشجاعة يا بنيتي ! . . لقد قابلتني بدموع الحزن ، وبقي
 عليك - ما دامت هذه رغبتك - أن تسبلي نفسك حتى »

ملا تنوعمى سوى الاهانات واللكيات إذا تبعته . إذ أن الحظ الذى يبدأ معى اليوم ، سيعقبني إلى آخر ساعة في حياتي .»

ولم يبق لى ما أفعله سوى أن أدير أمر رحلي . . كان من المتوقع أن يكون رجال الأمن قد وصلوا في الساعة العاشرة ، ولكن الساعة كانت الرابعة - بعد الظهر - عندما انطلقت ، دون أن يكونوا قد وصلوا بعد . وكان الرأي قد استقر على أن أسافر بعربة البريد ، ولكنى لم أجد حصة تقفنى إلى هناك . فاهدأتى السيد المارشال عربة خفيفة ذات عجلتين ، وأعارنى جوادين وحوزيا ريثما أبلغ المحط التالي ، حيث لم أجد عشاء في الحصول على جواد ، بفضل التدبيرات التى كان قد اتخذها .

ولم أكن قد تناولت غدائي على المائدة ، ولا أظهرت نفسى في القصر ، فاجتأت السيدات لوداعى ، في الطابق التسائم بين الطالبين الأرضى والأول (الأتروسول) ، حيث قضيت اليوم كله . وعانقتنى السيدة المارشالية عدة مرات في حزن باد ، ولكننى لم المس في عناقها الحرارة التى كانت قد غمرتنى بها قبل سنتين أو ثلاث . كذلك عانقتنى السيدة دى بوفلير ، ووجهت إلى أعذب القول . وكان ثمة عناق فوجئت به دون توقع . . ذلك

هو عناق السيدة دى ميربوا ، التى كانت هناك ، هى الأخرى ! فان السيدة حرم المارشال دى ميربوا ، سيدة فائرة العواطف إلى أبعد مدى ، شديدة التكلف والتحفظ ، ولا تخلو - كما يبدو لى - من الكبرياء والترفع اللذين يطر عليهما أيتاء أسرة « لورين » . ولم تكن قد أعارتنى - من قبل - أى انتباه . وسواء كنت إذ ذاك ميالا إلى أن أضعاف من قيمة هذا الشرف

غير المرتقب - وقد استخفنى أن لحظى به - أو أنها مزجت حقاً عناقها بقليل من العطف المألوف لدى القلوب الرحيمة ، فأنسى لمست في حركاتها وفظارتها قدراً من الصدق ، بما أحدث في نفسى أبلغ الأثر . وكثيراً ما خيل إلى - عندما كنت أفكر في ذلك ، فيما بعد - أنها كانت على دراية بالحظ الذى قدر لى . فلم تقو على مقاومة إغشاق عابر . إزاء المصير الذى كان يرتقبنى .

أما السيد المارشال ، فلم يفتس ببنت شفة . . وكان في شحوب الموتى . ورغب - في إصرار - في أن يرافقتى حتى المركبة التى كانت تنتظرنى عند حوض المياه . فقطعتنا الحديقة بأسرها معاً ، دون أن نتبادل كلمة واحدة . وكان لدى مفتاح للمقبرة ، استخدمته في فتح الباب ، وبدلاً من أن أشمعه في جبسى بعد ذلك ، رددته إلى السيد المارشال ، دون أن أفوه بشيء . فقتالوه في لهفة مدهشة ، لا أستطيع أن أمنع نفسى عن التفكير فيها كثيراً ، منذ ذلك الحين . ونادراً ما عانيت في حياتى لحظة أهر من لحظة هذا الفراق . وكان عناقنا طويلاً ، صامناً . . فقد كان كل منا يشعر بأنه الوداع الأخير !

وحادثت في الطريق بين « لابار » و « مونمورنسى » ، عربة مستأجرة ، كانت تقل أربعة رجال في ثياب سوداء ، حيونى مبتممين . ومما أتيتنى به تميز - فيما بعد - عن مظهر الضباط ، وساعة وصولهم ، ومسلكتهم . لم يداخلنى أى شك في أنهم كانوا نفس ركاب العربة ، لا سيما وأننى عرفت - بعد ذلك - أن مرسوم إلقاء القبض على « لورين » كان في الساعة

السابعة صباحا ، كما قيل لى من قبل ، وإنما أصدر فى منتصف النهار . وكان لا بد لى من أن امر خلال باريس بأسرها ، ولم تكن ثمة وسيلة للاستتار فى مركبة صغيرة مكتوفة . ورايت فى الطرقات أشخاصا كثيرين ، حيونى شأن من كانوا يعرفوننى ، وإن كنت لم اتعرف على واحد منهم ! . . وفى مساء اليوم ذاته ، انخرفت عن طريقى فى دورة ، لأعرج على (فيلرولى) . . . ذلك لأنه كان على المسافرين الذين ينتفعون بجياد المحطات ، أن يسعوا إلى « حكمدار » المدينة ، فى اليوم . . . وكان هذا امرا محرجا بالنسبة لمسافر كان غير راغب فى أن يكذب ، ولا فى أن يغير اسمه ، ومن ثم فأتنى ذهبت بخطاب من السيدة دى لوكسمبورج لأرجو السيد دى فيلرولى أن يعمل على إعفائى من هذا الالتزام . فأعطانى السيد فيلرولى رسالة لم أقد منها ، لأننى لم أمر بمدينة (ليون) . ولا يزال هذا الخطاب — بأخاطمه — بين أوراقي . ولقد ألح السيد الدوق كثيرا ، كى أتاها ليلتى فى (فيلرولى) ، ولكننى استحسنفت أن أواصل السفر . وبذلك قطعت مرحلتين أخريين ، فى اليوم ذاته .

وكانت مركبتى خشنه ، كما أتنى لم أخط بقدر من الراحة يمكننى من المضى فى الرحيل أياها بطولها . وإلى جانب ذلك ، لم يكن لى من فخامة المظهر ما يمكننى من أن أخطى بالخدمات . ومن المعروف فى فرنسا أن خيل البريد لا تشعر بالوسط إلا عبر كتفى الحوذى . ومن ثم فقد خيل إلى أتنى كنت أستطيع أن استمضى بالسقاء فى عطاء الادلاء والمرشدين ، عن كلمات

وإشارات الوعيد . ولكن هذا زاد الامر سوءا ، فقد ظنوا أتنى أفاق موفد فى مهمة ، وأتنى لم اعتد سوى السير على القدمين ، وأتنى كنت أسافر مستخدما خيل البريد ، للمرة الأولى فى حياتى . ومن ذلك الحين لم أعد أحصل إلا على ضعاف الخيل ، كما أصبحت العوبة الحوذية . وانتهى بى الامر إلى ما كان يجب أن اتبعه من البداية ، فأثرت الصبر والصمت ، وتركتهم ينصرفون وفق هواهم !

وكان لدى ما يصوننى من السأم خلال الرحلة ، إذ أسلمت نفسى إلى الخواطر التى راحت تصور كل ما جرى لى . غير أن هذه لم تكن محور فكرى ، ولا ملتنى ميول غواذى . فان السهولة التى أنسى بها كل سوء انقضى — مهما يكن حديث العهد — ندعو إلى العجب ! . . . ويقدر ما يزعجنى ترتقب المحن التى أتنبئها فى المستقبل ، غاتها لا تعاود ذهنى — بمجرد وقوعها — إلا فى وهن ، ثم تفلأشى دون عناء ! . . . ذلك لأن خيالى القاسى ، الذى يضنى نفسه — بلا انقطاع — فى ارتقاب النوايب قبل أن تحين ، يلبث أن يشئت ذاكرتى ، ويحول دون أن استرجع ذكرى ما انقضى من هذه النوايب . فلا حيلة هناك إزاء ماولى ، ومن ثم فلا جدوى من الانشغال به . والواقع أتنى استنفدت محنى مقدما ، بطريقة ما ، فكلما اشتد عنائى فى ارتقابها ، سهل على نفسياتها . . . فى حين أتنى — على العكس من ذلك — لا أتفك أشغل بالتفكير فى ماضى هوائى ، فأتذكره وأجتره — كما ينبغى أن يقال — إلى شجرة نثر الشطاء . أن استمتع به من جديد عندها يحلو لى . . . واعتقد أتنى بهذا

الطبع السعيد بأننى لم أعرف قط ذلك المزاج الناقص الذى يتخمر فى قلب حقود... من جراء التفكير المستمر فى الإساءة التى حاقت - والذى يعذب نفسه بكل ما يخطر له من شر يريد أن يوقعه بعده... وإذ كنت بطبيعتى حاد المزاج ، غائى أشمر بالغضب ، بل وبالهباج ، فى عنوان اللحظة ، ولكن الرغبة فى الانتقام لم تغفل قط فى مؤادى . فما أقل ما أفكر فى الإهانة ، وما أكثر ما أفكر فى صاحبها ، ولست أفكر فى الضرر الذى تلحقه منه ، إلا تقديرا لما قد ألقاه من ضرر جديد منه ، فإذا ما وثقت من أنه لن يلحق بى مزيدا من الضرر ، فإن الضرر الذى ألحقه بى من قبل ، لا يلبث أن يروح فى إدراج النسيان ! ..

إننا كثيرا ما نوعظ بالصنع عن الإساءات ، وهى غفلة جد بدية ولا ريب ، بيد أنها لا تصلح لى . فانا أجعل ما إذا كان قلبى قادرا على إيواء البغضاء ، لأنه لم يحس بشيء منها قط . .. كما أننى أقل تفكرا فى إغنائى من أن اكتسب فضيلة الصنع عنهم ! .. ولن أقول إلى أى مدى يعذب أعدائى أنفسهم لى يعذبونى . فانا تحت رحمتهم ، ولديهم كل السلطان ، وأنهم ليستخدمونه ! .. على أن ثمة شيئا واحدا فوق سلطانهم ، وأنى لاتحداهم أن يفعلوه . . ذلك هو أنهم لا يملكون - مهما يعذبون أنفسهم بسببى - أن يضطرونى إلى أن أعذب نفسى من أجلهم !

ومن ثم غائى - فى غداة رحيلى - نسيت كل ما جرى - والبرلمان ، والسيدة دى بومبادور ، والسيد دى شوازيل ، وجريم ، ودالمير ، والمقارنين معهم والمقارنات ، حتى اننى

ما كنت لأفكر ثانية غيبى ، لولا الاحتياطات التى كنت مضطرا إلى أن اتخذها . . وواتنى - بدلا من كل هذا - ذكرى أخرى مطالعائى ، فى عشية اليوم السابق على رحيلى . كذلك تذكرت قصائد الرعاة للشاعر « جيسنر » التى ترجمها « هوير » وأرسل إلى نسخة منها متذرين . ولقد راحت هائل التفكير بان تترددان على فكرى . ولبنزجان بشئ الاشكال فى عقلى ، حتى اعتزمت أن أحاول الجمع بينهما ، بأن أعالج موضوع قصيدة « اللابيين وأغرايم » ، على طريقة « جيسنر » . على أن أسلوب قصائد الرعاة بدا - فى بساطته - قليل الملاءمة لموضوع رهيب كموضوع قصيدة التوراة . كما أن من المسم تصور أن حالى الراهنة كانت كثيلة بأن تمدنى بأفكار جديدة تخفف من قتامة الموضوع . ومع ذلك فقد أقدمت على التجربة ، لمجرد التسلية فى مركبى ، ودون ما أمل فى التوفيق . فما أن مدأت حتى ذهلت لسلسلة أفكارى ، والسهولة التى أخذت أعبر بها عنها . وفى ثلاثة أيام ، نظمت الأناشيد الثلاثة الأولى فى القصيدة التى لم ألبث أن انتهيتها فى « هوير » . واعتقد اننى لم أؤلف فى حياتى شيئا يفوقها فيها سادها من رقة مؤثرة ، ومن نضارة اللون ، وطرافة التصوير وبساطته ، ودقة الوصف ، والسذاجة العريقة التى شاعت فى كل شيء . . كل هذا بالرغم من طبيعة الموضوع المخيف ، التى كانت فى جوهرها منفرة . ومن ثم فقد كان لى النفض فى التغلب على هذه العقبة ، إلى جانب الصفات الأخرى . وإذا لم يكن ديوان « لابو أغرايم » هو أفضل مؤلفاتى ، فانه سيظل دائما - على ما قرأتها ثانية ، ولن يتدر لى أن أقرأه مرة أخرى -

فيها إشراقة قلب خال من السخط ، لا يوغره النحس ، بل إنه يجد العزاء في نفسه ، ويستمد العوض والجزاء من دخليته ولو أن جميع أولئك الفلاسفة الذين يتعالمون على الشدائد ولما يمرغوها ، حشدوا ، ووضعوا في موقف كموثني ، وقدم إليهم - في أولى غورات الكرامة والشرف الجريح - مهبة مشابهة لهذه التي أنجزتها ، وسئلوا أن يعكفوا عليها ، لتبدى كيف أنهم سيبادرون إلى التهرب !

وكنيت - عند مغادرتي (مونمورنسي) إلى سويسرا - قد عزمت على أن أذهب للإقامة في (ايفردون) ، مع صديقي القديم الطبيب ، السيد « روجان » الذي كان قد اعتكف هناك منذ بضع سنوات ، والذي كان قد دعاني إلى زيارته . وسمعت في طريقي أن (ليون) ستكون بمنأى عن خط سري « الأمر الذي حال دون أن أمر خلالها . ولكنني من ناحية أخرى - اضطررت إلى أن أمر ببيزانتون ، وهي بلدة محصنة ، ومن ثم فإنها عرضتني لعين المضايقة التي كنت أخشاها في ليون . لذلك قررت أن انحرف إلى اليسار ، وأن أوصل سفري عن طريق (سالان) ، بحجة زيارة السيد دي ميران - ابن أخ السيد دويان - الذي كان يعمل في مصانع الملح ، والذي كثيرا ما تلقيت منه دعوات ملحة لأن أزوره . ووقعت حيلتي ، إذ أنني لم أجد السيد دي ميران ، فاعتبطت لأن هذا جنيني التأخر : فاستأنفت رحلتي دون أن يقول لي أي امرء كلمة واحدة .

وإذ اجتزت حدود (بيرن) استوقفت ، فهبطت من المركبة، وارتفيت على الأرض ، ورحلت أحضنتها وأقبلها . . وهنفت في فرحتي : « أحملك أيها السماء ، يا حامية الفضيلة . . إنني لأظن الآن موثلا للحرية ! » . وهكذا اعتدت - في ثقتي العمياء بأمانتي - أن انحس لما قد يجلب لي الشقاء . ولقد ظن الحوذي المشدود أنني جننت ! . . وعدت استقل المركبة ، فان هي إلا سويغات قليلة ، حتى كنت أحظى بالغبطة النقية العارمة ، التي غيرتني إذ وجدت نفسي في أحضان « روجان » الوفي . آه ! . . لتنتفس السعداء ليضع لحظات ، لدى مضيئي الكريم . فلا بد لي أن استرد شجاعتي وقوتي ، إذ أنني لم ألبث أن احتاج إليهما معا !

وما أسهبت - دون داع - في ذكر تفصيلات كل الظروف التي قدر لي أن أتفكرها ، في رواية الأحداث السالفة . ومع أن هذه الظروف قد لا تبدو جد براقعة ، إلا أنها قد تلقى ضوءا على مجرى الأحداث ، إذا ما لمسك المرء مرة بخيط المؤامرة . مثال ذلك ، أنها وإن لم تبين الفكرة الأولى التي نشأت عنها المشكلة التي سأعرضها ، إلا أنها تساعد كثيرا على حلها !

فلو أننا افترضنا ، أن إقصائي كان ضرورة لا غنى عنها لتنفيذ المؤامرة التي كانت مدبرة لي ، لكان كل شيء مسوقا إلى أن يحدث بنفس الشكل الذي حدث به - تقريبا - لكي يشقى للمؤامرة أن تتم . . أما لو أنشئت كغيره - كما كانت - مموّدي - كما فعلت في بادئ الأمر - فلا بد أن أسبغ الأمر بأن يستولى عليّ ، من جراء الرسالة التي كتبت فيها .

السيدة دي لوكسمبورج ، وبدلاً من أن اضطرب لأضطرابها ..
ولو أنني - بدلاً من البقاء في القصر - عدت إلى سردي ..
واستغرقت في النوم حتى الصباح .. فهل كان سيقتدر لاسر
القبض أن يصدر بالطريقة التي صدر بها ؟ .. إنه سؤال عظيم ،
يتوقف عليه حل أسئلة أخرى كثيرة .. ولن يكون من غير
المجدي - في دراسته وبحثه - أن تلاحظ الساعة التي أنذرت
بان مرسوم القبض على سيصدر عنها ، والساعة التي صدر
فيها فعلاً . هذا مثال غير مصقول - ولكنه محقول - لأهمية
اتفه التفاصيل في عرض الوقائع التي نبحث خلالها عن الأسباب
الدفينة ، حتى يتسنى لنا أن نكتشف هذه الأسباب بالاستقراء
والاستنتاج !



وهفت لي فرحي : « أحبك أيها السماء ، يا حامية الفضيلة » ..

الكراسة الثانية عشرة

هنا يبدأ عمل الدياجير ، التي اتخطب فيها منذ ثمانى سنوآت ، دون أن يتسنى لى - مها تكن حيلتى وجهدى - أن أنفذ خلال الظلام الرهيب . . إننى لأحس - فى غياهب التعاسات التى اكتنفتنى - بإيذاء الصفعات التى توجه إلى : وائى لالمح الأداة المباشرة التى توجهها ، ولكننى لا أقوى على أن أرى اليد التى تصدرها ، ولا الوسائل التى تحركها وتستخدمها ، إن العار والمحن لتتو على ، وكأنها تتساقط من تلقاء نفسها ، دون أن يغلظ إليها أحد . وعندما بفلت قلبى الممزق شيئاً من الأئين - أبدو فى مظهر الرجل الذى يشكو دون ما مبرر للشكوى ، فان مبتدعى دمارى ، ومقتوا إلى الفن الذى يفوق كل إدراك . . الفن الذى استطاعوا به أن يحولوا الراى العام إلى شريك فى مؤامرتهم ، دون أن يحدس الراى العام ذلك ، أو يغلظ إلى نتائجها . . ومن ثم فأننى إذ أروى الأحداث المتعلقة بى ، والوان المعاملة التى عانيت بها ، وكل ما جرى لى - أرائى فى حال لا نمكننى من أن أكتشف عن اليد المحركة ، ولا من أن أعين الأسباب وانا أذكر الأفعال . . فان هذه الأسباب الأولية تلمس جميعاً فى الكراسات الثلاث السابقة ، حيث تكشف كل الالتفاتات التى وجهت نحوى ، والميول المتعلقة بى ، وكل البواعث المستنرة . أما أن أذكر كيف تجمعت هذه الأسباب المتتابعة ، لتخلق الأحداث العجيبة فى حياتى ، فهذا ما لا سبيل لى إلى شرحه وتعليله ، ولو بالحدس والتكهن . . وإذا كان بين قرائى من أوتوا من

كرم النفس ما يحفزهم على الرغبة فى الغوص إلى أعماق هذه المعينات للكشف عن الحقيقة . فليمودوا إلى مطالعة الكراسات الثلاث السابقة بعناية ، وليفيدوا من كل واحة يقرأونها ، ومن المعرفة التى يستخلصونها منها ، فى متابعة الوقائع التى تليها . . وليرجعوا القهقرى من مكيدة إلى مكيدة ، ومن عميل إلى عميل ، حتى يصلوا إلى المحركين الأوائل لكل شىء . . وإنى لأعرف موقفاً ما سوف تنتهى إليه أبحاثهم . ولكنى ناله اتخطب فى الطريق المظلمة المنعرجة الضارية فى أعماق الأرض ، حيث قادونى :

* * *

تعرفت - خلال إقامتى فى (أيفردون) - جميع أفسراد أسرة السيد (روجان) ، ومنهم ابنة أخيه السيدة « بوى ديلاطور » ، وبناتها اللاتى تعرفت أباهن فى (ليون) كما أحسبى قد ذكرت من قبل (١) . وكانت السيدة قد جاءت إلى (أيفردون) لتزور عمها وشقيقاتها . ولقد أطربتنى ألفتها الكبرى - التى كانت فى حوالى الخامسة عشرة من عمرها - بهدارتها الواسعة وشخصيتها الرائعة . وسرعان ما ارتبطت بالألم والابنة ، بأرق روابط الود ، وكان السيد روجان قد اعتزم أن يزوج الأخيرة من ابن أخت له « كولونيل » ، كان قد تجاوز السن المعقولة ، وكان يوليتى - هو الآخر - أعظم الود . ولكن . . بالرغم من تحمس العم لهذا الزواج ، ومن أن ابن الأخ كان راغباً فيه ، ومن أننى اهتمت - فى حارة - بأن أرضى كلا

منهما ، إلا أن الفارق الكبير في السن ، والفقر المسف من ناحية الفتاة ، حملتني على أن أصارن الأم في عرقلة هذا الزواج ، فلم يقدر له أن يتم . وما لبث الكولونيل أن تزوج من الأنسة « دبلان » ، وهي من تربيائه ، وكانت سيدة ذات جمال وخلق يروقان لفرادى ، وقد جعلته أسعد الأزواج والآباء . ومع ذلك فإن السيد « روجان » لم ينس لي قط أنني عارضت رغباته . في هذه المناسبة . ويمعزني في ذلك يقيني من أنني أدبت ... سواء نحو أو نحو أسرتي - أقدم وأجابت الصداقة ، وهو ما لا يتطلب من المرء أن يجعل نفسه مرغوبا على الدوام « ولكنه يتطلب منه أن يكون ناصحا فلا يشير دائما إلا بما فيه الخير !

ولم يطل بي الشك فيما قد ينتظرني من استقبال في (جنيف) . إذا أنا ملت إلى العودة إليها ، إذ أن كتابي أحرق هناك . كما أصدر مرسوم بالقبض على في ١٨ يونيو ، أي بعد تسعة أيام من ذلك الذي أصدر في باريس . ولقد حشدت في المرسوم الجنيفي كثير من السفافات التي لا يصحتها العقل ، كما أن المراسيم الكنسية انتهكت فيه بشكل واضح ، حتى أنني لم أتم أن أصدق الأنباء الأولى ، التي تفاهت لي عنه . فلما أدبت فعلا ، رحمت أرتجف فرقا من أن يؤدي مثل هذا الانهياك المكشوف الصارخ لكل القوافين ، إلى إثارة الرأي العام ، وإلى قلب جنيف رأسا على عقب ! .. وما كان لي أن أنزعج ، فإن كل شيء ظل عادنا ! .. وإذا كانت بعض الاضطرابات قد سرت بين الناس ، فانها كانت موجبة ضدي .. فقد عومت - في جميع المسامعات والتقولات التي انتشرت بين الرأي العام

في المدينة - كما يعامل الظليذ الذي ينذر بالضرب بالسياط ، لأنه لم يخسن تلاوة درسه الديني !

ولقد كان هذان المرسومان « أيذا باتطلاق صرخة اللعنة التي تعالت ضدي في أوروبا بأسرها ، مصحوبة بهياج لم يسبقه مثل . فاذا جميع النشرات الرسمية ، والصحف ، والكتيبات تردد أظلع إشارات التنبيه إلى الخطر . وإذا الفرنسيون بوجه خاص ، ذلك الشعب اللطيف ، المؤدب ، الكريم ، الذي يفخر بقوة بيله إلى الخير ورعايته للمكوبين .. إذا بهذا الشعب ينسى فجأة فضائله المحبة إليه ، ويمتاز على ما عداه بمسدد وقذاعة الإهانات التي تبارى في قذافي بها ! .. فرميت بأفني كافر ، زنديق ، معتوه ، متهوس ، وحش كاسر ، ذئب .. وشن 'المعلق في « جورنال دي تريفو » - صحيفة الجيزويت - على سماري الوحشي المزعوم حيلة إضافية لم تشن إلا بسعاره هو . وفي وسعك - بليجاز - أن تقول إن كل كاتب في باريس ، أصبح يخشى أن يصطدم بالبوليس - مقدما ينشر شيئا في أي موضوع - إذا هو أغفل أن يحشوه ببعض الإهانات ضدي ! .. وأوشكت - في بحثي عبثا عن سبب هذا العداء الشامل - أن أعتقد أن العالم بأسره قد أخبل . يا للعجب ! .. أبيت منقح « السلام الدائم » الفرقة والشقاق ! .. أليكون مؤلف « استقف من سافوا » كائرا ؟ .. أليكون كاتب « هيلويس الجديدة » ، ذئبا ، وكاتب « اميل » ملثما ! .. أو « يا الله ! .. فماذا كنت أصبح إذن ، لو أنني نشرت كتاب « العقل » ، الذي وضعه مونتسكيو ، ودعا فيه إلى التمسك بالعقل والعقل » أو أي

مؤلف آخر على شاكلته ؟ . . ومع ذلك ، فنى عنقوان العاصنة التى انفجرت على رأس مؤلف هذا الكتاب ، لم يضم الراى العام صوته إلى صوت ظالميه ، وإنما انتقم للمؤلف بها أهاله عليه من بديع . . فمن لى بمن يقارن بين كتابه وكتابه ، والاستقباليين المختلفين اللذين استقبلا بهما ، والمعاملتين اللتين عمل بهما المؤلفان فى مختلف دول أوروبا ، ثم يعثر خلال هذه الاختلافات على اسباب لها تقنع أى امرئ سليم الإدراك ؟ . . هذا جل ما أطلب ، ولن أزيد !

ووجدت من الراحة فى ! أيفردون ! ما جعلنى أقرر المقام هناك ، مستجيباً للالاح الحار ، الذى أنهال على من السيد روجان وأسرته . كذلك شجعتنى السيد « دى موارى دى جانجان » - القائم على الأمن والعدالة فى هذه المدينة - على أن أبقى فى ظلال سلطانه ، بما أبداه لى من افضال . وأمر « الكولونيل » كل الاصرار على أن اسكن مبنى صغيراً مستقلاً ، بين غناء داره وحديقته . وما إن قبلت ، حتى انصرف إلى نأتيه وتجهيزه بكل ما كان ضرورياً لحاجاتى المتواضعة . وكان « روجان » - صاحب الراية (١) - شديد الحرص على ملازمتى ، حتى إنه لم يكن يفارقنى طيلة النهار . ولقد كنت أقدر مكرماته كل التقدير ، ولكننى كنت أضيق بها أحياناً !

(١) لقب كان يطلق على أى اقطاعى أوتر عدداً معيناً من رقيق الأرض ببيع

وكان موعد استقرارى فى المسكن الجديد قد حدد ، وكتبت إلى « تيريز » كى تلحق بى ، عقلمها تمى إلى أن زويمة ثابتة فى (بيرن) ضدى ، وعزيت إلى غلاة المتدينين ، ولم يقدر لى قط أن اكتشف منشأها . فلقد هب مجلس الشيوخ - دون أن يعرف من الذى استنهضه - وبدأ أنه غير راغب فى أن يدعى فى سلام « فى عزلى . وما أن سمع حاكم المدينة بهذا الهياج ، حتى كتب فى صالحى إلى عدد من أعضاء الحكومة ، ولأهمهم على تعصبهم الأعمى ، وعاب عليهم الرغبة فى أن يأبوا على رجل تدبر مظلوم « الماوى أذى يجده كثير من الأشرار فى ولايتهم . . . ولقد حدثس ذوو العقول الحصيفة « أن تكون حرارة لومه قد أهابت الأفكار ، بدلا من أن تهدئها . ومهما يكن الأمر ، فإن مكافئته وبلاغته لم تستطعا دفع الصدمة . وما أن تهاوت إليه بادرة من الأمر الذى كان عليه أن يماثلنى بمقتضاه ، حتى أوعز إلى به مقدماً ، فقررت ألا افتظر هذا الأمر « وأن أرحل فى اليوم التالى . وكانت الصعوبة تتثل فى معرفة المكان الذى أذهب إليه . فقد كانت (جنيف) و (قرنسا) مختلفتين فى وجهى ، وقد رأيت - مقدماً - أن كل حكومة تقلد جاريتها ، فى مثل هذه المسألة !

واقترحت السيدة « بوى ديلاتور » أن أقيم فى بيت خال ، ولكنه مكتمل الاثاث ، كان ابنها يمتلكه فى قرية (موتير) ، فى (فال دى ترانير) بمقاطعة (نيوشاتيل) . ولم يكن على سوى أن اجتاز أحد الجبال ، كى أصل إلى هناك . ولقد كان الاقتراح جد مناسب ، إذ أتتى خليق بأن أجلب منى العظيمة -

بطبيعة الحال - في اراضي ملك بروسيا ، حيث لا يمكن اتخاذ الدين ذريعة لذلك . بيد أن عقبة خفية - لم يكن من اللائق ير ان اذكرها - حيلتني على التردد . ذلك ان حب المسدالة - الذي يتغلغل في قلبي ويعمره دائما ، اتحد مع حبي الخفي لفرنسا ، وأوجها إلى بنفور من ملك بروسيا ، السذى لاح لى انه - من حيث المبادئ والسلوك - كان يدوس كل اعتبار للقانون الطبيعى والالتزامات الإنسانية ، وقد كان بين اللوحات ذات الاطارات ، التى كانت تزين جدران شرفتى في امبورنسى ، صورة لهذا الأمير ، كتبت تحفا بيتين من الشعر « هذا ختامها :

« انه يفكر بعقل فيلسوف ، ويتصرف كملك » .

هذه الشطرة التى كانت خليفة بان تكون مديحا بديعا - إذا كتبها اى قلم آخر - كانت من قلمي توحى بمعنى غير مبهم ولا غامض ، لا يتضح إلا بالشطرة التى كانت تسبقها (١) . وكان الشيبالييه دى لورنيزى قد نقل هذا البيت الشعرى وكتبه لدالمير . وما كان لدى اى شك في أن « دالمير » قد عنى بأن يستغله ، وبأن يرسله قبلى إلى هذا الأمير ؟ . ولقد ضاعفت من هذا الذنب بفقرة في « اهل » تبدى بجلاء شخصية الملك الذى كنت أتمثله تحت اسم « ادرامتى » ، ملك « داوميتيان » .

(١) تلك هى : « الشهرة والمنفعة .. هذان هما ربه وقلوبه » . ولم

يكن « روسو » قد كتب هذه الشطرة فوق اخنبا - تحت الصورة - وإنما كتبها خلفها !

ولم نفت هذه التورية التقاد ، إذ رددتها السيدة دى بوفلير امامى مرارا . ومن ثم فقد كنت واثقا من أن اسمى قد سجل بمداد احمر في سجلات ملك بروسيا ، وإذ كنت أرى - إلى جانب ذلك - ان هذا الأمير قد اوتى ما جرؤت على أن أعزوه إليه من مبادئ ، لذلك لم يكن من سبيل لكتابتى ، ولا لصاحبها ، بأن ينالا منه رضى . . فمن المعروف ان اهل الخبث والطفافة اعتادوا أن يكتنوا لى دائما أشد الكراهية القائلة ، بمجرد اطلاعهم على مؤلفاتى ، ولو لم يعرفونى معرفة شخصية !

ومع ذلك ، فاننى لم البث ان أقدمت على وضع نفسى تحت رحمته « وقد خبل إلى انفى لن أتعرض لكبير خطرس ، فقد كنت أعرف ان المشاعر الخسيسة لا تنهك سوى ضعاف الرجال ، ولكنها لا تظهر بسلطان يذكر على النفوس ذات الطابع القوى ، كتلك التى طالما لمستها في شخصية هذا الأمير . وقدرت أن من سياسته في الحكم ، ان يظهر نفسه - في مناسبة كهذه - بمظهر الشهم العالى النفس . . وحكمت - لنفسى - بأن الانتقام الخسيس السهل ، لا يمكن أن يعدل في نفسه - ولو للحظة واحدة - حب المجد والشهرة . ووضعت نفسى في مكانه ، فلم أر من المستحيل عليه أن ينتهز الظرف لكى يثقل بكرمه كاهل رجل جرؤ على أن يسعى الظن به . ومن ثم فقد سميت إلى الإقامة في (موتير) ، وأنا على النفس بثقة خيل إلى أنه قد بين بأن يدرك قيمتها . . قبل انفسى » . إذا

من قبل ، يجب أن يصبح كرما وفضلا من ناحيتها ، بعد اليوم .
وإذا كان ولاؤها قد ظل في حصانة ضد محن وتعباتى ، فأنها
ولا بد كانت شديدة الأسى بسبب هذه المحن والتعبات .
وما كان أساها ليزيدنى إلا هبوا . أما إذا كانت مصائبى قد
خفقت من عواطفها نحوى ، فلا بد أنها مسوقة إلى أن ترى فى
بقائها على ولاء مستمر لى ، تضحية من ناحيتها . وبدلا من
أن تشعر بالمتعة التى كنت أحس بها إذ أشركها معى آخر كسرة
من الخبز لدى ، فإنها كانت خليقة بأن تزداد شعورا ببقية
تضحياتها إذا قدر لها أن تتبعنى إلى حيثما كان القدر يسوقنى !

ومن الواجب أن أقول : إننى لم أستمر قط على أخطاء «ماما»
ولا على أخطائى . ومن ثم فلا يجدر بى أن أبدي كثير محابة
لثريز ، بدورها . وبقدر ما يسرتنى أن أكرم شخصا ملأها ،
جد عزيز على نفسى ، فأتى ما كنت لأبغى التستر على عيوبها ،
إذا اعتبر تحول عواطف القلب - التحول غير الإرادى - عيبا .
ذلك أننى كنت قد لاحظت من أمد طويل ، أن ودها لم قد فت .
وشعرت بأنى لم تعد لى كما كانت فى أيامنا الوثنية . وقد
زادنى إحساسا بذلك ، أننى ظلمت دائما على حالى نحوها .
ونظنت - مرة أخرى - إلى شعور بالاستياء ، كذلك الذى
سبق أن ظلمت إليه عندما كنت مع «ماما» ، وكان له عين
الفنائج . وليس لنا أن نبحث عن الكمال الذى لا وجود له فى
الطبيعة ، فإن هذا هو عين الشعور الذى كان من المحتمل أن
يرادو أية امرأة أخرى ، مهما تكن

وما قدر للتصرف الذى اتخذته .
مما يكن

رفع جان جاك نفسه إلى مرتبة كوريولانوس ، فهل يرضى
فردريك لنفسه بأن يكون أدنى من قائد الفولك ؟ (١)
ولقد رغب الكولونيل روجان - فى إصرار - فى أن يجناز
الجيل معى ، ويضمن إلى استقرارى فى (مونتير) . ولم تنهج
لوصولى اخت الزوج السيدة «بوى دى لاتور» - وتدعى
السيدة جيراردييه - إذ كانت تجد البيت ، الذى كنت مونسكا
أن أشغله ، أكثر سلامة لها هى . ومع ذلك فأنها تركت
أسقولى عليه ، فى أدب وتلفظ ، وأصبحت أتناول وجباتى
لديها «إلى أن وصلت «تريز» وانتظمت مكناى الصغيرة
وحياتى .

وكنتم - منذ رحيلى عن (مونتورسى) - قد أحسست
ببقين بأننى سأغدو ، من ذلك الحين ، جواب آفاقى ، هائبا فى
الأرض . ومن ثم فأتى كنت مترددا فى السماح لثريز بأن
تلتحق بى ، وإن تشاركنى حياة النجوال التى رأيت أنه قد
تضى على بها ! . وشعرت بأن الروابط بيننا خليقة بأن تتبدل
من جراء هذه الكارثة ، وإن ما كان كرما وفضلا - من ناحيتى -

(١) كان كوريولانوس قائدا رومانيا أدى لوطنه أجل الخدمات فى القرن
الخامس ، ولكن مزاحميه أوغروا صدور الشعب ضدّه . فمر لاتفا بلبسائل
«الفولك» : المعادية للرومان . وأتى كان قد هزمها من قبل . وقد جيت
منها لحاصر روما وكاد يدمرها لولا خراعات الشعب التى حدثت لها إليه أمه
وزوجته .

قد لاح لى متمشياً مع العقل والمنطق - أن يدع قلبى فى سلام .
 فبينما كنت أفكر فى كتابى : « رسالة فى التربية » ، شعرت
 بأننى قد أهملت واجبات لا حجة لى فى إهمالها ولا عذر .
 وما لبثت ندمى أن اشتدت ، حتى أنه انتزع منى - تقريباً -
 اعترافاً علنياً بذنبى ، فى بداية كتاب « اميل » . وقد ظل هذا
 الندم ملحوظاً بعد ذلك « حتى ليفقد من المدهش حقاً » أن
 ينهى أحد باللائمة على ، بعد مثل تلك الفقرة . على أن مركزي
 ظل - فى ذلك الوقت - على حاله . . بل إنه تفاقم بسبب
 بغضاء أعدائى ، الذين لم يكونوا يرجون سوى أن يعثروا لى
 على ذنب . ومن ثم فأننى خشيت أن أكرر الذنب . . ولكى
 لا أتعرض لارتكابه ، أثرت أن أقضى على نفسى بانتهاج زهد
 شديد ، حتى لا أعرض تيريز إلى أن تجد نفسها - مرة
 أخرى - فى نفس الموضع (١) .

وإلى جانب هذا ، كنت قد لاحظت أن معايشرة النساء كانت
 تؤثر على صحتى تأثراً محسوساً . . ولقد أدت كل هذه
 الأسباب إلى أن عقدت عزمى على أمور لم أكن أوأظب على
 اتباعها فى بعض الأحيان ، إلا أننى ازدددت إطراداً فى الدأب
 عليها منذ سنوات ثلاث أو أربع . وفى هذه الفترة بالذات ،
 شعرت بالبرود يذب فى عواطف تيريز . ولقد ظلت على وفاء
 لى ، عن واجب وليس عن حب . وكان لابد من أن يلغى هذا

(١) أى أنه لم يعد يعاشر تيريز معايشرة الأزواج - حتى لا تدخل ثمرة نفسه

فى موضع المذهب مرة أخرى !

ظلاً على بهجة تعاشرنا ، مخيل إلى أنها فى وثوقها من اننى
 ساواصل رعايتها أينما كنت ، تؤثر أن تظل فى باريس ، على
 أن تهيم بى فى أرجاء الدنيا ! . . ومع ذلك ، غاتها أبدت كثيراً
 من الألم عند فراقنا ، وانزعجت منى وعوداً مقلظة بأن نصل
 شبلنا من جديد ، وقد عبرت عن هذه الرغبة - منذ رحلى -
 للسيد الأمير دى كونتى ، وللسيد دى لوكسبورج ، بحرارة
 لم تجعل من العسر على أن أجد الجراحة على أن أحدثها عن
 الانفصال نحسب ، بل إننى لم أكن أقوى على أن أفكر فى ذلك .
 ومن ثم فما أن شعرت فى قرارة فؤادى بمدى استحالة
 استغنائى عنها « حتى أصبحت لا أفكر إلا فى أن ادعوها ، دون
 ما أرجاء . ولهذا فقد كتبت إليها كى تاتى !

وجاءت . . ولم يكن قد انقضى شهران على فراقى إياها ،
 ولكنه كان الفراق الأول بعد سنوات طويلة ، فشمع كل منا
 بقصوته مضاعفة . وكما اهتز قلبانا عندما نعانقنا ! . .
 ويا لمعزوبة دموع الفرح والحنان ! . . لكم ارتوى منها فؤادى !
 . . فلماذا لم يتج لى أن أذرف منها بحوراً ! !

وكتبت - عند وصولى إلى (مونتير) - قد كتبت إلى
 'اللورد كيث، مارشال ايقوسيا (اسكتلندا)، وحاكم نيوشاتيل،
 أنبئه بأننى قد لفت لأجناً بالأرض التى تخضع لسلطانته ،
 واسأله أن يبسط على حمايته . . وقد أجاب بالكره المعروف
 عنه ، والذي كنت أتوقعه منه . ودعيت لى أن أؤمره ، فذهبت
 فى صحبة السيد مارتينييه - سيد ضيعة (التي تسمى ترافا -

الذي كان يخطئ بمكانة رفيعة لدى سعادته . وكان لوقار مظهر هذا السيد الأيقومى الجليل الصالح ومهابته ، أثر في غلبى . حتى لقد كانت تلك اللحظة بالذات ، بداية ود حار بيننا ، ظل دائما على قوته — بالنسبة لى — وكان جديرا بأن يظل كذلك ، بالنسبة له ، لولا أن الفادرين الذين خرمونى كل عزاء في الحياة « استغلوا غيابى وكهولته ، فشوهوا من امرى لديه »

وكان جورج كيبث — مارشال ايقوسيا بالوراثة ، وشقيق الجنرال كيبث الشهير « الذى مات ميتة مشرفة ، في أعقاب حياة مجيدة — قد هجر بلاده في شبابه ، إذ قضى عليه ، دون محاكمة ، لولائه لآل سيتورات . الذين لم يلبث أن عافهم لما لفاه لديهم من روح ظالمة طاغية ، كانت دائما طابع حكمهم . ولقد أقام زمنا طويلا في اسبانيا ، ولكن جوها لم يظلب له . وانتهى الأمر إلى ما انتهى بأخيه من قبل ، فاربط بملك بروميا ، الذى كان خبيرا بالرجال ، والذى كان يطلقاهم بها هم به جديرون . ولقد تلقى الجزاء وانبا على هذا الاستقبال ، بما أداه له المارشال كيبث من خدمات جليلة ، وبما هو آئمن من هذا . . وأعنى بذلك ود السيد اللورد المارشال . فما كان هذا الرجل الجليل ، المغم بالحرية والكرامة ، والذى أوتى نفسا كبيرة ، لينحنى لإلربةقة الصداقة واللود . على أنه في احتناكه للصداقة كان بسف ، إلى درجة أنه لم يعد يتطلع إلى غير « نردريك » ، مذ تعلق به . ولقد عهد إليه الملك بشئون هامة ، وأوفده إلى باريس وإلى اسبانيا ، حتى إذا رآه — في النهاية — قد طعن في السن « وأصبح في حاجة إلى الراحة ، انعم عليه

بحكم « نيوشاتيل » . حيث راح يقضى ما تبقى له من عمر في عزلة ، وقد وجد في إسعاد أهل هذه الولاية مهمة مستعذبة ! أما اهالى نيوشاتيل — الذين لم يكونوا يفرمون بغير المظاهر والفسايف ، والذين لم يؤمنوا القدرة على أن يحكموا على حقائق الأشياء والرجال ، والذين كانوا يولعون بالإطالة في الحديث — فانهم حين رأوا الرجل هادئ النفس ، بعيدا من النظار ، اخذوا بساطته على انها ترفع ، وصراحتة على انها غلظة ، وإيجازه في الكلام على أنه غباء ، وثاروا على تدابير وجهوده الرامية إلى الخير ، لأنه — في رغبته في أن يكون نافعا ، دون ما تشقى أو من — لم يعرف كيف ينلق القوم الذين لم بقدره حق قدره . فعنى قضية القس — « بيتيبير » — الذى اضطهده زملاؤه من رجال الدين ، لأنه أبى أن يؤمن أنهم يلعمون إلى الأبد « وقف اللورد في وجه ما كان القساوسة يمارسونه من استغلال ، فاذا بهم يؤثبون عليه كل البلاد التى كان يعمل من أجلها . ولم يكن هذا الهياج الآخر قد سكن تماما ، في آونة وصولى إلى هناك . إذ كان اللورد معتبرا كرجل منسحب برأيه ومعتد به — على الأقل — وكانت هذه أدنى الاتهامات التى كان يرمى بها إلى الظلم !

ولقد كان أول شعور خالجنى — إذ أبصرت هذا الشيخ الوقور — هو الاشتياق على هذا الجسد النحيل « الذى انهكته الشيخوخة . ولكننى لم اكد أرفع عينى إلى تلك الأسرارير القوية ، المريحة « النبيلة ، حتى شعرت باحترام ممتاز بالثقة يستولى على ، ويطنى على كل إحساس آخر . ولقد رد على التحية الموجزة التى رغبته اليه — حين تبيت نسي —

بأن تحدث عن أمر آخر ، وكنتنى كنت معه منذ أيام ثمانية . بل أنه لم يأمرنا بالجلوس ، فظل سيد الضيعة ، ذو الثياب المتشاة ، واقفا . أما أنا ، فقد رايت في نظرة اللورد الحادة ، واللطيفة - في آن واحد - عطفا لم أدر كنهم ، أشعرنى بارتياح وطمانينة ، فإذا بى أشاطره أريكنه - في غير ما كنته - فاجلس إلى جانبيه . وأتركت من اللهجة الأليفه - التى ألزمها فوراً - أن هذا النحر منى ، صادف قبولاً لديه ، وأنه قال لنفسه : « هذا ليس على شاكلة أبناء نيوشاتيل ! » .

ميا له من أثر غذا انبعث عن شخصية كبيرة غدة ! .. وفى السن التى يفقد فيها القلب حرارته الطبيعية ، شعرت بقلب هذا الشيخ الطيب بشيع نحوى دفء ، بدرجة أدهشت كل امرئ . ولقد جاء لزيارتي في (موتير) ، بحجة سيد السماني ، نقضى يومين ، دون أن يمس بتدقيق !

ونوطسدت بين الأمر وبينى صداقة - فهذه الكلمة الصحيحة - حتى لم يعد بوسع أحدها أن يستغنى عن الآخر . وكان قصر (كولومبييه) - الذى اعتاد أن بقيم فيه ، في الصيف - على ستة فراعسح من (موتير) ، فكننت أذهب في كل خمسة عشر يوماً - على الأكثر - لأقضى هناك أربعاً وعشرين ساعة ، ثم أعود بقلب ملئ بالأسير دائماً ، وكنتنى كنت في حج . ومن الحق أن الأساس الذى كنت أعدها في طريقى من (البرميتاج) إلى (أوبون) - من قبل - كانت تختلف عن هذه التى كنت استثمرها في عودتى من (كولومبييه) إلى (موتير) ، بيد

أنها لم تكن تفوق هذه لطفاً وعذوبة . فكم من دموع كنت كثيراً ما اتفقا - في طريقى - حناناً ، إذ أفكر في المكرمات الأبوية ، والفضائل الحبية ، والفلسفة الرقيقة التى أوتيتها هذا الشيخ الجليل ! .. واعتدت أن أدعوه أبى ، فكان يدعونى ابنه . وأن هذين التذائين المستعذبين ليوحيان - إلى حد ما - بفكرة عن المودة التى وحدث بيننا ، ولكنهما لا يصوران مدى حاجة كل منا إلى الآخر ، والرغبة في أن يظل قريباً مستمراً . وراح يصر على الرقبة في أن أقيم بقصر (كولومبييه) ، وأخذ يستحثنى طويلاً على أن أتحذ الجناح الذى كنت أنزل به مسكناً لى ، ولكننى - في الالة - أنبأته بأننى كنت أنعم بمزيد من الحرية في مسكنى الخاص . وأننى كنت أؤثر أن ألتق عمري في السعى لزيارته . فارتاح إلى صراحتى ، ولم يمد إلى إثارة الموضوع . أواه ، يا مولاي الطيب ! .. أواه ، يا أبى الكريم ! .. لكم يعتز قلبى - حتى اليوم - كلما تذكرك ! .. أه ، يا للقساء الغلاظ ! .. أية ضربة أنزلوها بى إذ لغرتوا بيننا ! ولكن ، كلا ، ثم كلا ، أيها العظيم . .. إنك اليوم - وستظل دائماً - كما كنت من نفسى ! وإذا كانوا قد غرروا بك ، إلا أنهم لم يحاولوا قط (١) !

ولم يكن اللورد المارشال مبرءاً من الميوب ، فهو إنسان ،

(١) من الصحيح أن اللورد المارشال ، كان وثيق الصلة بديوم ، ومن ثم

لحقه تأثير للأخطاء التى ارتكبها روسو . نعم ، لكن ، مثل سائر الناس ، لم يرد روسو برغم ذلك ، حقاً أنه أعداء قبل يومه . وبعد ذلك ، في يومه

١٧٧٨ ، سلفاً روسو سنة أسابيع - إلى أن كان قد مات .

وإن كان حكيمًا ! .. ومع أنه أوتى أشد العقول قدرة على الفوص في أعماق الأمور ، وأرق أسلوب يؤتاه بشر ، وأعرق بعارف الإنسان ، إلا أنه كان يستسلم لتغريب الغير به ، ولم يكن خداعه ليستعصى عليهم .. كان ذا مزاج غز ، فقد كان يشوب سر مقله شيء من الغرابة والطرافة . كان يبدو عليه أنه ينسى أولئك الذين كان بصره يقع عليهم في جميع الأيام . ثم يذكرهم في اللحظات التي لا يكاد يفكر فيهم خلالها . وكانت التفاتاته تبدو في غير مواضعها ، وهداياه تمنح جزأنا ، دون ما مراعاة لمناسبتها ، فهو يبعث أو يفتح ما يخطر له عفو اللحظة ، غير حائل بمعلم قدر الهدية ، أو ببخس قيمتها . ولقد قدم إليه يوما شاب من (جنيف) « كان راغبًا في العمل في خدمة ملك بروسيا ، فبدلاً من أن يزوده اللورد بخطاب ، دفع إليه بكيس صغير مليء بالبالزلاء ، وعهد إليه بأن يسلمه إلى الملك الذي لم يكد يتسلم هذه التوصية المحببة ، حتى أتم على حاملها بمنصب ! .. إن لهؤلاء العباقرة الأجلاء لغة خاصة ، لن يقدر للعقول العادية أن تفهمها ! .

وما كانت هذه التصرفات الطريفة ، التي تشبه نزوات الحسنة ، لتزيد اللورد الرشال إلا مكانة ، ولقد كنت متأكدًا - ووجدت فيما بعد الأدلة الكافية - على أن هذه التصرفات لم تكن لتؤثر أي تأثير على أحاسيسه ، أو على الاهتمام الذي تفرضه عليه الصداقة في جلائل الأمور . ولكن من الصحيح أنه في تفضله ، كان يكشف عن نفس هذه الغرابة التي تخالط مسلكه . ولن أذكر سوى مثال واحد للدلالة على مسالة نافهة

القبية كهذه . ذلك أنه لما كانت الرحلة من (موتير) إلى (كولومبييه) أشق من أن أقطعها في يوم ، فأننى اعتدت أن أقسمها إلى شطرين . فكانت أشرع فيها بعد الغداء ، وأقضى الليل في (برو) ، القائمة في منتصف الطريق . وكانت لصاحب الفزل - ويدعى « ساندوز » - حاجة في برلين ، يعلق عليها أهمية كبرى . فوجدتني أن أسأل صاحب السعادة أن يطيها له باسمه . ووافقت عن طيب خاطر ، فاصطحبته ، وتركته في الحجرة الخارجية ، ثم ذكرت مسأله للورد « الذي لم يرد بشيء ! .. وانفضى الصباح . وفيما كنت أقطع البهو « في طريقى إلى الغداء » رأيت « ساندوز » المسكين ، وقد أنهكه الانتظار . وخطر لى أن اللورد قد نسي أمره ، فعدت إلى الحديث عنه قبل أن يجلس إلى المائدة . ولكنه لم ينبس بكلمة ، كما فعل من قبل ! .. واشتفيت من مسلكه أنه كان يوحى بأننى قد تجاوزت حدى في مصابقتها ، فلذت بالصمت ، وأنا أرثى لساندوز المسكين في سريرتى ! .. وشد ما كانت دهشتى حين قابلنى في عودتى - في اليوم التالي - بشكو دافق لما أتاحة له صاحب السعادة من كرم الوفاة ، وشهى الطعام ، فضلاً عن تكفله بأوراقه . وبعد ثلاثة أسابيع ، أرسل إليه اللورد الوثيقة الرسمية التي كان يسمى وراءها ، وقد أعدها الوزير ووقعها الملك .. كل هذا دون أن يبدي أقل رغبة في الحديث إلى ، ودون أن يرد على أو عليه بكلمة واحدة بصدد هذا الأمر الذي خيل إلى أنه كان غير راغب في أن يتكفل به !

ويودى إلا أكتب عن الكلام عن « جورج كيبث » ، سنة تواتينى آخر ذكرياتى المسعيدة ، أمة عبرى عنه يكن سوى

هموم وشجون تمتص القلب . ولشد ما تبعث ذكراها الأسى في نفسي ، فهي تواتبني مضطربة مهوشة ، حتى ليمز على أن احتفظ بانتظام سيقاق تصتي ، ومن ثم غساضطر — منذ الآن — إلى أن أسوقها عفوا ، وحسب ما تخطر لي ، لا حسب ما وقعت !

* * *

لم يطل بي أمد القلق بشأن المكان الذي لجأت إليه ، بفضل رد الملك على اللورد المارشال الذي وجنت فيه — كما يسهل الحدس — محاميا بارعا . فان جلالة الملك لم يقر ما جرى تحسب ، بل إنه كلفه — كما ينبغي أن يقال — بأن يمنحني اثني عشر « لوى » . وإذ شعر اللورد الطيب بالخرج من مهمة كهذه ، ولم يدر كيف ينقذها بنفسه و تطلب ، سعى إلى تخفيف ما في تنفيذها من جرح لشعوري ، بأن حول النقود إلى حاجيات مادية ، فاشار إلى أنه تلقى أمرا بأن يزودني بالخشب والفحم اللازمين لي في بداية استقرارى في المسكن الصغير . بل إنه أضاف إلى هذا — وربما صدر في ذلك عن إعزاز من نفسه — بأن الملك سيسر بأن يعمل على بناء منزل صغير لي ، وفق هواى ، إذا أنا اخترت الموقع . ولقد اثر هذا العرض الآخر في نفسى أبلغ تأثير ، وانسانى رذالات الآخرين . وبدون أن أقبل أيا من الهبتين ، رحت انطلق إلى غوردريك كراع لى وحام . فملت إليه بولاء صادق ، حتى أتى اهتمامت بسميته ، فوجدت — منذ ذلك الحين — كثيرا من الظلم يشوب انتصاراته . وعندما عقد الصلح — بعد ذلك بقليل — أعلنت

اغتباطى بزيينات مغرلة الجمال ، تمثلت في جبل من زهور الغار زينت به الدار التي كنت أقيم فيها ، وانفتحت عليه — بدافع من الانتقام لكرامتى « في الواقع — مبلغا يوازي ذلك الذى أراد أن يمنحنيه .

وخيل إلى ، وقد استتب السلام ، وأصبح صيت الملك الحربى والسياسى في أوجه ، انه لن يلبث أن يسعنى إلى الحصول لنفسه على صيت من نوع آخر ، وذلك بإنعاش ولاياته . فيمكن للتجارة والزراعة من أن تتسعا ، ويستصلح الاراضى ويممرها بخلق جديد ، ويحافظ على السلم مع جيرانه . ويفقد داعية النوم في أوربا ، بعد أن كان مصدر الذعر . . كان يوسعه أن يفقد السيف دون أن يتعرض لخطر ، وهو مطمئن إلى أنه لن يضطر إلى أن يشهره من جديد . فلما رأيت انه لم يخفى من تسلحه ، خشيت أن يسىء استغلال مميزاته ، وألا يضى في طريق العظمة إلا إلى متقصفه . فجزوت على أن اكتب إليه بهذا الصدد ، متخذا أسلوب الالفة — وهو خير ما ينتهيج لإرضاء الرجال الذين بن نوعه — حتى يبلغ مسمه صوت الحق المقدس ، الذى لا يطبق سماعه سوى قلة من الملوك ! . . وما استبحت هذا لنفسى إلا فى الخفاء ، وفيها بيتنا غلط ، فلم أشرك احدا ، ولا سيدى المارشال ، الذى ارسلت إليه الخطاب الموجه إلى الملك مطلقا ، فأرسله بدوره إلى هذا ، دون أن يطلق على ما حواه ولم يجب الملك بشئ . وبعد ذلك بوقت قصير ، ذهب سيدى المارشال إلى برلين ، فكتفى بأن قال له إننى عنتت في تأليفه . . وأدرخت من ذلك

أن خطابي لم يلق استحسانا ، وأن نصصي الصريح اخذ على محمل التطفل الخشن ، وقد يكون الأمر كذلك ، في جوهره . ولعلني لم أقل ما كان ينبغي أن يقال ، ولا اتخذت اللهجة التي كان ينبغي أن اتخذها . ولكني لا أحاسب نفسي إلا عن الشعور الذي دفع بالقلم إلى يدي !

وبعد استقرارى في (مونتير - ترافير) بوقت قصير . وأطمئنتني إلى كل الضمانات التي تكفل لي العيش في سكينة . اتخذت الزى الأرمني . ولم تكن الفكرة بالجديدة علي ، فقد خطرت لي مرارا في سياق حياتي . ثم غاودتني كثيرا في (مونتورنسي) ، حيث كان استخدامي المستمر للجسبات (لعلاج احتباس البول) ، يضطرنني إلى أن ألزم مقدسي في كثير من الأحيان ، مما جعلني أكثر شعورا بفوائد الثوب الطويل . ولقد ساءت المصادفة حائكا أرمنيا ، كان يكثر من التردد على قريب له في (مونتورنسي) ، فأغراني ذلك بأن انتهر الفرصة لاتخذ الزى الجديد ، برغم ما قد يتقوله الناس ، فما كنت شديد الشغل بنقولاتهم . على أنني شئت - قبل أن أتزيا بهذه الحلة الجديدة - أن أتعرف رأي السيدة دي لوكسمبورج ، فحبذت كل التحبذ رأيي . ومن ثم فأنني أعددت « طاقما » مسفرا من الملابس الأرمنية ، بيد أن الضجة التي أثرت ضدي ، جعلتني أرجئ استخدامي إلى وقت يكون أكثر هدوءا . ولم يتسمن ذلك إلا بعد بضعة أشهر ، عندما اضطرت إلى العودة إلى استخدام الجسبات ، مدفوعا بنوبات جديدة لعلني . فخل إلى أن بوسعي أن اتخذ هذا الزى في (مونتير) ، دون أن أتعرض

لشيء ، لا سيما بعد أن استشرت راعي كنيسة المنطقة ، غائباني بين بوسعي ارتداءه - حتى في الكنيسة - دون ما استحياء أو إنكار . ومن ثم اقبلت على ارتداء السترة والقطنان ، والقطنسوة المصنوعة من الفرو ، والحزام . ويعد أن اشتركت في أداء القروض الدينية بهذا الزى ، لم أر أي ضرر في أن ارتديه في زيارتي لسيدى المارشال . وما إن رأيته سمادته في هذا اللباس ، حتى قال ، على سبيل الملاحظة : « السلام عليكم » ، فكان في هذا جسم الأمر . ولم أعد بعد ذلك ارتدى زيا آخر !

ولما كنت قد هجرت الأدب نهيا ، فأنني لم أعد أفكر إلا في ممارسة حياة عادية ، وادعة ، في نطاق إمكاناتي . فما برقت يوما - حين أخلو إلى نفسي - معنى الملل ، حتى عندما أكون متعللا نهيا . . إذ أن خيالي كميل بأن يملأ كل فراغ ، وهو وحده خليق بأن يشغلني عما سواه . ولكن الذي أعجز عن احتياله دائما ، هو الثثرة الخائلة ، بين جدران أربعة ، حين يجلس الناس بعضهم إلى بعض ، دون أن يحركوا شيئا سوى السنتهم ! . . كذلك المشي والقيام من الأمور التي أحتملها ، إذ أنها يمكن أن القدمين والعينين من أن تعمل ، على الأقل ! . . أما الجلوس بذراعين معقودتين ، والحديث عن الجو ، والذباب يطلق في المكان ، أو تبادل المجاملات - وهو أسوأ مما سبق - فهذا عيب لا يطلق بالنسبة لي . ولقد كنت لا أعيش في عزلة وحشية - أن أشغل نفسي بـ « ... »

فكنت أحمل وسادة الشغل في زيارتي ، او انهك في التطرير
لدى بابي ، وانا اجاذب المارة الحديث ، كما تفعل النساء !

ولقد ساعدنى هذا على احتمال اللغو الفارغ ، وعلى قضاء
الوقت - دون ما ضجر - في دور الجيران « الذين كان بينهم
عدد لا يعوزهم اللطف ، ولا ينتصهم الذكاء . وقد كانت من
هؤلاء امراء تدعى « ايزابيل دانفرنوا » ، ابنة المدعى العام في
« نيوشاتيل » ، وقد لاح لى انها جديرة بان ترتبط معها برباط
خاص من الود ، لم تجد فيه ما يضرها « بفضل النصائح
النافعة التي كنت ارجيها اليها ، وبفضل الخدمات التي كنت
اؤديها لها في المناسبات المناسبة . . فاصبحت اليوم اما محترمة
وربة اسرة فاضلة . . ولعلها مدبنة لى بحكمتها ، وزوجها ،
وحياتها ، وسعادتها ! . . اما انا ، فآدين اليها بكثير من التسرية
الرفيعة ، لا سيما خلال الشتاء الكثيب ، عندما كانت على
واوجاعي ترقى إلى ثروتها . فكانت تأتى لتقضى مع « تريز »
ويأى السهرات الطويلة ، التي تحظى تقصرها بروحها المرحية ،
وبالثقة التي كانت مقابلة بيننا . وقد اعتادت ان تدعوني
« بابا » وانا ديها بيا « ابنتى » . ولا تزال تستخدم هذين
اللقبين ، وانى لامل أن اظل عزيزا عليها - دون انقطاع - كما
هى عزيزة على !

ولكى اجعل لأشغالى « اللاسيه » نفعا ، اعتدت ان أهديها
إلى صديقاتى الشابات عند زواجهن ، على شريطة أن يغذين
أطفالهن بلبائهن . وعلى هذا ، حصلت لاسيه « الكبرى » ليزابيل
على مفارش من « اللاسيه » ، وكانت تلبسها به . ولكنها
م ٩ - على



وما أن رأيت سعادته في هذا اللباس ، حتى قال : على سبيل الملاحظة
« السلام عليكم »

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الخامس ١٣١

المعرفة العامة ، وكان على ميل إلى الفن ، كما كان يفخر بأنه أنمى بنفسه مداركه وعقله ، وكان مسلكه خاترا ، فيلسوفيا - على نسق الهولنديين .. وكانت بشرته السمراء ، وخلقته الصابت المتحفظ تؤيد هذه الفكرة كل التأييد . وكان اصم : وبصاها بالنفوس ، بالرغم من أنه كان شابا . وقد جعل هذا حركاته جد متزنة ، ومغرطة في التفاضل . ومع أنه كان يحب النقاش - وبطيله في بعض الأحيان - إلا أنه كان قليل الكلام ، بوجه عام ، لأنه لم يكن يسمع !

ولقد غرني كل هذا المظهر ، فقلت لنفسى : « ها هو ذا رجل يفكر ، عاقل ، من الصف الذي يسعد المرء بمصادقته » . ومما زادنى اغترارا فيه ، أنه كان كثيرا ما يوجه إلى الحديث ، دون أى إبطاء . وكان قلبل الحديث عنى وعن كتبى ، وأقل من ذلك عن نفسه . ولم يكن خلوا من الآراء ، بل كان كل ما يقوله منها صحيحا إلى درجة كبيرة . وقد اجتنبتنى إليه هذه الدقة ، وهذا الصواب . ولم يؤث عقله شيئا من السمو ولا من الإرهاب اللذين أوتيهما السيد المارشال ، ولكنه أوتى البساطة .. فكانت تمثل دائما في كل شيء .

ولم اشغف به ، ولكننى انجذبت إليه بشعور من التقدير . وقد اغضى هذا التقدير - تدريجا - إلى الصداقة . ولقد نسيت تماما - في صداقتى معه - الاعتراض الذى كنت أعددته إزاء صداقتى مع البارون دولباخ ، وذلك لأننى لم ألتزم القراء . واعتقد أننى كنت في ذلك على خطأ .

لم تسعد بحمل الأطفال ، ولم يقدر لها أن تكون أما . ولقد حرصت - عند إرسال « اللاسيه » إلى « ايزابيل » وأختها - على أن أكتب لكل منهما رسالة . وقد طابت أولى هاتين الرسالتين أرجاء العالم . أما الثانية ، فلم يقدر لها هذا الحظ من الشهرة .. فإن الصداقة لا تستقيم مع الصخب والصجيج !

ومن الصلوات التى عقدتها في الجيرة - والى لن أخوض تفصيلاتها - يجب أن أذكر علاقتى بالكولونيل « بورى » ، الذى كان يمتلك دارا فوق الجبل ، اعتاد أن يقضى فيها فصل الصيف . ولم أكن مشوقا إلى معرفته ، إذ كنت تسد عرفت أنه على علاقات سيئة مع البلاط الملكى ، ومع السيد المارشال ، الذى لم يزره قط . ومع ذلك ، فقد اضطررت إلى أن أزوره ، إذ زارنى وأبدى لى كثيرا من التكرم والصفاء . وقد استمر تزاورنا ، وكنا نتناول الطعام أحيانا ، على مائدته أو مائدتى . ولقد تعرفت في داره بالسيد « دوببيرو » ، الذى لم يلبث أن غدا صديقا حميما ، حتى أننى لا أستطيع أن انتحاشى الحديث منه .

كان السيد « دوببيرو » أمريكيا ، ابن قائد (سورينام) الذى تزوجت أرملته من خليفته السيد لوشامبريه - من أبناء (نيوشاتيل) - حتى إذا تزلت مرة أخرى ، وفدت مع ابنها ليقبها في بلاد زوجها الثانى . وكان دوببيرو ابنا لا مثيل له ، واسع الثراء ، مشغوقا بحب أمه ، وقد نشأ في رعاية وعناية ، وأفاد من تربيته ، إذ كان قد حصل قدرا كبيرا من

في أن اى رجل أوتى ثروة طائلة ، يستطيع أن يحب مبادئه بإخلاص ، وأن يحب صاحبها !

ولقد ظللت فترة طويلة ، لم أكن أرى « دو بيري » فيها إلا لاما ، إذ أننى نادرا ما كنت أذهب إلى (نيوشاتيل) ، كما أنه لم يكن يزور الكولونيل « بورى » - في بيته الجبلى - إلا مرة في العام . فلماذا لم أكن أذهب إلى نيوشاتيل ؟ . لسبب صبيانى ، لا أرى أن أغفله .

ذلك أننى وإن كنت - في حماية ملك بروسيا والسيد اللورد - قد نجوت في البداية ، من الاضطهاد في البلد الذى لذت به ، إلا أننى لم أنج قط من نعمات الجمهور ، ومستشارى البلدية ، والقساوسة . وبعد المثل الذى ضربته فرنسا ، لم يكن من المستحسن ألا توجه إلى بعض الإهانات « على الأمل . فلقد خشى القوم أن يظهروا بملهم غير المحبذين لمضطهدى » إذا هم لم يقدوهم . وكانت الطبقة المتأخرة في (نيوشاتيل) - واعنى جماعة القساوسة في تلك المدينة - هى البادئة ، إذ حاولت أن تؤلب مجلس الدولة ضدى . فلما لم يقدّر لهذه المحاولة النجاح ، أئجه القساوسة إلى أعضاء المجلس البلدى ، الذين يادروا بتحريم كتبى ، وراحوا في كل مناسبة يعاملونى في ازورار ، ليوحوا إلى - بالقول وليس بالإشارة فحسب - بأننى إذا كنت أبغى الاستقرار في مدينتهم ، فأنهم لن يطبقوا مقامى . ولأولا اعمدة صحيفتهم « ميركور » بالسفاسف المضحكة ، والانتقادات السطحية ، التى أضحكت نوى الإدراك ، ولكنها لم تخفق في إثارة الجمهور وتحفيزه ضدى .

وما كان سماعى بكل هذا ليعنى من أن أكون جد شاكرك لهم فضلهم البالغ ، إذ سمحوا لى بأن أقیم في (مونتير) ، حيث لم يكن لهم اى سلطان . . فقد كانوا خليقين بأن يقيسوا الهواء بالشير ، ليتقاضونى - في مقابلته - ثمنا باهظا ! فلقد كانوا تواقين إلى أن يشعرونى بأننى أسير فضل كبير لهم ، من جراء الحماية التى أضفاها الملك على بالرغم منهم ، والتى كانوا دائبين على العمل لحرمانى منها ، وإذ تبنوا - أخيرا - أنهم لن يوفقوا في ذلك ، وبعد أن الحقوا بى كل ما كان يوسمهم من إيذاء « وأساعوا إلى بكل ما في طاقتهم » فقد جعلوا من حقهم فضيلة ، بأن راحوا يمنون على بفضلهم إذ تحملوا بقائى في بلادهم . وكان الجواب الوحيد الذى يخلق بى أن أوجهه إليهم هو . . أن أضحك منهم ساخرا . ولكننى - بدلا من ذلك - كنت من الغباء بدرجة أننى غضيت ، وكنت من الحباقة بدرجة أن عقت العزم على ألا أذهب إلى (نيوشاتيل) . . وهو عزم تشبثت به عامين تقريبا « وكأئننى لم أكن أبدى لمثل هؤلاء المخلوقات كثيرا من الإكبار ، بما كنت أبديه من احتفال بمسلكتهم الذى ما كانوا ليعتبروا مسئولين عنه - سواء كان طيبا أو خبيثا . - لأنهم ما كانوا ليتصرفوا قط ، دون تحريض ! . . وإلى جانب ذلك ، فإن العقول الخالية من الثقافة والنور ، لا تعرف هدفا تقدره سوى الصيت ، والتفوق ، والمال . . وهى بعيدة كل البعد عن أن تحس أن المواهب جديرة بشئ من الاحترام ، وأن في إهانتها عارا يحط من إقداره !

ولقد قال مرة أحد عمداء القرى - وكان قد كلف من عمله لسوء تصرفاته - لرئيس بوليس

الذى كان زوجا لصديقتى ايزابيل : « يقال ان هذا الـ «روسو» رجل واسع العقل ، فهاته لى ، كى اثبتين مدى صدق هذا ! » . ومن المؤكد ان عدم رضاء رجل يتحدث بهذه اللهجة ، لا يستحق ان يضايق أولئك الذين يريد أن يفحصهم ويختبرهم !

وعلى هوء الطريقة التى عوملت بها فى باريس ، وجنيف ، وميرن ، ونيوشاتيل ذاتها ، لم أتوقع كثيرا من الاعتبار - من الرامى الدينى للمنطقة - ومع ذلك فإن السيدة «بوى ديلا تور» كانت قد أوصته بى خيرا ، وكان قد استقبلنى فى حفاوة بالغة . ولكن المجاملات لم تكن تعنى شيئا ، فى هذا البلد الذى كان النفاق يسوده . على اتنى بعد عودتى الصادقة إلى الكنيسة البروتستانتية ، وإقامتى فى بلاد بروتستانتية ، لم أعد املك إهمال إبداء إيمائى للبلأ بالدين الذى عدت إليه ، وإلا كنت ناكثا بمعهودى « مغفلا واجباتى كمواطن . ولهذا أخذت أحضر الطقوس الدينية . ولكنى من ناحية أخرى ، كنت أخشى ان يؤدي حضورى المادية الربانية ، إلى ان أتعرض للאהانة بأن يرفض القس السماح لى بتناول القربان . فما كان من المحفل إطلاقا - بعد الضجة التى اقامها المجلس ضدى فى جنيف ، وتلك التى اثارها رجال الدين فى نيوشاتيل - ان يقوم القس بطقوس المناولة لى ، فى هدوء ، فى كنيسته . ولما كان موعد المناولة يقترب ، فقد قررت ان اكتب إلى السيد « دى مونولان » - وهذا اسم القس - معربا عن حسن توىاى . ومعلنا إليه اننى كنت مرتبطا بقلبى بالكنيسة البروتستانتية دائما . وقلت له فى الوقت ذاته - تغاديا لكل خلاف على

نصوص العقيدة - إتنى لم أكن راغبا فى أى شرح خاص لأسس العقيدة . وإذا أوضحت موقفى - بهذا الشكل - لزمت الهدوء ، والشك لا يخالمنى فى أن السيد دى مونولان لن يأتى ان يعفينى من المناقشات الأولية - التى تسبق المناولة عادة ، والتى كنت معبرا على ألا أخوضها إطلاقا - وان المسألة تستوى على هذا الوضع ، دون ما لوم ينصب على .

ولكن شيئا من هذا لم يحدث ! - ففى اللحظة التى لم أكن أتوقع فيها هذه المفاجأة ، إذا بالسيد دى مونولان يقبل . لا لينبئنى بأنه كان راضيا عن مناوالتى القربان - بالشرط الذى ذكرته - فحسب ، وإنما ليخبرنى فوق هذا ، بأنه وشيوخ الكنيسة يرون أن فى وجودى عضوا بين رعاياهم شرما لهم ! . أبدا لم أفاجا فى حياتى كما فوجئت بذلك ، وأبدا لم أجسد فى شيء ما وجدت فى هذا النيا من عزاء .

كان اضطرارى إلى العيش فى عزلة على الدوام ، يبدو لى مصيرا جد كئيب . لا سيما فى أوقات المحنة . ففى وسط كل هذه الأحكام التى كنت أدمغ بها - دون ما إنصاف - وكل هذه الاضطهادات ، كنت أجد ترغيبا بالغا فى أن أستطيع ان اتول لنفسى : « ها أنذا بين أخوة ، على الأقل ! » . ومن ثم فقد دهمت للفتاوى بقلب يفيض بالأنفعالات ، ودموع منبعثة من عواطف رقيقة ، لعلها كانت خير عدة يقبلها الله ، ويستطيع أن يحملها إلى المائدة الربانية !

وأرسل لى السيد اللورد - بعد ذلك بزمان - رسالة من السيدة دى بوفلير : جاءت - كما جرت العادة - طريق المهرج .

كاثوليكيا ؟ لقد كان كل امرئ يعرف هذا بالفعل ! .. ام اريد به إثبات أنني لم اكن من اتباع « كاثلين » الصالحين (١) ؟ غاي شأن للسوريون في هذا ؟ .. كان معنى هذا ان « السوريون » أخذ على عاتقه مهمة نافذة ، واثاب نفسه عن قساوستنا . وايقنت - قبل ان ارى الوثيقة - انها كانت تروج باسم « السوريون » ، للسخرية منه ، وقد ازدادت إقتناعا بذلك عندما قرأتها .

وعندما عجزت عن ان اشك في صحة صدورها عن « السوريون » - في النهاية - لم يبق لي ما أفكر فيه سوى انه كان من الواجب تحويل « السوريون » إلى مصحح للأمراض العقلية !

سنة ١٧٦٢

وهناك وثيقة أخرى أثرت في نفسي فوق تأثير هذه ، لأنها صدرت من رجل كنت أقدره - على الدوام - وكنت أعجب ببجلده وأنا أرش لضياع بصره . واقتصد بهذا القول الرسالة الأسقفية التي كتبها كبير أساقفة باريس ضدى . ولقد خيل إلى أن ليس حجة داع لأن أرد عليها . وكان بوسعى أن أفعل ، دون أن أنزل من قدر نفسي . فقد كانت مسألة قريبة الشبه

الذى كان يعرف السيد المارشال . وكانت هذه هي الرسالة الأولى التي كتبتها إلى هذه السيدة ، منذ رجلى عن (مونتورنسى) « وقد لامتنى فيها - أشد اللوم - على أنني كتبت إلى السيد دى مونتولان ، وعلى أنني تناولت القرمان . بوجه خاص . ولم أكد أنهم داعيا للومها هذا ، إذ أنني - منذ رحلنى الأولى إلى جنيف - كنت أعلن جهارا أنني بروتستانتى ، وقد ترددت علانية على كاتدرائية هولندا ، فلم ير احد في هذا أى سوء . وبدأ لى من المضحك ان ترغب السيدة الكونتيسة دى بوفلير في ان تحم نفسها في توجيه ضميرى ، في الناحية الدينية . على أنني كنت لا أرتاب في ان نوايها - لا سيما هذه التي لم أستطع ان أنهبها - هي خير النوايا ، ومن ثم فإني لم أستاذ من هذا العتاب المجيب ، بل أجبت في غير غضب ، ووضحت لها الأسباب .

وفي تلك الأثناء ، كانت الإساءات المطبوعة مستمرة كثائها من قبل ، وكان مؤلفوها « الكرام ! » يؤنبون السلطات لأنها تعاملنى في لين فوق ما ينبغى . ولقد كان هذا التبايح - الذى ظل قادته يعملون في الخفاء - مذير شؤم وفزع . على أنني - من ناحيتى - تركتهم يقولون ما شاؤوا ، دون ان اتأثر . ولقد أكد لى البعض ان ثمة قرارا بلومى على كتيبى ، قد صدر عن « السوريون » ، فأبيت ان اصدق ذلك (١) . إذ كيف للسوريون ان يتدخل في هذه المسألة ؟ فهل أريد بذلك تأكيد أنني لم اكن

(١) جون كالفن مصلح دينى سويسرى ، قام بيشر باصلاح الكنيسة منذ

سنة ١٥٣٢ . ويسمى المذهب الذى قام على مبادئه بالمذهب « الكالڤيني » . وهو قريب من المذهب البروتستانتى .

(١) كان « السوريون » معهدا لمطوع اللاهوت ، في ذلك الحين .

من مسألة ملك بولندا (١). وما كنت يوما مولعا بالمشاحنات الوحشية ، « على طريقة فولتر » . . . فليت أجيد سوى الغزال الذي يحفظ للمراء كرامته ، ولا يد - قبل ان انازل بالدفاع عن نفسي - من ان استوفى من ان الذي بهاجمنى لن يشوه ضرباتى !

ولم يداخلنى شك فى ان هذه الرسالة الاسقفية كانت من عمل « الجيزويت » ، ومع انهم كانوا إذ ذاك منكوبين « إلا اننى رايت فى هذا العمل مصداقا لمبدأهم القديم . . . مبدأ سحق المنكوبين » ومن ثم فقد كان بوسعى ان اتبع - أنا الآخر - مبدأ القديم ، مبدأ تكريم المؤلف وسحق الكتاب . وهذا ما ما اعتقد اننى وفقت فى أدائه .

ولقد وجدت إقامتى فى (مونتير) جد مستحبة ، فلم يكن يعوزنى سوى الحاجة إلى مورد ثابت للعيش ، كى أقدر قضاء آخر أيام عمرى هناك . بيد أن الحياة كانت باهظة التكاليف ، وكانت كل مشروعاتى القديمة قد انتقلت رأسا على عقب ، بسبب نزوحى من مكان إقامتى القديم ، والعمل على إنشاء مقر جديد لى ، وبسبب بيع أمتعتى أو تهديدها ، وبسبب النفقات التى كنت مضطرا إلى تكبدها منذ رحيلى عن (مونتورنس) . ورحت أرى رأس مالى الصغير يتضائل يوما بعد يوم ، حتى بات فى وسع عامين آخرين أو ثلاثة ، ان تانى على ما تبقى منه ، دون ان أرى موردا آخر لتعويضه ، اللهم

(١) أرجع الى نسخة ١٢٤ من الجزء الثالث .

إلا إذا شرعت فى تأليف الكتب من جديد . . . وممارسة المهنة المشنومة التى كنت قد نبذتها !

* * *

وإذ كنت مؤمنا بأن الأمور لن تلبث ان تتطور عما قريب ، وأن رأى العام لن يلبث ان يثوب من تهوسه ، وأن يحمل السلطات على ان تخجل من تصرفها ، فكان همى الأوحد ، هو ان أجعل مواردى تستمر حتى يحدث هذا الانقلاب السعيد الذى سيفتح لى وضعا ، اكون أكثر مقدرة فيه على ان أختار موردا من الموارد التى تعرض لى . وفى سبيل ذلك ، عدت إلى استئناف موسوعتى الموسيقية التى كنت - بعد جهد استغرق عشر سنوات - قد قطعت شوطا بعيدا فيها ، فلم يعد ينقصها سوى المراجعة الأخيرة ، وأن تنسخ نسخا نظيفا . ولقد وغرت لى كتبى - التى كانت قد أرسلت إلى منذ وقت قصير - وسائل إتهام هذا المؤلف . . . كما أن أوراقى - التى أرسلت إلى فى الوقت ذاته - مكنتنى من البدء فى مشروع مذكراتى ، التى اعترت أن أجعلها شاغلى الوحيد ، من ذلك الحين . وقد شرعت فى نسخ الرسائل فى مجموعة تهدى ذاكرتى إلى نظام الوقائع والتواريخ . وكنت قد اخترت تلك الرسائل التى رايت أن أعدها لهذا الغرض ، وقد نسقت فى تتابع لم ينقطع زهاء عشر سنوات تقريبا . غير اننى تبينت - وأنا أراجعها لأنسخها - ثغرة خلالها أدهشتنى . وكانت هذه الثغرة تشمل ستة أشهر « من أكتوبر سنة ١٧٥٦ إلى مارس التالى !

وكنت أذكر تمام التذكر اننى لم أكتب من هذا عذرا من

الرسائل التي تلقيتها من ديدرو ، ودي ديلير ، والسيدة ديبيناي ، والسيدة دي شينونسو وغيرهم ، والتي كانت تبث هذه الغفرة ، ولم يعد لها وجود . فما الذي جرى لها ؟ .. هل عبثت يد بأوراقي أثناء بضعة الأشهر التي مكنتها في قصر لوكسمبورج ؟ .. كان هذا الأمر بعيدا عن المعقول ، إذ أنني رايت السيد المارشال يأخذ بنفسه مفتاح الغرفة التي أودعت فيها هذه الأوراق . ولما كان كثير من رسائل السيدات ، وكل رسائل ديدرو ، لا تحمل تاريخا ، وكنت قد اضطررت إلى ترتيب تواريخها اعتمادا على الذاكرة ، وكنت كمن يتلمس طريقته في الظلام لتسبيق ترتيبها ، فقد ظننت - في بادئ الأمر - أنني ربما كنت قد أخطأت حدىس التواريخ . ورحمت أراجع كل الخطابات التي لم تكن تحمل تواريخ ، أو التي كنت قد سجلت عليها التواريخ بنفسى لا تبين ما إذا لم يكن بوسعى العثور على تلك التي كانت لازمة لماء الغفرة .

ولم تغلح هذه المحاولة ، فتبينت أن الفراغ كان قائما حقا ، وأن الخطابات كانت قد رُميت من مكانها يقينا . فمن الذي رفعها ؟ ولماذا ؟ هذا ما لم أستطع إدراكه ! .. كانت هذه الرسائل سابقة على مشاحناتى الكبرى ، وقبت إلى فترة نشوئى الأولى بـ « جولى » . ومن ثم فأنها لم تكن ذات أهمية لأحد . كانت تضم - في الغالب - بعض مشاكلات من ديدرو ، وبعض سخريات من ديلير ، وبعض تأكيدات للود من السيدة دي شينونسو ، بل ومن السيدة ديبيناي التي كنت معها إذ ذاك على خير ونام . فمن الذى تمهه هذه الخطابات ؟ .. وماذا

يراد بها ؟ .. ولكنى لم أحرص الغرض البشع من هذه السرقة إلا بعد سبع سنوات !

وحلنى تلكدى من هذا النقص ، على أن أحرص مسوداتى لأتبين ما إذا كان ثمة نقص آخر ، فوجدت عددا منها مفقودا ، ونظرا لقصور ذاكرتى ، جعلنى هذا افترض خسياع أوراق أخرى من اكديس أوراقى . وكانت المسودات التي لاحظت غيابها ، هى تلك المتعلقة بكتاب « المبادئ الخلقية الحسية » ، والفترات المستخلصة من « مظهرات اللورد ادوارد » . وأعترف أن غياب هذه الأخيرة ، أوحى إلى بالشك فى السيدة دي لوكسمبورج . فلقد كان وصيها الخاص « لاروش » ، هو الذى نقل أوراقى ، وما كنت لأتصور سواها - دون الناس أجمعين - من يهتم بمثل هذه القطعة . ولكن ، أى اهتمام كان يدفعها إلى أخذ الثانية وإلى أخذ الرسائل الفائية ، التى ماكان بوسع أمرئ أن يفيد منها فى مضايقتى - مهما تكن نواياه خبيثة - اللهم إلا إذا زلفها ؟ .. أما السيد المارشال ، الذى عهدت فيه استقامة لا تتذبذب ، وصديقا فى وده لى ، فأننى لم أملك أن ارتاب فيه لحظة واحدة . بل إننى لم أملك أن أثبت هذا الشك على السيدة المارشالة !

وكان أكثر الافتراضات التى خطرت لى ، تشبها مع المعقول - بعد أن أفسنت نفسى وقتا طويلا فى البحث عن مرتكب هذه السرقة - هو أن ألقى الوزر على المير ، الذى كان قد وفق إلى اكتساب مكانة لدى السيدة دي لوكسمبورج . ولكن من المحتمل أن يكون قد وفق إلى وسيلة للتشبه فى أوراقى ،

والاستيلاء على ما استطاع الاستيلاء عليه، سواء من المخطومات أو من الرسائل، وسواء جريا منه وراء إثارة بعض الفتن، أو لكي ينسب إلى نفسه ما قد يراه نافعا لها. وافترضت أن يكون قد أساء فهم عنوان «المبادئ الخلقية الحسية»، فخيل إليه أنه قد عثر على مشروع رسالة حقيقية عن «المادية» يستطيع أن يستغلها ضدي بالتقدر الذي صور له خياله. وإذا كنت واثقا من أنه لن يلبث أن يتبين الحقيقة عندما يفحص المسودة، كما كنت قد عقدت العزم على أن أهرج الأدب نهائيا، فنانتي لم اهتم كثيرا بهذه السرقات، التي لم تكن أول ما ارتكبته تلك اليد ذاتها، والتي احتملتها خون ما شكوى. فقلت وجدت في كتاب الداليمير «مبادئ الموسيقى» كثيرا من الأشياء المأخوذة عما كنت قد كتبته في هذا الفن لدائرة المعارف، والتي كانت قد أرسلت إليه قبل طبع كتابه بسنوات عديدة. واني لأجهل ما قد يكون له من نصيب في كتاب بعنوان «موسوعة الفنون الجميلة»، ولكنني وجدت فيه مقالات منقولة بالكلمة من مقالاتي... قبل أن تنشر هذه في دائرة المعارف!

وسرمان ما كلفت عن التفكير في هذه الخيانة، وكانها لم يرتكب ضدي قط عمل كهذا، وشرعت أنسق المواد التي تفتت لي، لكي أتوفر على «اعترافاتي».

وكنت قد ظلمت طويلا اعتقد أن جماعة التساوية في جنيف، أو أن المدنيين وسكان المدن - على الأقل - لن يلبثوا أن يحتجوا على انتهاك القانون، في الرسوم الذي كان قد

أصدر ضدي، بيد أن كل شيء ظل ساكنا... في الظاهر على الأقل، إذ أنه كان ثمة تضرع عام، لم يكن ينتظر سوى مناسبة يعلن فيها عن وجوده. وكان أصدقائي - أو من يسمون أنفسهم كذلك - قد كتبوا لي الرسائل طو الرسائل، يستحثونني على أن أذهب فأضع نفسي على رأسهم، مؤكدين لي أن المجلس لن يلبث أن يصدر اعتذارا علنيا «إذ ذاك». على أن الخوف من العقائل والاضطرابات، التي قد يثيرها وجودي، تمنعني من قبول إلحاحهم. وفي وقائي للمهد الذي كنت قد أخذته على نفسي في الماضي، بالا أقحم نفسي في أي شقاق أهلي في بلادى «أقتر أن يبقى انتهاك المساواة قائما على حاله، وأن أكرم وطني على نفسي إلى الأبد» على أن ألجأ بوسائل عنيفة وخطرة. ومن الصحيح أنني كنت ارتقب من أبناء المدن مظاهرات سلمية وقانونية ضد المخالفة التي كانت تبهم إلي أقصى حد، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث. فان أولئك الذين كانوا يقوونهم، لم يكونوا يسمون إلى علاج الأخطاء والمساوي، بقدر ما كانوا ينشدون فرصة ليجعلوا من أنفسهم قادة لا غنى عنهم. وكانوا يسمون بالتحريض، ولكنهم لزموا العصب، وأطلقوا الزمام للشائعات والأكاذيب التي كان المجلس يروجها ليشوه من سمعني أمام الأهالي، وليعزروا إساءاته إلى الحساس الديني!

ويعد أن انتظرت - دون جدوى - لأكثر من عام، على أمل أن يحتج أحد على الإجراء غير القانوني. فمر رايي - في النهاية - على قراره وإذا وجدت نفسي مهجورا من مواطني... همت

على أن انبذ وطني الجاحد ، الذي لم اقم فيه قط ، والذي لم اطلق منه خيرا ولا عونا ، والذي جازاني على الشرف الذي سميت لإضافته عليه ، بأن وافق بالاجماع على معاملة مهينة . وإذا لم ينس بكلمة أولئك الذين كان ينبغي عليهم أن يتكلموا ، كتبت إلى السيد الأول (١) لذلك العمام - وكان السيد غافر ، على ما اظن - رسالة نزلت فيها بشم عن حق في أن أكون مواطنا ، وراعت فيها - إلى جانب ذلك - الأدب والاعتدال الذين كنت أحرص عليهما في التصرفات المتعلقة بكرامتي ، والتي كثيرا ما كانت تسوة أعدائي تدفعني إليها في أوقات محنتي .

ونفذت هذه الخطوة أمين المواطنين ، فأحسوا بأنهم قد اذنبوا إزاء مصلحتهم الحقيقية إذ تخلوا عن الدفاع عني ، فهبوا لذلك بعد فوات الأوان . وكلفت لهم مظالم أخرى ضموها إلى هذه ، وجعلوا منها مادة لتشكايات عديدة ، جد معقولة ، راحوا يوسعون نطاقها ويمزونها ، نتيجة للرفض الجاف المبتذل الذي أخذ المجلس يقابلها بها ، وهو مستند إلى تأييد الوزير الفرنسي ، مما جعل المواطنين يزدادون شعورا بالخطة التي كانت موضوعة لاستبعادهم . ولقد دعت هذه الخلافات إلى إصدار منشورات عديدة ، لم تبت بشيء ، إلى أن ظهر نجاة « رسائل كتبت من الريف » ، وهو مؤلف وضع لتأييد المجلس بدهاء لا حد له ، وقد انضم الفريق المتطرف وهزمه فترة من الزمن . وهذا الكتاب أثر بآق على ما أوتي مؤلفه من مواهب نادرة ، وهو من

إنتاج المدعى العلم ترونشان (١) ، وقد كان رجلا ذكيا ، متقورا ، متبحرا في القوانين وفي نظم الحكم الجمهوري .

سنة ١٧٦٤

وافاق المتخبرون من هزيمتهم الأولى ، فتولوا الرد ، وخرجوا من مأزقهم على خير حال . ولكن الجميع راحوا يوجهون أنظارهم نحوي ، وكانني الوحيد الذي كان يقوى على مقارعة خصم كهذا بأمل التغلب عليه . واعترف أنني كنت أرى الرأي ذاته ، فلما أخذ مواطني القدامى يستحثوني ويبينون أن من واجبي أن أساعدهم بقلبي في مأزق كنت أنا سببه . فعكفت على دحض « رسائل من الريف » ، وعلقت العنوان إلى « رسائل من الجبل » ، وهو الذي اتخذته لردى . وقد فكرت في هذا المشروع ونفذته في تكلم شديد ، حتى أنني - في اجتماع مع رؤساء المتطرفين في (تانون) ، لنتشاور في أمورهم ، ولبطلعموني على مشروع ردهم - لم أشر بكلمة إلى ردى الذي كان قد اكتسب ، خشية ألا يتقلبوا على بعض العقبات في سبيل طباعته ، لو أن أعضاء المجلس أو أمدائي الشفخسيين سمعوا أنه همسة عنه . ومع ذلك فإني لم أستطع أن أحول دون أن يذيع أمر هذا المؤلف في فرنسا قبل نشره ، على أنه رؤى تركه يظهر ، بدلا من اطلامي بجلاء على الوسيلة

(١) جان روبر ترونشان ، وهو غير المشهور الذي ورد ذكره في الترامتين الثانية

(١) رئيس المجلس الذي كان يتولى إدارة شؤون جمهورية (جنيف) .

التي اكتشف بها سرى ، ولسوف أبين - فيما بعد - ما علمته .
وإن لم يكن بالكثير . ولن أذكر شيئا عن هواجسى وتخيفاتى .

كان الزائرون يتوافدون على دارى فى (موتير) ، بصين
كثرتهم فى (ليرميتاج) و (موشورسى) تقريبا . ولكنهم كانوا
- فى الغالب - من نوع آخر . فقد كان الساعون إلى لقائى -
قبل ذلك الحين - من أولئك الذين تربطهم بى روابط المواهب ،
والمبول ، واليادى . فكانت هذه مبررات لزياراتهم . وكانوا
يطلمعوننى على موضوعات استطيع أن أناقشها معهم ، قبل
نشرها . ولكن هذه لم تكن الحال فى (موتير) ، لا سيما فى
الجانب الفرنسى . فقد كان زائرى من الضباط أو الموظفين أو
سواهم ممن لم يؤثروا أى ميل للأدب ، ومن لم يقرأ معظمهم
بؤلفاتى . . ومع ذلك ، فانهم كانوا - على قولهم - يقطعون
ثلاثين أو أربعين أو ستين أو مائة فرسخ ليزورونى ، ويرضوا
إعجابهم برجل لامع ، شهير ، شهير جدا ، بل الرجل العظيم ،
الخ . ذلك لأن الناس لم يكونوا قد كنوا - إذ ذاك - عن أن
يقذفونى فى وجهى بأعظم الفاظ اللق وأوتحقها ، فلم يكن يحينى
منها - منذ ذلك الحين - سوى تدبير أولئك الذين كانوا يندون
لزيارتى . ولم أكن أدري فيما اتحدث إلى هؤلاء ، إذ كان أغلبهم
لا يفضلون بذكر اسمائهم ، ولا يطمعوننى على مراكرهم ، وكانت
معرفتهم ومعرفتى لا تتسقان حول محور مشترك . . وكنت
أصبت مرتقبا أن يفتحوا هم الحديث ، إذ كان عليهم أن يذكروا
لى سبب زيارتهم . لأنهم كانوا أدري به منى . ومن السهل
إدراك أن هذا المسلك لم يكن يؤدى إلى حديث مشوق لى بوجه

خاص ، وإن كان من المحتمل أنه مشوق لهم « تبعاً لما جاءوا
بشدهون معرفته . إذ أتنى ليمدى عن أن أرتاب فى شيء ، كنت
أسهب فى الحديث - دون تحفظ - فى كل ما كانوا يرون من
اللائق طرحه على من موضوعات . وكانوا يخرجون من هذا -
فى العادة - وهم لا يقلون عنى إلماها بكل تفصيلات موقفى .

ومن أمثلة هذا الصنف ، السيد دى « فيان » ، حامل سلاح
الملكة ، وقائد الفرسان فى لواء الملكة ، الذى دأب على أن يتقضى
عدة أيام فى (موتير) وكان يرافقنى فى فزهاتى على القديين ،
حتى (لاميير) ، وهو يقود فرسه مسكاً بعفائه ، دون أن
يكون ثمة ما يجمعنا ، اللهم إلا أن كلينا كان يعرف الأتمة
نيل (١) ، وكنا نتبادل لعبة الكرة والكوب . ولقد حظيت -
قبل السيد دى فيان وبمعه - بزيارة أخرى ، أكثر غرابة .
إذ وصل رجلان يسيان على أقدامهما ، وقد راح كل منهما
يقود بغلا محملاً بمتاعه الثقيل ، فهبنا فى نزل البلدة ، وبعد
أن نظلنا بغليهما بنفسهما ، طلبا زيارتى . وكان مظهر راكبى
البطلين هذين ، يوحى بأنهما من مهربى السلع عبر الحدود ،
فسرعان ما ذاع النبأ بأن المهربين يقدون لزيارتى . بيد أن الطريقة
التي خاطباني بها ، أشعرتنى بأنهما من صنف آخر . على
أنهما إذا لم يكونا مهربين ، فقد كان من المحتمل أن يكونا من
طلاب المغامرة ، مما جعلنى على حذر منهما فترة . ولم يطل

(١) الأتمة « نيل » كانت سطة فى « لاميير » ، فسرما
فى مواقع متفرقة من الأجزاء السابقة .

بى القلق ، فاذا أحدهما السيد « مونتويان » ، الذى كان يعرف بالكونت ديلا تور — دو — يان ، والذى كان من سادة (دولفينيه) . أما الآخر ، فكان السيد « داستيه » ، وهو جندى قديم من (كاريترا) ، دس وسام « صليب القديس لوى » فى جيبه « عزوما عن المظهر . ولقد كان هذان السيدان اللطيفان ، رقيقين واسعى العقل ، فكان حديثهما ممتعا ومشوقا . وقد جعلتنى طريقتهما فى الأسفار — وكانت تروق لى كثيرا ، وإن لم تتناسب مع طرق السادة الفرنسيين — اشعر ببيل نحوها « ما كانت الخلطة تزيد إلا قوتها . ولم ينقه تعارفا عند هذا الحد ، بل إنه لا يزال قائما « وقد زارنى مرارا — منذ ذلك الحين — ولكنهما لم يعمدا يأتيان على الأقدام ، فقد كانت هذه الطريقة صالحة لزيارة التعارف الأولى فحسب . على اننى كلما ازددت تلاقيا بهما ، قل ما القاه من نجواب بين ميولهما وميولى « وقتل شسمورى بأن ميادئهما هى مبادئى ويائهما على دراية بمؤلفاتى وبأن كلا منا يكن للآخر ميلا حقيقيا ! فماذا كانا يبغيان منى ، إذن ؟ ولماذا جاءا لزيارتي بهذا الشكل والمظهر ؟ ولماذا بقيا عدة أيام ؟ ولماذا تكررت زيارتهما عدة مرات « ولماذا كانتا شديدى الرغبة فى ان استضيفهما « . . لم يخطر ببالى إذ ذاك ، أن أوجه هذه الأسئلة إلى نفسى ، ولكنى وجهتها بنوع مرات ، منذ ذاك الحين !

وأزاء تقريرهما ومجللاتهما الودية ، مال قلبى — دون روية — إليهما ، لا سيما إلى السيد داستيه ، الذى سررنى منه أن كانت أخلاقه مريحة ، وواضحة . . حتى لقد أرسلت قبل الرسل



وكان يرافقتى لى نزهاتى على القدمين . حتى (لا فيير) . وهو يقود فرسه مسكاً بعنانه . .

معه ، وعنها أردت أن أنشر كتابي « رسائل من الجبل » ، فكرت في أن أرسل المخطوط باسمه ، لأموه على أولئك الذين كانوا يترصدون للكتاب وهو في طريقه إلى هولندا . وكان قد حدثني كثيرا - وربما عن قصد - عن حرية النشر في (أغتيون) وعرض على خدماته إذا شئت أن أطبع شيئا هناك . فقبلت هذا العرض ، وأرسلت إليه الأوراق الأولى تباعا بالبريد . وبعد أن استبقاها فترة ليست بالقصيرة ، ردها ثانية ، وأتاني - في الوقت ذاته - بأن أحدا من الناشرين لم يجد من نفسه جراءة على أن يتكفل بطبعه . واضطرت إلى أن أعود إلى « ربي » ، متخذًا الحذر ، بحيث أنني كنت أرسل أوراقى واحدة بعد أخرى ، على ألا أرسل واحدة ، حتى أنسلم ما ينبنى بوصول سابقتها .

وقبل أن يطبع الكتاب ، علمت أنه روجع في دوائر القساوسة ، وحدثني « ديشيرنى » - من نيوشاتيل - عن كتاب اسمه « رجل من الجبل » ، قال له دولياخ إننى كاتبه . فأكدت له أنني لم أكتب قط كتابا بهذا العنوان ، وكنت في ذلك صادقا . لذلك فانه احتاج عندما ظهرت الرسائل ، وانهى بالفش ، بالرغم من أنني أنبأته بمجرد الحقيقة . وهكذا اقتنعت بأن المخطوط كان معروفا . ولما كنت موثقا من أمانة « ربي » فقد اضطرت إلى أن أنقل شكوكى إلى اتجاه آخر ، وكان أقرب التخمين إلى المنطق ، بل كان الحدس الذى فضله على سواء ، هو أن رسالتى كانت تنجح أثناء ذهابها بالبريد !



ومن تعرفت بهم - حوالى هذه الفترة بالذات - ولكن تعارفا اقتصر في البداية على تبادل الرسائل ، السيد « لالايود » من أبناء « نيم » . فقد كتب إلى من (باريس) يسألنى أن أرسل إليه صورة جانبية لوجهى لأنه - كما قال - كان بحاجة إليها في نحت تمثال نصفى من المرمر لى ، كان قد عهد إلى « لوبوان » بعمله ، رغبة منه في أن يقيمه في مكتبته الخاصة . وإذا كانت هذه حيلة ابتكرت لاستمالتى ، فالحق أنها أفلحت تماما . فلقد خلت أن رجلا يرغب في إقامة تمثال لى في مكتبته ، لا بد أن يكون ملء الراس بمؤلفاتى ، وبالتالي مبادئى ، وأنه لا بد يحبنى ، لأن روحه كانت على شاكلة روحى . وكانت هذه الفكرة خليقة بأن تستهوينى . ولقد رأيت السيد لالايود بعد ذلك ، فوجدته تواقا إلى أن يؤدى إلى بعض الخدمات الطيفة ، لكى يوغل في التدخل في شئونى البسيطة ! . وميا عدا ذلك ، أظن كتابا واحدا من مؤلفاتى كان بين الكتب القليلة التى قراها في حياته . وأنى لأجهل ، إذا كانت لديه مكتبة ، وما إذا كانت هذه المكتبة مجرد اثاث يحلو له أن يستخدمه ! . أما التمثال النصفى ، فقد اقتصر على شكل مشوه من الطين ، صنعه « لوان » ، وحفر عليه قسماث بشعة ، حملت برغم ذلك اسمى ، وكانها فيها شيء من الشبه بى !

وكان الفرنسى الوحيد ، الذى بدا أنه جاء يزورنى عن ميل إلى مشاعرى وكتابياتى ، ضابطا شابا من كتيبة (ليمزان) بدعى « سيجوييهدى سائ - برنسون » ، كان - وما يزال -

فحلا للفتين المقام في داري . وتوافد من جنيف ومن سويسرا الزائرون ، من قساوسة ، إلى اقارب ، إلى مرثين ، إلى تكرات . لا إبداء إعجابهم بي ، أو للسخرية مني — كما كان يفعل القادمون من فرنسا — وإنما ليؤنبوني ، ويخطبوني . . . وكان الوحيد الذي يروق لي منهم ، هو « مولنو » الذي أتمل لقتضاء ثلاثة أو أربعة أيام معي ، والذي كنت أرجو أن استضيفه فترة أطول . على أن أكثرهم مثابرة ، وأشدهم صلابة ، كان رجلا يدعى السيد دانفيرنوا ، استطاع أن يتحرنى بمضايقاته . وكان ناجرا من (جنيف) ، من المهاجرين الفرنسيين ، كما كان قريبا للدمى العام فينيوشاتيل . وكان هذا السيد دانفيرنوا الجنيفي ، بمر مونتير مرتين في العام ، وكله شسوق إلى أن يزورني ، ويمكث في داري من الصباح إلى المساء ، لعدة أيام بعد ذلك ، فيفرض صحبته على في نزواتي ، ويجلب إلى الف نوع من الهدايا الصغيرة ، ويقحم نفسه على اسراري بالرغم مني ، يتدخل في جميع شئوني . . . دون أن يجمع أحقا بالآخر أي تشابه في الآراء ، أو الميول ، أو الأحاسيس ، أو المبادئ . واني لأشك في أنه قرا كتابا واحدا في حياته ، من أوله إلى آخره . وفي أنه كان يعرف ما تناولته كتتي بالذات . وعندما شرعت في هواية النباتات ، أخذ يرافقني في جولاتي لتفتد أنواع النبات ، دون ما ميل إلى هذه الهواية ، ودون أن يملك ما يقوله لي ، كما انني لم أكن أملك ما أقوله له . بل لقد أوتى الجدد على أن يقضي معي ثلاثة أيام كاملة ، وحيدين لا ثالث لنا ، في مكان عام في (جومان) . كنت أرجو أن أخلص منه عنده ، بفضل العمل على إبلاله وإسماره ببدى ما كان يسببه لي من ملل . بيد انني

لم أقو قط على أن أثبط دأبه الذي لا يصدقه عقل ، ولا على اكتشف الباعث إليه !

وبين كل هذه العلاقات التي لم أصلها ولم أرعها إلا غصبا ، أرى من الواجب ألا أغفل العلاقة الوحيدة التي كانت تروق لي . والتي أثارت اهتماما حقيقيا في فؤادي . . . تلك هي صلتى بشاب مجرى ، جاء ليقيم في نيوشاتيل ، ثم في مونتير — بعد ذلك — عقب استقرارى هناك ببضعة أشهر ، وقد عرف في المنطقة باسم « البارون دي سوتيرين » ، وهو الاسم الذي ورد في التوصيلت التي حملها من (زيورخ) . وكان شابا طويلا عريضا ، متناسق القوام ، بليح القسما ، رقيق الطباع دمثا . ولقد أنبا الجميع — وأوقع في روعي انا الآخر — بأنه لم يأت إلى نيوشاتيل إلا ليراني ، وليروض شبابه على الغضبة بالاتصال بي . وكانت أساريه ، ومسلكه ، وأخلاقه ، تبدو لي مصداقة لكلماته . فكتت خليقا بأن الوه نفسي على تخليها عن واجب من أهم الواجبات ، لو انني أبيت أن أقابل شابا لم أر فيه إلا كل مستحب ، وكان الياعث الذي حفزه على السعى للتعرف إلي ، جديرا بكل اعتبار ، ولا يحقن قلبي الاستسلام الناقص ، ومن ثم فسرمان ما استولى الشاب على صداقتي الكاملة ، وثقتني الشبهة ، وأصبحنا لا نفترق . . . فكان يرافقني في كل نزواتي على الأقدام ، ويستمتع بها كل الاستمتاع ، ولقد صحبته إلى السيد اللورد المارشال ، الذي أبدى له الف مجاملة !

وإذ لم يكن قد أجاد بعد الحديث بالفرنسية ، فقد كان يخطبني ويكتب إلي باللاتينية ، وكنت أجبه بالفرنسية بيد

إن هذا الخلط بين اللغتين ، لم يقلل من تدفق محادثاتنا ، ولا من حيويتها ، بأى حال ! .. ولقد حسدتنى عن أسرته ، وشغفونه ، ومغامراته ، والبلاط الملكي فى (فيينا) ، الذى بدا على إلمام تام بدقائق الحياة فيه . وموجز القول أننى لم أجد فيه - خلال المستنين اللتين قضيتاهما فى أشد الود - سوى لطف الشخصية فى كل الأحوال ، وسوى أخلاق لم تكن كريمة فحسب ، وإنما كانت مهذبة .. وسوى نظافة تامة فى شخصه ، وهمة مفرطة فى قوله .. كانت له - بإيجاز - كل صفات الرجل الطيب المنبت « مما جعلنى - بغض النظر عن إعزازى إياه - أجهل اسمه إجلال !

* * *

وفى مفتوان علاقته به ، كتب لى دانفيرنوا الجينيفى بأن أهدر شبابا مجريا وغدا للقامة على مقربة منى ، فقد قيل له - فى تأكيد - أنه جاسوس من الوزير الفرنسى ، ليكون عينا على ! .. ولقد دبرت هذه النصيحة لى تسبب لى مزيدا من الطلق « ففى تلك البلاد ، كان كل الناس ينصحوننى بأن أكون على حذر ، لأننى مراقب . وكان الهدف من ذلك استدراجى إلى الأراضى الفرنسية ، ثم الانتفاض على !

ولكى أخرس كل هؤلاء الفاضحين نهائيا ، اقترحت على سوتيرين أن يصحبنى إلى نزهة على الأقدام ، إلى (بونتارلييه) - دون أن أنبئه بشيء - فقبل . وعندما وصلنا إلى (بونتارلييه) ، أمطبته خطاب دانفيرنوا ليقراء ، ثم عاتقته فى حرارة ، وقلت : « ليس سوتيرين بحاجة إلى أن أبرهن له على ثقتى ، ولكن

الجمهور بحلجة إلى غليل يبين من هو جدير بها ! .. وكان هذا العنق عذبا جدا .. كلن من تلك المنع الروحية التى لا يعرف الظالمون مذاقها ، والفنى لا يستطيعون أن يحرموا منها المظلومين !

ولن أصدق قط أن « سوتيرين » كان جاسوسا ، أو أنه خائنى ، بيد أنه غرر بى . فعندما فتحت له قلبى فى غير تحفظ ، إذا به يؤتى الجلد على أن يفلق قلبه ، ويخدعنى بكافيزيه . فقد ابتكر لى قصة لا أرى مأتاها ، جعلنى أحس أن وجوده فى بلاده كان أمرا ضروريا ، فحضرته على الرحيل إليهما دون إرجاء ، وقد عمل ، وعندما خيل إلى أنه قد وصل إلى المجر ، سمعت أنه كان فى (ستراسبورج) . ولم تكن هذه أول مرة يوجد فيها هناك . فلقد أوقع الفرقة فى أسرة بالمدينة ، فكتب لى الزوج إذ عرف أننى اعتدت أن أقابله - ولم أذكر وسما فى رد الزوجة إلى طريق الفضيلة ، ورد « سوتيرين » إلى نطاسق الواجب . وما أن ظفنت أنهما قد افترقا تماما ، حتى عادا إلى اتصالهما ، وأوتى الزوج من اللين واللفظ ما جعله بأوى الشاب فى داره . ولم يبق لى بعد ذلك مجال لقول .

على أننى تبينت أن البارون المزعوم ، قد تقرب إلى بطانة من الكافيزيه ولم يكن اسمه « سوتيرين » - على الإطلاق - وإنما « سوتير شاييم » . أما لقب « بارون » - الذى أطلق عليه فى سويسرا - فليست أملك أن ألومه عليه ، لأنه لم يستحله لنفسه قط ! .. على أننى لا أرتبب فى أنه كان سيذا مهذبا راقيا حقا ، وقد اعتاد اللورد المارشال - الذى كان خيرا بالرجال - الذى عرف بلاده من قبل - أن ينظر إلى لى بعينه كسيد !

وما أن رجل « سوترين » ، حتى أعلقت خادِم الفندق الذي اعتاد تناول الوجبات فيه - في موبير - أنها حبلت عن طريقه . وكانت عاهرة قذرة ، في حين أن « سوترين » كان محترما لدى الجميع ، وكان معروفا في كل مكان بمسلكه وخلقه الكريمين ، وبأنه كان جد مخور بنظامته وعفته . ومن ثم أذهلت هذه الواقعة جميع الناس . وهاج بسخط أيدع حسان البلد ، اللاتى كن يؤثرنه بفاتنهن دون جدوى . كذلك ثرت أنا استنكارا ، ورحت أبذل كل جهد في سبيل الزج بهذه الفاجرة في السجن ، عارضا أن انتكل بجميع النفقات ، وأن أكون ضامنا لسوتر شاييم . وكتبت إليه وأنا أشد ما أكون اقتناعا « لا بأن هذا الحمل لم يكن ذنبه محسوب ، وإنما بأنه حمل مزعوم ، وأن كل هذه الضجة لم تكن سوى مكيدة دبرها اعداؤه وأعدائى . ورغبت إليه في أن يعود إلى البلد ، ليخزى هذه المجرمة ، وأولئك الذين كانوا يعرضونها . وكم بهت لميوعة رده . فقد كتب إلى راعى الأبرشية التى كانت الفاجرة تنتمى لها ، وحاول أن يخمد المسألة . ومن ثم فقد كلفت عن التدخل فى الأمر ، وأنا فى أشد الدهشة من أن يستطيع رجل انحط إلى هذا الدرك ، أن يسيطر على نفسه بالشكل الذى مكّنه من أن يخدعنى بتحفله طيلة الفترة التى كما فيها على أوتق اثنتالاف !

ومن (ستراسبورج) انتقل « سوترشاييم » إلى (باريس) سعيا وراء الحظ ، فلم يفر إلا بالشفاء . ولقد كتب إلى معتزلا بخفيوه ، غففت عواطفى لذكرى صداقتنا القديمة ، وأرسلت إليه بعض المال . وعندها مررت بباريس ، فى العالم القالى ، رأيته

— مرة أخرى — فى عين الحال تقريبا ، ولكنه كان قد أصبح صديقا حميما للسيد لالباود . ولم يقدر لى إطلاقا أن اعرف كيف تعرف إليه « وما إذا كان هذا التعارف حديث عهد أو قديما . وما لبث « سوترشاييم » أن عاد إلى (ستراسبورج) ، بعد علبين ، وكتب إلى من هذا المكان .. وفيه ملت !

هذه — بيلجاز — قصة علاقتى به ، ومخايراته . ولكنى — فى الوقت الذى انمى فيه حظ هذا الفمس — سأظل أو من بأنه كان طيب المنبت ، وأن كل ما تبدى فى سلوكه من اضطراب ، لم يكون سوى نتيجة المواقف التى تردى فيها !

وهكذا كانت المكاسب التى نمت بها من (موبير) فى مجال العلاقات والصداقات . وما أكثر ما كنت بحاجة إليه من هذه العلاقات ، لأعوض الخسائر القاسية التى منبت بها فى تلك الفترة ذاتها .. فلقد منبت أولا بفقد السيد دى لوكسمبورج الذى تعذب طويلا على أيدى الأطباء « ثم راح — فى النهاية — ضحية لهؤلاء الذين كانوا يعالجون الفقرس على أنه مرض يسهل عليهم إيراؤه ، دون أن يعترفوا بحقيقته ! .. ولو أننا أخذنا بالرواية التى كتبها لى « لاروش » — موضع ثقة السيدة دى لوكسمبورج — بهذا الصدد ، لوجدنا فى قصته مثالا قاسيا واليم الذكري ، لدى صائب العظيمة !

ولقد كان لفقد هذا السيد العظيم الطبيب ، وقع شديد على نفسى ، إذ أنه كان الصديق الوحيد الذى بقي لى فى فرنسا ..

ولقد كانت رقة شخصيته بالغة ، حتى أنها انسفت مكانته ومزنته ، مارطت به وكأنني ند له . ولم تنته وشائجنا برحيلي عن البلاد ، بل إنه واصل الكتابة إلى ، كما كان شأنه من قبل . ومع ذلك ، فأنني ظلت أن غيابي أو نحس طالعي قد أخطى عواطفه نحوي . فمن المسير على عضو في حاشية الملك ، أن يحتفظ بنفس العلاقة مع شخص كان يدرك أن السلطات غاضبة عليه . كذلك انتهى بي التفكير إلى أن التأثير الكبير الذي كان للسيدة دي لويسبورج عليه ، لم يكن موافيا لي في شيء ، وأنها قد انتهزت فرصة غيابي لكي تسوء إلى في نظره . بل إنها — بالرغم من مظاهر الود الحارة ، التي أخذت في التضاؤل — لم تعد تجشم نفسها عناء إخفاء تحول عواطفها عني . ولقد كتبت لي أربع مرات أو خمسا « على فترات متباعدة — وأنا في سويسرا — ثم كتبت عن الكتابة نهائيا . وكان لا بد لي من كل التكهّنات ، وكل الثقة ، وكل الغباء الاعمي — الذي كنت اتخبط فيه مرة أخرى — حتى لا أبصر البرود الذي شال عواطفها إزائي !

ولقد كتب لي الفلنشر « جاي » — شريك دوشين ، الذي أصبح كثير الفردد على قصر لويسبورج بعد رحيلي — ينبئني بأن اسمي ورد في وصية السيد المارشال . ولم يكن في هذا ما يدعو إلى المجب ، أو ما يجلب على التصور ، ومن ثم فأنني لم أرتب فيه . وقد حملني هذا على أن أقدر — بيني وبين نفسي — ما ينبغي أن يكون عليه موقعي من الوصية . وبعد روية وتفكير ، عذمت على قبولها ، مما تكن ، وأن أعبر بهذا

عن تكريمي لرجل أمين ، حمل لي ودا صادقا ، بالرغم من انتمائه إلى طبقة لا تنفذ الصداقة إلى مشاعر ابتائها قط . على أنني أعفيت من هذا الواجب ، إذ أنني لم أسمع إطلاقا عن الوصية مرة أخرى . سواء كانت القصة صحيحة أو كاذبة . ولقد كان من الشاق على نفسي — في الحقيقة — أن أهدر مبدأ من مبادئ الخلفية الكبرى ، إذ أفيد من موت أمريء كان جد عزيز لدى . ولقد حدث أثناء المرض الأخير لصديقنا « موسار » ، أن عرض « لينيب » على أن نستغل امتنقه لودنا « وعرفانه لمانيتنا به ، فنقترح عليه أن يترك لنا في وصيته شيئا . فما كان مني إلا أن قلت له : « آه ، يا عزيزي لينيب ! .. ما ينبغي أن ندنس — بأفكار من المصلحة الذاتية — الواجبات المحزنة » ولكنها مقدسة ، التي يجب علينا أن نؤديها لصديقنا المحتر : » .

وانني لآمل ألا أذكر قط في وصية أي أمرئ ، لا سيما إذا كان صديقا . ولقد تحدث إلى سيدي المارشال — حوالي هذه الفترة — عن وصيته ، وما كان يعتزم أن يفعل من أجله ، فأبدت في هذه المناسبة الرد الذي ذكرته في الجزء الأول من اعترافتي (١) .



وكانت الخسارة الثابتة التي حافت بي ، أكثر إيلاما وأعز من أن نعوض . . تلك هي فقدان خير النساء والأمهات ، التي كانت السنون قد انثقت كاهلها ، ثم أعياها حمل العطل والمحن ،

Looloo

www.loloo.com

مهجرت هذه الحياة — وادى الدموع — لتفتقل إلى ملاذ الطيبين
والصالحين ، حيث تكون فكرى الخير الذى اسديتاه فى هذه
الدنيا ، هو خير جزاء نكافأ به عنه . فاذهبى أيتها الروح
الوادعة المحبسة ، إلى جوار غينولون ، وبرنيكس ، وكاتينا ،
وكل أولئك الذين حذوا حذوهم ، مفتوحوا قلوبهم للخير والإحسان
الحقيقيين ، برغم تواضع ظروغهم ! .. اذهبى فتذوقى ثمرة
إحسانك ، ومهدى لتطيفك المكان الذى يأمل أن يشغله يوما ،
إلى جوارك ! .. وما أسعدك وسط كل مصائبك ، فان السماء
— حين وضعت لها نهاية — قد جنبتك قصوة براى مصائبى ! ..
ذلك لأننى لم أكتب إليها إطلاقا ، عقب وصولى إلى سويسرا ،
خشية أن ادخل الأسى على مؤادها بذكر مصائبى الأولى . بيد
أننى كتبت إلى السيد دى كوزيبيه ، أنشد أنباءها . ومنه علمت
أنها قد كتبت عن أن تواسى آلام الغير ، وأن آلامها هى قد
انقضت ! .. ولسوف لكف أنا الآخر عن التالم ، عما تريب .
ولو لم أكن أوأم بأننى سأراها ثانية ، فى الملم الآخر ، لأبى
خيالى الواهن على نفسه أن تفكر فى الهناء الكامل الذى أتطلع
إليه هناك !

أما المصائب الثالث والآخر — إذ لم يعد لى بعده أصدقاء أبنى
فيهم — فهو فقدان سيدى اللورد المارشال . وما فقدته
بالموت ، ولكنه حين سئم خدمة سادة جاحدين ، هجر
نيوشاتيل ، فلم يقدر لى أن أراه بعد ذلك . وهو ما يزال على
قيد الحياة ، وآمل أن يعيش بعدى .. إنه ما يزال على قيد
الحياة ، ومن ثم فإن الروابط التى تربطنى بالأرض ، لم تنقطع

عن آخرها ، بفضل . . فما يزال باقيا على الأرض رجل جدير
بصداقتى . . الصداقة التى تمثل قبتها الحقيقية فى الود
الذى يحس به المرء . أكثر منها فى الود الذى يوحى للغير . غير
أننى فقدت البهجة التى كانت صداقتى تملأ بها نفسى ، ولم أمد
اليوم أمك أكثر من أن أعده بين أولئك الذين ما أزال على حبهم ،
وإن كانوا لم يمدوا على اتصال بى . فلقد ذهب إلى إنجلترا
ليطلقى العلو من الملك . وليستقر ثروته التى كانت قد
صودرت . ولم نفترق دون أن ندبر للقاء جديد . بدا أن توقعه
كان يوحى إليه بقدر ما كان يوحى إلى من سرور .

وكلن قد اعترم الإقامة فى قصر (كيث هول) — على مقربة
من (أبردين) — فتم الاتفاق على أن أزوره هناك . ولكن هذا
الاحتمال كان أكثر بهجة من أن أطمعنى تحقيقه يوما . ولم يطل
مكث السيد المارشال فى سكتلندا ، فان الإلحاح الرقيق الذى
لاحقه به ملك بروسيا ، لم يلبث أن رده إلى برلين . وسيتبدى
— غيبا بلى — كيف حيل بينى وبين أن انضم إليه .

فعمدما رأى — قبيل رحيله — أن العاصفة كانت توشك أن
تهب على مرة أخرى ، أرسل إلى — من تلقاء نفسه — وثائق
إثبات نجس بالجنسية البروسية . وقد بدا هذا احتياطا
جد مأمون ، حتى يصبح من المستحيل طردى من البلاد .
ولقد حذا اتحاد مدينة (كوفيه) — فى نال دى ترانير — حذو
الحكم ، وكفل لى حقوق المواطن ، دون ما مقابل ، كما حدث
إزاء الوثائق الأولى . وإذا أصبح مواطننا كاملا — من جميع
الاعتبارات — غدوت فى حى من أى إحصاء لغوى من البلاد ،

ولو صدر هذا الإقصاء عن الساحل ذاته . ولكن أعدائى لم ينبهوا يوما الوسائل المشروعة فى اضطرار رجل كان دائما يفوق سواء احتراماً للقوانين !

ولست أرى من الواجب أن أحصى بين الخصائص التي منيت بها - في تلك الفترة بالذات - وفاة الراهب «دي مابلي» . فإن أولفتي في دار أخيه ، مكنتني من أن أكون على تعارف بسيط معه ، ولكنه لم يرق قط إلى مرتبة الألفة والصداقة . ولدى من الأسباب ما يجعلني على أن اعتقد أن مشاعره نحوي قد تبدلت مذ ظنرت بصيت ذائع « يفوق حسيته » . على أنني لم أنطن إلى أولى بوادر سوء نيته ، إلا بعد نشر « رسائل من الجبل » . فلقد روج في جنيف خطبا إلى السيدة «سالادان» ، عزى إليه أنه كاتبه ، وقد وصف فيه مؤلفي بأنه ضجيج مضلل ، صادر عن تعصب شعبي جامح . ولم يكن الاحترام الذي كنت أكنه للراهب «دي مابلي» ، وما كان لدى من رأي في تنوره وسعة ذهنه ، من أن أصدق لحظة أنه كاتب ذلك الخطاب المتعالي .

ورأيت أن اتصرف وفق ما ألقته على هراحتي ، فأرسلت إليه نسخة من الخطاب ، وأنبأته بأنه كان معزوا إليه . ولكنه لم يجب . وقد أذهلني هذا الصمت منه ، ولكن في الوسع تصور دهشتي عندما أنبأني السيدة دي شينونسو بأنه هو الذي كتب الخطاب حقاً ، وأن رسالتي قد أخرجته أثبت الإهراج . . ذلك لأنه إذا كان على صواب ، فكيف كان يستطيع أن يبرر خطوة رثاءة، علنية، منبرت عن طيب خاطر وطواعية.

دون ما غصب أو إلزام ، ودون ما ضرورة ، ودون أن يكون لها أية غلبة ، سوى الإساءة إلى رجل في أشد مخنة . . رجل لم يبد له قط سوى كل نية حسنة . ولم يقصر يوماً في تقديره؟

ولقد ظهرت — بعد ذلك بقليل — «محاورات غوسميون» (١٦) التي لم أر فيها سوى مجموعة منتخبات من كتاباتي ، أعدت في جراحة ، ودون استحياء . وشعرت وأنا أقرأ هذا الكتاب ، بأن المؤلف كان قد بت في أخرى ، وأنتى لم يعد لى من الد منه عدا ، منذ ذلك الحين . وأعتقد أنه ما كان ليهلك أن يغفر لى يوماً أن كتبت «المقد الاجتماعي» — الذى كان فوق طائفة مواهبه — ولا «السلام الدائم» . . وأنه لم يكن يرجو — على ما بدا لى — سوى أن أعد مختارات من مؤلفات الراحب «سان بيير» ، لأنه ظن أنني لن أولق فيها (١٧) .



كلما أوغلت في قصتي ، ظلت قدرتي على تنسيقها وترتيب
سياقتها ، تمنح الاضطراب الذي ساد بقية حياتي ، لم يدع

(١١) كان « فوضيون » قائداً وخطيباً أثبتت في القرن الرابع قبل الميلاد .
وكان دامية للسلام ، « بقدر ما كان جندياً بأسلاً . وقد عرف بتكرار الذات .
وليامة الحوار . والقدرة على الانتقام .

۱۲۱. کتاب التواضع «دی مایلی» «قد عرض علی روسو» «مراجعة مؤلفات الأب دی مایلی» «والاختیار أصلها للنفس» «ولکن روسو» «مد» «الی جانب الاختیار» «الی تسجيل تعالیم» «والمؤلف یسجد کلمات الأب دی مایلی» «ضمنها کتابه» «العلم الاکسیر» «ویر» «اصیاف انظار»

للأحداث وقتا لتنظم ذاتها في رأسي . إذ أنها كانت من الكثرة . ومن الاقتراح ، ومن الإزعاج بحيث لا يتسنى روايتها دون خلط أو اضطراب . ولقد كان الطابع القوي الوحيد الذي خلفته هذه الأحداث في ذهني ، هو ذلك الضمير الرهيب الذي أحاط بسببها ، والحال الداعية للرثاء ، التي هوت بي إليها !.. ولا سبيل إلى استطراد القصة إلا وقتا للمصادفة ولتوارد الأفكار على ذاكرتي . وانكر أنني — في الفترة التي أتحدث عنها ، وأثناء استغراتي في « الاعترافات » — كنت من الحكمة بحيث أتحدث عنها إلى كل أمرى ، دون أن أتصور مرة واحدة أن لأحد ما مصلحة ، أو رغبة ، أو قدرة على أن يلقي العرائيل في طريق هذا المشروع .. وحتى لو أن هذا خطر لي لما كان بوسعي أن أبدى مزيدا من التكم ، إذ أن طبيعتي تجعل من المستحيل تماها على أن أخفي شيئا من افكاري ومشاعري . ولقد كان تكتم أمر هذا المشروع — بقدر ما بوسعي أن أحكم — هو السبب الحقيقي للمصاصة التي أثرت لإقصائي عن سويسرا ، وللإلقاء بي بين الأيدي التي كانت خليقة بأن تمنعني من تنفيذه !

وكان لدى مشروع آخر ، لم يكن يحظى من أولئك الذين كانوا يفضون المشروع الأول ، بمزيد من الرضى .. وذلك هو إصدار طبعة عامة من مؤلفاتي . فقد تراءى لي أن مثل هذه الطبعة ضرورية لتعزيز ما كان يبت إلى حقا من تلك الكتب التي كانت تحمل اسمي ، ولجعل الجمهور في وضع يمكنهم من أن يميزوها ويفرقوا بينها وبين المؤلفات التي كانت تحمل أسماء مستعارة ، وكان أعدائي يعزونها إلي ، لكي يشوهوا

سمعتي ويحطوا من قدرى . وفلا عن ذلك ، فإن هذه الطبعة كانت كغيلة بأن تصبح وسيلة سهلة وشريفة لتأمين مورد للمعيش . بل إنها — في الواقع — كانت الطريقة الوحيدة ، إذ أنني كنت قد هجرت تأليف الكتب ، وما كان في الوسع نشر مذكراتي أثناء حياتي ، ولم أكن أكسب « سو » واحدا بأية طريقة أخرى ، في حين أنني كنت أتفق باستمرار .. ومن ثم فقد أيقنت من انتهاء مواردی بمجرد استنفاد إيراد مؤلفاتي الأخيرة . ولقد حملني هذا السبب على أن أتعجل ظهور كتابي : « الموسوعة الموسيقية » ، وإن لم يكن قد اكتمل . وقد در على ملئة « لوى » نقدا ، ومائة « أيكو » سنويا ما حييت . ومع ذلك ، فقد ظل من الواجب توقع نفاذ المائة « لوى » سريعا ، لا سيما وقد كانت النفقات تزيد على الستين سنويا .. كما أن المائة « أيكو » كانت بمثابة لا شيء ، لرجل كان النكرات والمسؤولون يحومون حوله — دون انقطاع — كالمصافير !

وهضت فكرة من تجار نيوشاتيل أن تعمد مشروع مجموعة المؤلفات . واستطاع صاحب مطبعة — أو تاجر كتب — من (ليون) « يدعى » ريجيا « أن يندس بينهم ، بطريقة لا أخريها ، ليتولى توجيههم . وعقدت اتفاقية ، وفقا لشروط معقولة ومرفضة ، لتحقيق بقيتي خير تحقيق . وكانت مؤلفاتي المطبوعة ، وتلك التي ظلت بخط اليد « تكفى لأن تملأ ستة مجلدات من حجم « ربع القطع » أو « الكوارتو » . وقد تعهدت — فوق ذلك — بأن أشرف على الطبعة ، في مقابل أن يؤدوا لي مغلما لدى حياتي — قدره ألفا ومئتان ليرة فرنسية — ومبلغا يدفع نقدا ، مرة واحدة ، قدره ألفا ومئتان ليرة فرنسية .

مسقة ١٧٦٥

كانت الاتفاقية قد عقدت ، ولكنها لم تكن قد وقعت .
عندما ظهر كتاب « رسائل كتبت من الجبل » ، فإذا السخط
الفظيع — الذى انصب على هذا الكتاب الجهنى وعلى مؤلفه
المقبت — يزرع الشرقة ، ومن ثم انفض المشروع . وبوسعى
أن أشبه أثر هذا المؤلف الأخير ، بلتر « رسالة عن الموسيقى
الفرنسية » ، لولا أن هذه الرسالة وإن جلبت على السخط
وعرضت للخطر ، إلا أنها تركت لى الاعتبار والاحترام ، على
الأقل . أما بعد هذا المؤلف الأخير ، فقد تبيت الدهشة في
(جنيف) وفي (فرساي) ، من ترك وحش مظى ، بتنفس
ويعيش . وإذا المجلس الصغير — بتحريض من الوزير الفرنسى
المقيم ، وبتوجيه من المدمى العام — يصدر بيانا عن الكتاب ،
أعلن فيه ، بعد وصفه بأقذع التعموت ، أنه غير جدير بأن يحرق
بيدى منفذ الأحكام . . وأضاف إلى هذا — في دهاء ، يكاد يثير
الضحك — أن لا سبيل لأمريء إلى الرد على هذا الكتاب ، بل
إلى مجرد ذكره ، دون أن يشين نفسه !

ولكم اتبنى لو استطعت أن أنقل هنا هذا البيان المعجيب ،
ولكنى — لسوء الحظ — لا أملك نسخة ، ولا أذكر كلمة واحدة
منه . وقد ما أرجو أن يفضل أحد من قرائى — بدافع من
الخيرة على الحقيقة والعدالة — على إعادة قراءة « رسائل من
الجبل » بأكمله . واستطيع أن أقول إنه سيلبس الاعتدال
الشديد الذى ساد هذا الكتاب ، بعد الإهانات العنيفة القاسية ،
التي تبارى الناس في حبها على المؤلف . ولكن أعدائى — إذ

عجزوا عن الرد على السباب ، لأن الكتاب لم يحو شيئا منه . .
ولا على الحجج ، لأنها كانت منجمة — عمدوا إلى التظاهر بأنهم
أكثر فرقا من أن يجيبوا . . ومن الصحيح حقا ، أنهم إذا
حملوا الحجج المنجمة على أنها إهانات ، لحق عليهم أن يشمروا
بأنهم أوثقوا اشد الإيذاء !

أما فريق المقنمين ، فأنهم بدلا من أن يثيروا أبة شكوى من
هذا البيان البشع « سلخوا الطريق التي رسمها لهم . . وبدلا
من أن يجدوا « رسائل من الجبل » كغصية ظفروا بها ، إذا
بهم يستترون خلفها كدرع . . فكانوا من الجبن بحيث أنهم لم
يؤدوا أى تكريم ولا إنصاف إلى هذا المؤلف الذى وضع للدفاع
عنهم وعن مطالبهم . . بل إنهم لم يذكروه ، ولا نقلوا عنه ، وإن
كانوا قد اقتبسوا منه — في الخفاء — كل حججه . . وكانت
الدقة التي اتبعوا بها النصيحة التي اختتم بها هذا المؤلف ، هي
السبب الوحيد في خلاصهم وانتصارهم ! . . لقد فرضوا على
هذا الواجب ، وقد أدبته . . ولقد خدمت الوطن وقضيتهم
إلى النهاية . ولقد توسلت إليهم أن يتخلوا عن قضيتى
ولا يفكروا إلا في أنفسهم ، في مشاغلهم . وقد أخذوني بكلمتى ،
فلم أتدخل في شئونهم بأكثر من أن رحت أستحثهم على السلام ،
دون انقطاع . وما من ريب لدى في أنهم لو كانوا قد مضوا في
عنادهم لأنفسهم ، لسحقهم فرنسا . وهذا ما لم يحدث . .
وانى لأدرك السبب ، ولكن هذا ليس مجال الإغضاء به !

ولقد كان الأثر الذى أحدثه كتاب « رسائل من الجبل » في
نيوشاتيل ، يتسم بالهوء في البداية . . .

منه إلى السيد دي مونتولان ، فسرته أن حصل عليها ، وقرأها دون أن يجد فيها مأخذاً . وكان مريضاً - مثلى - فلما استرد صحته ، قام بزيارة ودية لى ، ولم يقل شيئاً عن الكتاب . ومع ذلك ، فإن الهياج كان قد دب ، وأحرق الكتاب حيث لا أدري (١) . ومن الجفيف ، ومن البين ، وربما من (غرساي) ، لم يلبث مركز القوران أن انتقل إلى (نيوشاتيل) ، وإلى (غال دي ترامير) - بوجه خاص - حيث بدى ، حتى قبل أن تبدر عن طبقة رجال الدين أول بادرة ، في تحريض الجمهور بالأساليب المستخفية . ومن حق أن أقول إننى كنت خليقاً بأن أكون محبوباً من أهل هذه البلاد ، كما كنت من جبيع أولئك الذين عشت بينهم . وكنت أغدق الصدقات بسخاء . لا أدع محتاجاً ممن يحيطون بى دون معونة ، ولا أرفض أن أؤدي أية خدمة في نطاق مقدرتى ، ما دامت تتشبه مع العدالة . بل لعلى كنت أسرف في التآلف مع كل الناس أكثر مما ينبغي . كما إننى اعتدت - بقدر ما وسعنى - أن أرفض كل تمييز في المعاملة ، قد يفر الفجرة ! .. ومع ذلك ، فإن كل هذا لم يحل دون استنهاض السكان سرا ، دون أن أدري محرضهم ، ومن أن بوغروا تدريجاً ضدى ، حتى بلغوا درجة الهياج . فراحوا يسبوننى علناً في رابعة النهار ، لا في الريف ، أو في الطرق الخلوية محسب ، بل وفي الشوارع الرئيسية . وكان أشدهم تحرشاً بى « هم أولئك الذين أسدبت إليهم أكبر

(١) في باريس ، مع « الموسوعة الفلسفية » لافولتير ، وبنفس القرار



فراحو يسبونى علناً في رابعة النهار ، لا في الريف ، بل وفي الشوارع الرئيسية

فسط من الخير . . بل ان من الناس - الذين اصلت إسداء المعروف إليهم - من لم يجزؤوا على التحرش علنا ، فراحوا يثيرون الباقيين ، وكانوا كانوا بهذه الطريقة يثيرون لأنفسهم من هوان أن يكونوا مدبئين بالفضل لى ! .

ولم يبد على مونتولان أنه رأى شيئا مما كان يجرى ، لا ولم بعد يزورنى . على أنه لم يلبث أن زارنى - إذ اقتربت إحدى مناسبات الاحتفال بالقربان - لينصحنى بأن أتفادى حضورها ، مؤكدا لى أنه لن يعارضنى فى غير ذلك ، وأنه سيسعدنى فى سكتنى . والفيت هذه المجاملة منه غريبة فى نوعها . وذكرتى بخطاب السيدة دى بوفلير ، فلم أستطع أن أفقه أن من الممكن أن يكون لى أحد شأن بها إذا كنت أتناول القربان أو لا أتناوله . وإذ وجدت أن قبول اقتراحه بعد جينا من ناحيتى ، فضلا من أننى لم أكن راغبا فى أن أتيح للناس هذه الحجة الجديدة كى يصيحوا فى وجهى : « ها هو ذا الكافر ! » ، فأننى رفضت رجاء القس رفضا باتا ، وإذا به يستاء ويوحى إلى باننى لن ألبث أن أندم . على أنه لم يكن يملك أن يمتنعى من التناول بأمر منه وحده ، بل كان لابد من قرار من المجمع الدينى الذى سمح له بالانضواء تحت لواء الكنيسة . وما دام المجمع لم يتل شيئا ، فقد كان من حقى أن أتقدم فى جراحة « دون أن أخشى رفضا . ومن ثم فقد عمد « مونتولان » إلى الحصول من التساوسة على تخويل بدعوتى للثول أمام المجمع ، لأقدم حسبا عن إيمانى ، على أن أجازى بالحرمان ، إذا أنا أبيت أن ألبى الدعوة .

على أن الحرمان بدوره لم يكن ميسورا ما لم يصدر عن المجمع وبإجماع الآراء . ولكن الفلاحين الذين القوا هذه الهيئة - تحت اسم الشيوخ الحكماء - كانوا تحت رئاسة القس ، وبالتالي تحت نفوذه ، كما هو مفهوم . فلم يكن لهم - بطبيعة الأمر - رأى سوى رايه ، لا سيما فى المسائل اللاهوتية ، التى كانوا أقل إغراكا لها منه . ومن ثم فقد قررت أن ألبى الدعوة ، عندما أعلنت بها !



أى طرف سعيد ، وأى نصر لى ، لو أننى عرفت كيف أتكلم - فى هذه المناسبة - عن نفسى « وأن أضع قلبى فى مسمى ، كما ينبغي أن يقال ! . . بأى تنوق جانج ، وبأى يسر كان فى مسمى أن اهزم القس البائس ، وسط فلاحيه الستة ، أعضاء المجمع ! . . كان الطمع فى السلطان قد أنسى رجال الدين البروتستانت مبادئ الإصلاح الدينى ، وكان كل ما يعوزنى لتذكيره بهذا « وإلزامه ، هو أن أشرح الرسائل الجبلية الأولى ، التى كانوا من القباء بحيث راحوا يميؤونها على . وهكذا كان موضوعى معدا ، ولم يكن ينقصنى سوى الثول أمام المجمع ، ناذا غريشى يغحم ! . . وما كنت من القباء بحيث اقتصر على الدفاع ، بل كان الجو ممهدا لأن أقلب مهاجما ، دون أن يغلبن هو ، ودون أن يتوى على صد الهجوم . ذلك لأن الحقى القاطنين من رجال الدين ، كانوا عطلى العقول بقدر ما كانوا جهلة ، وقد وضعوا أنفسهم - بالنظم التى وضعوها - فى اتسب وضع كنت اشتبهه ، لكى أذهبهم كذا يتناولون

ولكن مهلا ! .. كان لا بد لي من أن أتكلم ، ومن أن أتكلم في الموضوع ، ومن أن أعتبر على الإنكار ، وأن ألقبها على كل جانب ، وأن أجد الكلمات في لحظة الحاجة إليها ، وأن أحتفظ دائماً بحضور بديهي ، وأن أكون هادئ الأعصاب باستمرار . فلا اضطرب لحظة واحدة .. مما الذي كنت أملك أن أجد نفسي من نفسي ، وأنا الذي كنت المس تبليها مجزى من أن أعبر عن نفسي للنور .. لقد اضطرت إلى أن ألزم أزرى حالات الصمت ، في (جنيف) ، أمام لجنة كانت محابية لي كل المحاباة ، وكانت قد عقدت العزم مقدما على أن تحب كل ما أقول (١) . أما هنا ، فقد كان الأمر على النقيض .. كان على أن أنزل شخصا مشاكسا ، وضع الدهاء في موضع المعرفة ، وفي وسعه أن ينصب لي مائة شرك ، قيل أن المح واحد منها ، وقد عقد عزمه على أن يظهرني مخطئا ، مهما يكده هذا من ثمن ! .. وكنت كلنا فحمت بوقتي هذا ، ازدادت شعورا بخطر . فلما اقتنعت بأن من المستحيل أن انتزع نفسي من هذا الموقف بنجاح ، فكرت في حيلة أخرى . ورجعت أفكر في خطاب اعتبرت أن ألقه أمام المجمع ، لكي أطمئن في اختصاصه ، فأحل نفسي من ضرورة الإجابة . وكان الأمر غاية في السهولة ، فكتبت الخطاب ، وشرعت أستفكره عن ظهر قلب في تحبس لا مثيل له . وإذا سمعته « تيزيز » وأنا أهتم لنفسي — بلا انقطاع — مكررا نفس العبارات « محاولا أن أحشعها في رأيي ، راحت تضحك مني . وكنت آمل أن أسفوعب الخطاب في النهاية .

(١) وودت هذه الفانسية في صفحة ١٨٩ — الجزء الثالث .

فقد كنت أعرف أن حاكم المتأملعة — كمنسوب من المساهل — سيحضر جلسة المجمع ، وأن معظم الشيوخ كانوا — بالرغم من مناورات مونسولان وزجاجات الخبر التي وزعها — طيبين الشعور نحوي . وكان ينصرتني المنطق ، والحق ، والعدالة ، وحماية الملك ، وسلطان مجلس الدولة ، ودعوات كل المواطنين الصالحين الذين ناثروا بتقرير هذا التحقيق .. كان كل شيء يساهم في تشجيعي ، في الواقع !

وما أن حان اليوم السابق على الموعد المحدد ، حتى كنت قد حفظت خطابي عن ظهر قلب ، ورجت إردده دون ما خطأ . ورجت استرجعه ثانية ، في ذهني ، طيلة الليل . ولكنني في الصباح .. نسيت ! ورجت أتردد عند كل كلمة .. وبثقت نفسي أمام المجلس الموقر ، فاذا بي أرتبك ، وأطمع . وإذا بفكري يتشقت ! .. وأخيرا ، خذلتني شجاعتي تماما ، في لحظة الانطلاق ، فبقيت في البيت ، وعزمت على أن أكتب إلى المجمع ساردا — في عجلة — أسبابي ، ناسبا عدم ذهابي إلى ذكرك صحتي التي كانت — في حالتها تلك — تجعل من المستحيل علي حقا ، أن أبحث طيلة الجلسة !

وأخرج خطابي الوزير ، فأرجا القضية إلى جلسة أخرى . وفي تلك الأثناء ، راح ييذل — هو وأذنابه — ألف حيلة وجهد ، لإغراء أولئك الذين لم يتبعوا سوى إيماعات ضائرتهم دون إيماعاته ، من الشيوخ الذين لم يروا ما كان يراه هو ورجال الدين . وبالرغم مما كان للحجج — المستندة من قبح الخمر في داره — من تأثير على أناس من هذا القبيل ، إلا أنه لم يستطع

ربين نفسى - من قبل ، فلم أتردد على أن أنتهى إليه مع فريق رجال الدين ، ولكن بشرط ، وفيما ينطق بالمسائل الدينية نحسب - وتعمد مونولان أن يبعد مسيقتين من الاتفاق ، بسبب تعديلات أدخلها على الصيغة الاولى . وحدث أن قبول القرط بالرفض من حزب رجال الدين ، فطلبت رد الاتفاق المكتوب ، وإذا مونولان يرد إلى إحدى النسختين ويحتفظ بالأخرى ، زاعما أنه أطفها ! .

وعمد الجمهور - بعد ذلك ، وبتحريض رجال الدين - إلى السخرية من تعليمات الملك ، ومن أوامر مجلس الدولة ، ولم يمودوا يقفون عند حد ، في جبهتهم . وكانت الهجمات تشن على خلال المواعظ ، من فوق المنابر ، غلبت بى « عدو المسيح » ، وطوردت في الريف كما لو كنت ذئبا مسعورا . وكانت ثيابى الأرمنية سمة كافية كى يعرفنى الناس بها . فأنحسست أقصى الإحساس بعدم ملائمتها ، ولكن نبذها - في مثل هذه الظروف - كان ، في رأيى ، بمثابة الجبن . فلم أستطع أن أحل هذه المشكلة ، وظللت أتمشى في كل مكان مهدوء ، وأنا في القفطان « وقد ارتديت القلنسوة القرو ، تنبغنى سخريات الفوغاء وصياحهم .. وقطع الحمى التى كانوا يقذفوننى بها أحيانا ! .. وكلم من مرة سمعت - وأنا أمر بالمنازل - أصوات ساكنيها وهم يصيحون : « ناولونى بتدقنى ، حتى أردية في مكانه ! ! . ولم أكن أوسم الضطر : فكان هذا بضاعف من حقهم ، لكنهم قتلوا دائما على

أن يكسب أحدا سوى الاثنين أو الثلاثة الذين كانوا أوفياء له من قبل » والذين عرفوا باسم « شياطينه اللعينة » ! . واستطاع مندوب الملك والكولونيل « دى بوري » - الذى أبدى كثيرا من الهممة في هذه المسألة - أن يحل ببقية الأعضاء على أن يلزموا نطساق الواجب . فلما أراد « مونولان » أن يدفع قرار حرمائى من الكنيسة قدما ، رفض اقتراحه رفضا باندا بأغلبية الأصوات . ولم يبق أمامه سوى إثارة الناس - كحيلة أخيرة - فشرع يعمل جهارا ، بمساعدة زملائه وغيرهم . واستطاع أن يوفق إلى درجة أفنى اضطرت في النهاية - بالرغم من التعليمات العديدة الشديدة للهجة من الملك ، وبالرغم من جميع أوامر مجلس الدولة - إلى مغادرة البلاد ، حتى لا أعرض مندوب الملك إلى الاغتيال بسبب جهوده للدفع عنى .

ولست احتفظ لهذه القضية كلها ، بغير ذكرى مهوشة إلى درجة يستحيل على معها أن أثبت أى ترتيب أو روابط بين الأفكار التى تعاودنى عنها . ولست أملك سوى أن أعرضها متفرقة ، متباعدة ، كما تتوارد على ذهنى . وإنى لأذكر أن شيئا من المفاوضات دار مع رجال الدين ، وكان مونولان وسيطا في ذلك . ذلك لأنه كان قد نظاهر بالخشية من أن تؤدى كتاباتى إلى قلقة هدوء البلاد ، الأمر الذى كان يعتبر نفسه مسئولا عنه إذا ظل يبيع لى حرية الكتابة ! .. ومن ثم فقد عود إلى الإعجاز إلى بأن من الممكن التجاوز عن الماضى ، إذا أنا القيت العلم من يدى . وكنت قد انتهيت إلى هذا - فيما يبى

التهديد والوعيد .. فيما يتعلق بالأسلحة النارية ، على الأقل !

على أنقى - خلال هذا الهياج كله - لم اعدم مناسبتين كانتا مبعث سرور عظيم استمراته كل الاستبراء . وكانت اولاهما التي استطعت أن أعرب عن عرفاني بالصنيع ، بفضل سيدي اللورد المارشال . ذلك أن جميع ذوى المكائنة من أهالي نيوشاتيل ، استنكروا المعاملة التي كنت ألغاها ، والمكائد التي كنت ضحية لها ، مما أوغر صدورهم كثيرا على فريق رجال الدين ، إذ فطنوا إلى أنه كان منصاعا لنفوذ أجنبي ، وأنه لم يكن سوى أداة للغير . ممن كانوا يتوارون في المؤخرة وهم يستخونونه على التصرف . ومن ثم فقد بداوا يخشون ألا تؤدي حالي إلا إلى إنشاء محكمة للفتيش (١) ! .. وبذل رجال الحكومة - لا سيما السيد مورون ، الذي خلف السيد دانغرينوا في منصب المدعى العام - كل ما في وسعهم لحمايتي . ومع أن الكولونيل بوري لم يكن سوى فرد عادي ، إلا أنه ناقم جهدا . وكان أكثر منهم توفيقا . فهو الذي ابتكر الوسيلة لخدلان

(١) كانت بحكم التعقيد حيث كانت كمسبة لنسج الزنقة ، انشئت لأول مرة في ١٦ تموز / في سنة ١٧٢٩ ، ثم انتشرت في الفرون الوسطى في فرنسا وإيطاليا وأسبانيا - بوجه خاص - واستفعل نفوذها فكثر جورها . وعنت أداة سياسية أكثر منها دينية . وكانت محاكماتها تجري مرة ، وتستخدم فيها أشجع طرق التعذيب لحمل السجين على أن يقر بالظن الذي يتهم به !

مونولان في المجمع ، بإلزام الشيوخ حدود الواجب . وإذا كان واسع السمعة ، فقد استخدم مكانته في القضاء على الفتنة . ولكنه لم يكن يملك سوى سلطان القانون ، والعدالة ، والمنطق ، في مواجهة نفوذ المال والنبذ ! .. وهكذا لم يكن الفريقان متعادلين ، فأحرز مونولان نصرا عليه ، في هذه الناحية . ومع ذلك فأننى كنت مقدرا جهوده وتحسسه من أجلتي ، وكنت نواظرا إلى أن أقدم له جيلا ، في مقابل جميله ، ما استطعت .. وأن أرد له الفضل بطريقتي ما . وكنت أعرف أنه كان يصبو إلى أن يصبح مستشارا في مجلس الدولة ، ولكنه إذ أساء إلى البلاط الملكي - في قضية القس بيتيبيير - باء بعدم رضى الصاهر والحاكم . فحرّثت على أن اكتب في صالحه - بالرغم من ذلك - إلى السيد المارشال .. بل وتجاشرت على أن أذكر المنصب الذي كان يشتهي ، وكنت موافقا كل التوفيق - بالرغم مما توقعه كل الناس - حتى أن المنصب خلع عليه فوراً بأمر ، الملك .

وهكذا ظل القدر - الذي اعتاد دائما أن يرغمني غالبا ، وأن يخفضني إلى الحضيض ، في آن واحد - يتقاذفني بين هذين النقيضين . وفي الوقت الذي كان الناس يلطخونني فيه بالوحل ، استطعت أن أعيين مستشارا للدولة !

وكانت ثانية المناسبات التي حظيت فيها بأعظم سرور ، هي زيارة تلقيتها من السيدة دي غريديان وابنتها ، التي كانت تصطحبها إلى حمامات بوريون ، التي أعطانا - حضوريا - يومين أو ثلاثة ممي . ولقد استطعت بحاجلاتها الأخيرة ،

وما تجشمته من أجلي ، أن تغلب على نفوري الطويل منها :
 ناذا قلبى - وقد غزته مجالقاتها - بياضها كل الود الذى ظلت
 طويلا تولينى إياه . ولقد تأثرت بهذه الزيارة ، لا سيما فى
 الظروف التى كنت أعانيها ، وعندما كنت فى أشد الحاجة إلى
 مواساة الصداقة ، كى احتفظ بشجاعى . ولقد خشيت أن
 تتأثر أبلغ التأثر بالإهانات التى كنت أعانيها من الأهالى ، وكى
 وددت أن أجنبها المنظر ، حتى لا يلا فؤادها أسى . ولكن
 هذا لم يكن فى طوعى ، ومع أن وجودها كبيع قليلا البذات
 - أثناء زيارتنا - إلا أنها رأت ما يكفى لأن تحس ما كان
 يجرى فى الأوقات الأخرى .

والواقع أننى بدأت أتعرض لأول مرة لحملات ليلية ، فى
 عمر دارى ، أثناء وجودها . غنى صباح أحد الأيام ، وجدت
 وصيفتها نافذتى محجوبة بأحجار قذفت عليها فى المساء . وكان
 ثمة مقعد عريض ، ثقيل ، مثبت تثبيتا قويا فى الطريق ، إلى
 جوار بابى . فإذا به قد نزع من مكانه ، ونقل ، وأقيم على أحد
 أطرافه مستندا إلى الباب ، بحيث كان من المقصود - لولا أن
 اكتشف - أن يهوى على رأس أول شخص يفتح الباب ليفرج .
 ولقد ألت السيدة دى غريديان إلما نابا بكل ما كان يجرى .
 فألى جانب ما كان يوسعها أن تراه بنفسها ، أخذ خادمها
 الخاص بتعرف أهل القرية ، ويستدرجهم إلى الحديث .
 بل إنه رأى وهو بجانب مونولان الحديث . ومع ذلك ، فإنها
 لم تبد أنها انتبهت إلى شيء مما كان يجرى لى ، ولم تحدثنى
 عن مونولان ، ولا عن أى شخص ، ولم تجب بشير كلمات موجزة

على ما كنت - أحيانا - أرويه لها عن نفسى . على أنها لاحت
 مقتنعة بأن إقامتى فى إنجلترا « أكثر ملاءمة لى من أية إقامة
 أخرى . وأسببت فى الحديث إلى عن السيد « هيوم » - الذى
 كان ، إذ ذاك « فى باريس - وعن وده لى « ورغبته فى أن يكون
 ذا نفع لى فى بلاده . وقد آن لى أن أفكر شيئا عن السيد
 هيوم .

كان هذا السيد قد اكتسب فى فرنسا صيتا ذائعا « لا سيما
 بين جماعة دائرة المعارف ، بفضل الرسائل التى ألفها فى الشؤون
 التجارية والسياسية ، ثم - أخيرا - بفضل كتابه فى : « تاريخ
 آل ستيورات » ، وهو الوحيد من مؤلفاته ، الذى اطلعت على
 نسط منه ، مترجما بقلم الراهب بريفو . ومع أننى لم أكن
 قد قرأت مؤلفاته الأخرى ، إلا أننى اقتنعت - على ضوء ما
 قيل لى عنه - بأن السيد « هيوم » كان يجمع بين نزعة
 جمهورية قوية ، تميل - بفضل الأهواء الإنجليزية - إلى
 تحبيذ الترف . وعلى ضوء هذا الرأى ، اعتبرت كل المعاذير
 التى ساقها - لتبريد تصرفات تشارلس الأول - اعجوبة فى
 الرأى المحايد ، ومن ثم فأننى أكبرت فيه صدقه ونزاهته ،
 أكثر مما أكبرت عبرتيه . وكثيرا ما ضاعفت الرغبة فى التعرف
 إلى هذا الرجل النادر واكتساب وده ، من المفريات التى أثارها
 فى نفسى إلحاح السيدة دى بوفلير - صديقته الحبيبة - والتى
 كانت تدفعنى إلى الانتقال إلى إنجلترا .

ولقد تلقيت منه - عن طريقها - عند وصولى إلى سويسرا :
 خطابا مطيبا للخاطر إلى أقصى حد

هذا الرجل الجليل - بأنه كان في عداد أصدقائي ، وبأنهسا
كأنت من أقرب أصدقائه إليه !

ولقد مضى مونبولان قدما في مكانه - بعد رحيلها -
وأصبح القوم لا يقفون عند حد في جوعهم ، ومع ذلك فقد
واصلت نزهاتي على القدمين في هدوء وسط صخيم . واضقت
هواية النباتات - التي كنت قد شرعت في ممارستها بفضول
الذكور دافئون - طرافة جديدة على رياضتي ، وجمعتني
على أن أهتم في الريف « أجمع النباتات ، دون أن أتأثر بصيحات
الفوغاء ، الذين لم يكن هدوء أعصابي ليزيدهم إلا هباحا ! ولقد
كان من الأشياء التي حزت في نفسي ، أن رأيت امبرات
أصدقائي (١) ، أو من كانوا يسمون أنفسهم كذلك « ينضمون

(١) عقب روسو على هذا بقوله : « بدأت هذه الظاهرة المشهورة ، منذ
الثاني في (أيفردون) ، إذ أن السيد الاطعاسي روجان توفي بعد رحيلي عن
هذه المدينة بعام أو اثنين ، فلذا أبوه الشيخ يجد من الأمانة ما يحمله على أن
يخبرني - وهو أسف - أنه قد ثبت من أوراق ابنه أنه قد اشترك في مؤامرة
اتصلني من (أيفردون) وولاية (بيرن) . وقد دل هذا بجلاء ، على أن
المؤامرة لم تكن غريبة - كما رغب الناس في أن يصدقوا - وإنما كانت مجرد
مقامرة كاذبة . إذ أن الاطعاسي « روجان » ، لم يكن بميسر عن التقوى
معتبرا ، وإنما كان يمين في مذهبه وكفره إلى درجة التمسب والتفوس ،
والتي جانب ذلك ، لم يكن في (أيفردون) من استولى على ودي « وغمرني
بالمجاملات المفرقة ، وبالملق والرياء ، كما سألني في وقتي في
تلك وفيها في اتباع الخلقة المعيبة لدى مقابلة بي »

الإطراء لمبقرتي - في هذا الخطاب - وجه دعوة ملحاحة كي
انقل إلى إنجلترا ، وتطوع بكل ماله من مكانة ، وبكل أصدقائه ،
لجعل إقامتي هناك مستحبة ومريحة . وقد سمعت لنفوري
إلى استشارة السيد المارشال - الذي كان مواطنا وصديقا
للسيد هيوم - فأكد لي حسن ظني بهذا السيد . وروى لي
نادرة أدبية عنه ، أدهشتني بقدر ما أدهشته . تلك هي أن
« ولاس » - الذي وضع كتابا يعارض فيه آراء « هيوم »
بشأن سكان العالم القديم - كان متفيا عندما طبع كتابه .
فتطوع « هيوم » بمراجعة « البروفات » « وبالإشراف على
إصدار الكتاب . وكان هذا المسلك ما يصادف هوى من
نفسى ، إذ أننى كنت - بنفس الروح - قد توليت بيع نسخ من
أغنية كانت قد نظمت ضدى ، في مقابل ستة « سو » للنسخة ! .
ومن ثم فقد كنت محقا في أن أكون لنفسى كل فكرة طيبة عن
« هيوم » ، قبل أن تأتى السيدة دى غريديلان ، وتحدثني في
حرارة عن الود الذي قال أنه يكنه نحوى ، وعن تشوقه إلى
أن يؤدي لي كل تكريم في إنجلترا . . فهذا عين ما ذكرته لي !
ولقد ألحت كثيرا لحملنى على الإعادة من هذه الشهادة .
وعلى الكتابة إلى « هيوم » . ولما لم أكن بطبعي مبالا إلى
إنجلترا ، ولم أكن راغبا في اتخاذ هذا القرار - اللهم إلا عند
الضرورة القصوى - فقد رفضت أن أكتب « أو أن أصدق
بالكتابة ، بيد أننى تركت لها حرية اتخاذ التصرف الذي تراه
صالحا ، لاستبقاء ميل « هيوم » نحوى . وعندما غادرت
(موتير) ، خلقتنى وأنا مقتنع تماما - من كل ما قالته لي عن

جهارا إلى صفوف مضطهدى .. كآل دانفرتوا .. ولم يشذ عنهم حتى والد وأخ صديقتى " أيزابيل " .. و "بوى ديلانور" قريب الصديقة التى أقمت فى دارها ، والسيدة "جيراردييه" زوجة أخيها . ولقد كان هذا الـ " بوير بوى " شديد القباء . وبلاذة الذهن ، وكان غنيما فى طباعه ، حتى أننى أبحث لنفسى أن اضحكه ، لكى أتناذى هياجه . ووضعت - بالأسلوب الذى انتهجته فى " النبى الصغير " - كتيباً من بضع صفحات . أسميته " رؤيا بوير الجبلى : الملقب بالبصير " ! .. ولقد وجدت فى هذا الكتاب فرصة لشن هجوم ساخر على المعجزات ، اتخذ - فى ذلك المصين - حجة رئيسية لاضطهادى . ولقد عمسد " دو بيرو " إلى طبع هذا الكتيب فى (جنيف) ، فلم يظفر - فى تلك البلاد - بأكثر من نجاح متوسط ، إذ أن أهالى فيوشاتيل " يميلون كثيراً إلى تقدير السخرية اللاذعة أو الدعايات الضاحكة ، برغم ما أوتوا من لماعة !

ولقد بذلت قدراً أكبر من الجهد ، فى كتاب آخر . فى عين تلك الفترة . وقد عثرت على مخطوطه بين أوراقى ، عجيدى بى أن أذكر شيئاً بصدده :

نعمديا كانت حصى المراسيم والاضطهادات فى عنفوانها ، بر أهل (جنيف) سواهم ، بأن راحوا يطلقون صحاحته بأعلى باقى طاقتهم من صوت . وأختار صديقتى " فيرن " تلك الفترة بالذات - فى كرم جدبى برجال الدين حقاً ! - لينشر بعض رسائل ضدى ، حاول فيها أن يبرهن زورا على اننى لم أكن مسيحياً .. على أن هذه الرسائل - التى صيغت فى أسلوب

متنع - لم تجد نفعاً ، بالرغم مما قيل من أن الطبيعى (المؤمن بالطبيعة دون الله) يونيه ، قد ساهم فيها . ذلك لأن «يونيه» هذا ، كان مادياً ، ولكنته لم يكن ليتوانى عن أن يتقلب إلى بتعصب دينى متعنت ، إذا ما كان الأمر يتعلق بى . ومن المحقق أننى لم أشعر بميل إلى أن أرد على هذا الكتيب ، ولكن الفرصة عرضت لأقول كلمة فيه ، فى « رسائل من الجبل » ، غاوردت فى سياقه إشارة مترقمة . أهاجت حنق « فيرن » ، فراح يملأ جنيف بصيحات غيظه . وقال لى دانفرتوا أنه نقد حياض . وبعد فترة ، ظهرت ورقة لا تحمل اسم كاتبها ، وكانها كتبت سباه (فليجيتون) - أحد أنهار الجحيم - لا بمداد . واتهمت فى هذه الورقة بأننى القيت بأنثى إلى عرض الطويق ، وأننى كنت أجبر ورأى إحدى مومسات جنود الحرس ، وأن الافتراط فى الملاذ قد أنهك قواى . وأننى موبوء بالزهري .. وما إلى ذلك من أوصاف « مخزية » !

ولم يشق على أن أعرف كاتب هذا المنشور . وكان أول ما خطر لى ، عند قراءة هذا التشهير ، هو أن أقدر بمقاييسه كل ما يسمى بين الناس بالسمعة والشهرة ، فقد رأيت رجلاً يتهم بأنه ربيب العواهر وهو الذى لم يرتد يوماً دار فسق ، وكان أعظم عبويه دائماً ، هو أنه فى حياء المذراء وخطها .. رأيتنى أوصف بأن « الزهري » كان يفرى كياتى ، وأنا الذى لم أصب يوماً بأنفسه الأمراض التناسلية . بل إن أهل الاختصاص أنفسهم أكدوا أننى أوثيت حصانة فطرية ضد هذه الأمراض !

وبعد أن قلبت الرأى ، انتحييت إلى أن أكتب طريقة لدخول هذا

الافتراء ، هي أن أنشرها في المدينة التي أقيمت فيها أكثر من
سواها . لذلك أرسلت المنشور إلى « دوشين » ليقوم بطبعه
بنصه ، مع مقدمة أوردت فيها اسم السيد فيرن ، وبعض
طور موجزة لإيضاح الوقائع . على أنني لم أقتنع بنشر هذا
المنشور ، فأرسلته بنفسى إلى عدة أشخاص ، بينهم الأمير لويس
دى ميرتبيرج ، الذى كان قد أظهر لى مجاملات غلبة فى الكرم
والذى كنت أبادله الرسائل ، فى ذلك الصبح . . . ولاح أن الأمير
ودو بيرو ، وغيرهما ، كانوا فى شك من أن دى فيرن هو مؤلف
هذا التشهير ، واعتبوا على أن ذكرت اسمه دون تحر كاف .
وبناء على ملاحظاتهم « قدمت على ما فعلت » وكتبت إلى
« دوشين » كى يوقف نشر هذه الوريقة ، فكتب إلى « جاي »
بأنها أوقفت . ولست أدري ما إذا كان هذا حقا ، فقد عهدت
« جاي » كثير الكذب « فى مناسبات كثيرة » حتى أن صدور
الكذوبة جديدة منه ، ليس بالأمر المستغرب ! . . . ولقد كنت
— إذ ذاك — محوла بهذه الظلمات الدامسة ، التى كان من
المستحيل على أن أفند خلالها إلى أى شيء من الحقيقة !

ولقد احتمل السيد ديفرن هذا الاتهام فى رزائة كانت أكثر
من مستغربة بعد السخط المحتاج الذى أبداه من قبل . لا سيما
إذا صح أنه لم يكن يستحق هذا الاتهام ! . . . ولقد كتب لى
رسالتين أو ثلاثا ، فى أسلوب حد حذر ، بدا لى أنه كان يرمى
بها إلى محاولة الوصول — خلال ردودى — إلى مدى ما كنت
أعرفه ، وما إذا كان لدى دليل ضده . على أنني أجبت
بخطابين قصيرين ، جافين ، خشنى المعنى دون نبو فى العبارة ،

علم يغضب منها إطلاقا . ولكنى لم أجب عن خطابه الثالث
قط ، إذ تبين أن كان يستدرجنى إلى مراسلته . . . وقد أرسل
دانفيرنو ليحدثنى بهذا الصدد . وكتبت السيدة « كراميه »
إلى « دو بيرو » أنها كانت وافقة من أن التشهير لم يصدر عن
فيرن . ولم يزعجنى هذا كله عن اقتناعى . على أنه لما كان
من المحتمل أن أكون مخطئا — فأكون مديتا لفيرن باعتذار علنى ،
فى هذه الحال — فقد قلت له ، عن طريق دانفيرنو ، أنني على
استعداد لأن أقدم له اعتذارا برضيه ، إذا هو استطاع أن يبين
لى الكاتب الحقيقى لهذا التشهير ، أو أن يبرهن لى — على
الأقل — على أنه لم يكن هذا الكاتب . بل إننى ذهبت إلى أبعد
من ذلك ، إذ شعرت بأنه — على أية حال — ليس من حقى أن
أطالبه بأن يثبت لى أى شيء ، إذا لم يكن مذنبا . فعزمت علم
أن أكتب — فى مذكرة مسبوقة — الأسباب التى حملتنى علم
اعتقادى ، وأن أعهد بها إلى حكم فيصل لا يستطيع فيرن أن
يطعن فى ذمته . وما كان أحد ليحدثنى هذا التوصل الذى
اخترته ، فقد وقع اختيارى على « مجلس جنيف » !

ولقد أعلنت فى نهاية المذكرة ، أنه إذا قضى المجلس — بعد
تحصنها وإجراء التحريات التى براها لازمة ، والتى كان من
السهل إجراؤها بنجاح — أن السيد فيرن لم يكن كاتب التشهير ،
فأننى على استعداد لأن أكف صادقا ، منذ تلك اللحظة ، عن
اعتقادى بأنه الكاتب ، ولأن أذهب فأرتدى على قدميه ، وأظل
أتأذنه الصفح ، حتى أظفر به ! . . . ولقد كنت أن أقول إن
تأجج غيبتى من أجل العدالة ، « يستأش وخم » . ونفقت

في هذا الحب - النفين في قلبي - نحو العدالة .. استطيع ان
اقول ان هذه لم يقدر لها يوما ان تتكشف أكثر وضوحا وكاملا
مما تتكشف في هذه المفكرة .. ولا أكثر حكمة ونفاذا إلى القلوب
مما تمثل في أنني لم اتردد في قبول الد اعدائي ليفصلوا بيني
وبين من ذمى ! .. ولقد قرأت هذه المذكرة على « دوبييرو »
فنصحتني بأن اعدمها « وقد فعلت . وأشار على بأن ارتقب ما
قد يظهره « ميرن » من أدلة . فانقطرت ، ولا ازال انتظر ! ..
كذلك نصحتني بأن ألزمت الصمت أثناء الانتظار ، فلزمت الصمت ،
وساظل صامتا بقية عمرى ، بلوما على أنني وجهت إلى ميرن
انهايا خطيرا ، زائفا لم يتم عليه دليل .. وإن كنت ما ازال
موقفا ، ومقتنما - في دخيلتي - بأنه كاتب ذلك الهجوم ، بقيى
واقتنامى بوجودى ! .. إن مذكرتى في حوزة السيد دوبييرو ،
لماذا قدس لها يوما ان ترى النور ، فستبدى فيها حججى
واسبابى .. وأمل ان تجد روح جان جاك التى أبى معاصرى
ان يفهموها ، من يفهمها إذ ذاك !

لقد حان الوقت لننتقل إلى الكارثة الأخيرة في « موتير » .
ورحيلي عن أقال - دى - ترافير ! ، بعد إقامة دامت سنتين
ونصف السنة .. وبعد ثمانية أشهر من جسد لم يهن ، في
احتيال ازرى المعاملات ! .. ان من المستحيل أن اذكر بجلاء
دقائق هذه الفترة غير البهيجة ، من حياتى . ولكنها ستوجد
في السيرة التى نشرها « دوبييرو » ، والتى سأنتكم عنها
فيها بعد .



اشتد الهياج عنفا ، منذ رحيل السيدة دى غريبلان .
وبالرغم من الانذارات المتكررة - من الملك - وبالرغم من الاوامر
المتتابعة من مجلس القولة ، وبالرغم من الجهود التى بذنها
سيد المقاطعة ، ورجال الحكومة في المنطقة ، فقد ظل الناس
بمضربوتنى - في جد واعتقاد حازم - عدوا للمسيح ! .. وإذا
راوا أن كل صخبهم لم يؤد إلى جدوى ، بدا انهم نهباوا أخيرا
للاقدام على تمرعات عنيفة ! .. مبدأت الأحجار تتطاير خلفى
في الطرق ، وهى تلقى من بعد لم يكن يمكنها من أن تصينى .
وأخيرا .. وفي ليلة سوق « موتير » ، التى تقام في بداية
شهر سبتمبر ، هوجمت في عقر دارى ، التى كنت اقيم فيها ،
بطريقة عرضت حياة ساكنى الدار للخطر !

فى منتصف الليل ، سمعت جلبة في البهو الذى كان يمتد
بطول الجزء الخلفى للدار . وانهال سيل من الأحجار - التى
سويت إلى الفافذة والباب المفضى إلى البهو - فراحت تهوى في
ضجيج قوى ، حتى أن كلبي ، الذى اعتاد النوم في البهو « بدا
يموى ، ثم أخرسه الذعر ، وهرع إلى أحد الأركان ، وراح
ينبش الأرض الخشبية ويقرضها ، بحثا عن مفر ! .. واستيقظت ،
على الضجة ، ونميا كنت أهم بمفارقة مخدعى ، لأنتقل إلى
المطبخ ، إذا بحجر - طوحت به يد قوية - بهشم نافذة المطبخ ،
وطير في جوه ثم يصدم باب غرقتى فيفتحه ، ويقع عند مؤخر
غراشى . ولو أننى تعجلت الخروج لحدة ! لكن قسدا أصاب
بطنى ! .. وحصدت أن هذه الضجة كانت قد أدت إلى

استدراجي ، وإن الحجر القوي لكي يستقبلني وأنا أغادر
غرفتي .

واندفعت إلى المطبخ ، فوجدت « تيريز » التي كانت قد
استيقظت - هي الأخرى - والتي جرت إلى ، وهي ترتجف .
وقدنا ملتصقين بالجدار ، يمينين عن مستوى النافذة ، لتجنب
الإصابة بالطوب ، ولنفدبر ما في وسعنا أن نفعله . . فقد كان
الخروج لطلب النجدة هو الوسيلة للقضاء علينا . ولحسن
الحظ ، استيقظ على الجلبة خادم شيخ جليل كان يقطن أسفل
طابقنا ، فاجرى لطلب النجدة من حاكم المنطقة ، السذي كان
سابقه مجاوراً لبنا . فقلز من فراشه ، وألقى عبائه (الروب
دي شابر) على كتفيه في عجلة ، وأقبل لفوره مع الحرس
الذين كانوا ساهرين - في تلك الليلة - بسبب السوق ، ومن
ثم فقد كانوا على استعداد . وكان جزع حاكم المنطقة بالغاً .
حين رأى الخسائر ، حتى أن وجهه شحبت . . وعند برأي
الحصص الذي امتلأ به البهو ، صاح : « يا إلهي ! . . كائن في
بحر ! » . وإذا هبنا إلى الطابق الأسفل ، وجدنا أن باب
مناء صغير قد اقتحم ، وأن محاولة بفلت للنفاذ إلى داخل
البيت ، عن طريق البهو . وعند التحري عن سبب عدم انتباه
الحراس إلى هذا الشغب ، وعدم حيلولتهم دون حدوثه ،
نظهر أن حراس (موتير) الحوا في القيام بهذه النسوبة من
توقات الحراسة ، برغم أنها لم تكن نوبتهم ، إذ كان الدور على
حراس من قرية أخرى !

وفي اليوم التالي ، أرسل حاكم المنطقة حرساً إلى
الدولة ، الذي اتفدبه - بعد يومين - ليقام بتفتيش في الأمر .



وانتقل سبل من الأحجار - التي تحولت إلى سلاسل والياب القمعي إلى البهو

- فمحت نهب في صحبح قوي .

وبأن يعد بكفاة ، وبكتبان سر أولئك الذين يشون بالحفاة .
وكان عليه في الوقت ذاته ، أن يقيم حارسا - على نفقة
الحكومة - ليحرس دارى وداره ، التى كانت ملاصقة لها . وفى
اليوم التالى ، أقبل لزيارتى الكولونيل دى بورى ، ومورون
المدعى العام ، ومارتينييه حاكم المنطقة ، وجوينييه محصل
الضرائب ، ودانفريوا أمين خزانة المنطقة ، وأبوه . . وقصارى
القول ، أن كل ذوى المكانة فى المنطقة ، جاءوا لزيارتى .
واجتمعوا على الإلحاح على لإغرائى على أن أنحنى للعاصفة .
وأن أرحل - ولو إلى فترة من الزمن - عن أبرشية لم يعد
بوسعى أن أعيش فيها آمنا أو مكرما . بل إننى لاحظت أن
حاكم الأقليم - فى ذعره من فورة الأهالى الساخطين ، وقى
جزعه من أن تمتد إليه - كان على استعداد لأن يبدى اغتباطه
إذا رأى أرحل نورا ، حتى يتخفف من مسئولية حمايتى ، وحتى
يستطيع أن يبرح المنطقة هو الآخر . . وهذا ما حدث فعلا .
بعد رحيلى .

ورضخت لهم . . بل إننى انصمت دون عناء تقريبا ، لأن
منظر حقد الجمهور مرق قلبى بدرجة لم أمد أقوى معها على
احتمال الألم !

كانت هذه الخطوة هى أن أذهب فأقيم فى جزيرة سان بيير .
وهى من أملاك مستشفى بيرن . . وكنت قد زرت مع
دو بييرو " هذه الجزيرة " أثناء إحدى جولاتنا - ففتنت بها
حتى أننى - من ذلك الحين - لم أكتب عن التفكير فى وسيلة
للإقامة بها . وكانت أعظم عقبة هى أن الجزيرة كانت ملكا لأهل
بيرن الذين طردونى من أراضيهم - قبل ثلاث سنوات -
فى ظلم مبین . فضلا عن أن كرايى - كمدى - كان
من العودة إلى الإقامة بين قوم أساقفة - ففكرت فى

وكان ثمة عدة أماكن أخير منها ملاذى . فلقد ذكرت لى
السيدة دى فيرديلان ، فى عدة خطابات - منذ عودتها إلى
باريس - سيدا يدعى « وليول » ، كنت تلقبه باللورد ، وكان
شديد الاهتمام بأمرى ، فعرض على مقاما فى إحدى ضياعه ،
التى صورتها لى السيدة أيدج تصوير ، وتناولت التفاصيل

اعتراقات جان جاك روسو - الجزء الخامس ١٩٥

نصفه غرسخ، ولكن هذه المساحة الضئيلة تنتج كل المحصولات الرئيسية اللازمة للحياة . ففيها حقول ، ومروج ، ومراع ، وبساتين ، وغابات ، وكروم . وهذه جميعا موزعة - بفضل الأرض المتباعدة والجبلية - بشكل مستحب جدا إذ أن مناظرها المختلفة ، لا تتكشف جميعا في وقت واحد ، وإنما تتعاقب في توال متبادل ، فتوحى بأن الجزيرة أكبر مما هي في الواقع . ويثالف الجانب الغربي منها - المواجه لجلبريس وبونفيل - من مرتفع شامق ، تكون الأشجار فيه طريقا طويلة ، يتوسطها فراغ تسده النباتات من كل جانب ، كأنه قاعة ، يجتمع فيه الواعدون من كل الشيطان المجاورة - في أيام الاتحاد من موسم حصاد العنب - ليرقصوا ويلهوا . وليس في الجزيرة سوى دار واحدة ، يقيم فيها محصل الضرائب . ولكنها كورة ، رحية تقع في منخفض يحميها من الرياح .

وعلى خمسمائة أو ستمائة باردة من (سان - بيار) - من الناحية الجنوبية - جزيرة أخرى ، أصغر منها مساحة بكثير ، غير مزروعة ولا مأهولة . وتبدو كما لو كانت قد انفصلت عن الجزيرة الكبرى - في زمن ما - بفعل العواصف العاتية . . وهي لا تنبت بين حصائيا سوى الصفصاف ، بيد أنها تضم بقعة مرتفعة مكوّنة بالحشائش ، وذات حسن بديع . ويكاد شكل البحيرة أن يكون بفضاوا مكتمل التكوين . ومع أن سلطانها ليست خصبة كشواطئ بحيرتي (جنيف) و (نيوشاتيل) - إلا أنها ذات منظر زخرفي بديع للغاية ، لا سيما في الجانب الغربي الكثير السكان ، وعند سفح سلسلة الجبال المحيطة بها .

ما يدير الخوف من أنهم لن يدعوني أعيش في هذه الجزيرة . في هدوء يفوق ذلك الذي كنت فيه في (أيتردون) . ولقد نشرت السيد المارشال في هذا الأمر - غراي - كما رأيت - أن أهل (بيرن) خلقون بأن يسيروا بنفسي إلى هذه الجزيرة . وما أن يستبقوني رهينة إزاء أية مؤلفات جديدة قد أصبوا إلى وضعها ، فقد أشتم منهم هذه الرغبة ، عن طريق سيد بدعي "ستيرلر" ، كان جارا قديما له في (كولومبيه) .

ولقد خاطب السيد ستيرلر - في هذا الشأن - كبار رجال الدولة ، وأكد للسيد المارشال - استنادا إلى الإجابة التي تلقاها - أن أهل (بيرن) لم يكونوا يرجسون ، في خجلهم من مسلكهم السابق ، أفضل من أن آوى إلى جزيرة (سان بيار) . وأن يدعوني أعيش هناك في سلام . وإمعانا في الحيلة ، سمعت - قبل أن أجزؤ على الذهاب للإقامة هناك - إلى الحصول على مزيد من المعلومات ، بواسطة الكولونيل "شاييه" ، الذي أكد لي هذه الأمور بالذات . وإذا ظفر محصل الضرائب في الجزيرة ، بإذن من رؤسائه بأن يستقطنني في داره . فقد خيل إلى الا مخاطرة في الذهاب إلى هناك ، بعد هذا الحصول الضمني من الحكام والملوك (الشعب) ، فما كنت لأطمع في أن يعترف سادة (بيرن) جهارا بالظلم الذي أوقعوه علي . فيخرجوا علي أشد المبادئ مناعة لدى كل أصحاب السلطان .

وتقع جزيرة (سان بيار) - وتسمى في نيوشاتيل بجزيرة (لاموت) - وسط بحيرة (بيين) . ويبلغ محيطها حوالي

من الكروم كلك التي تحف بـ (كوت - روثي) - في منطقته
الرون - وإن لم تشبهها في جودة النبيذ الذي تدره . وتوجد
في الطريق من الجنوب إلى الشمال . المناطق التابعة لقضاة
سان جان (و) بونفيل (و) بيبين (و) نيداو (عند طرف
البحيرة ، وقد تناثر فيها عدد من القرى البهيجة المناظر .

هكذا كان الملجأ الذي دبرته لنفسى ، والذي قررت أن استقر
فيه إذ أبارح (مال - دى - تراير) . ولعله ليس من اللغو
غير المجدى ، أن أذكر أنني خلقت هناك عدواً الد - تمثل في
السيد « دو تيرو » - عمدة فيرير - الذي لم يكن يحظى بكثير
احترام في المنطقة ، ولكنه أوتى شقيقاً قيل انه رجل أمين كريم .
كان يعمل في مكاتب السيد دى سان فلورنتان . ولقد زاره
العمدة قبل الحادث الذي جرى لى بوقت قصير . . مثل هذه
الملاحظات البسيطة - التى لا قيمة لها في حد ذاتها - قد
تساعد فيها بعد ، في الكشف عن كثير من الحوادث المستترة .

ولقد كان اختياري هذا الملجأ متشعباً تماماً مع أهوائى
وطباعى الميالة إلى العزلة والخمول ، حتى أنني أعدده بين
الأحلام العذبة التى كنت مشغولاً بها كل الشغل . ولاح لى
أننى سأغدو - في هذه الجزيرة - أكثر بعداً عن مجتمعي
البشر ، وفى مزيد من الأمان من إهانتهم ، وأشد ما أكون
بعداً عن ذاكرتهم . . وقصارى القول ، أننى سأكون أكثر
نحرراً في الاستسلام لبهاج البطالة وحياة القامل . ولقد كنت
أتمنى أن أعزل تماماً - في هذه الجزيرة - فلا يعود لى أى
اتصال بأى إنسان حى . ولقد اتخذت - بلا شك - كل

التدابير الممكنة تصورها ، لأغنى نفسى من ضرورة الإبقاء على
هذه الحال .

على أنه لم يكن ثمة بد من القوت ، وقد كان العيش على هذه
الجزيرة ياهظ التفتات جداً ، من جراء ارتفاع أسعار المؤن .
ومصوبة المواصلات . فضلاً عن أن المرء كان تحت رحمة محصل
الضرائب . ولقد أزيلت هذه الصعوبة بتدبير تكرم السيد
دوبييرو بإيجرائه معى ، حل بمقتضاه محل الشركة التى كانت
قد تمهدت بانتاج طبعة شاملة للمؤلفاتى ، ثم تخطت عن المشروع .
فوضعت بين يديه كل المواد اللازمة ، وتمهدت بنفسيتها
ونوزيمها . كذلك ارتبطت بأن أسلمه ذكريات حياتى ، وجعلته
الوصى العام على كل أوراقي ، مع اشتراط خاص بالاتباعها
إلا بعد وفاتى ، إذ كنت قد آليت على نفسى أن أختم حياتى
العظيمة في سكونية ، دون أن أذكر الراى العام بوجودى على تبد
الحياة . وكان المعاش السنوى - الذى تعهد بدفعه في مقابل
ذلك - كاف لحاجاتى . كذلك عرض على السيد المارشال -
الذى كان قد استرد كل ثروته - معاشاً سنوياً قدره ألف
ومائتا فرنك ، لم أتقبل سوى نصفه . ولقد رغب في أن يرسل
إلى مجموع المبلغ دفعة واحدة ، فرفضت ، إذ حرت في أمر
استثماره ، ومن ثم غانته أرسله إلى دو بييرو ، فظل بين يديه ،
وأنه ليسلمنى الفائدة السنوية ، على أساس الفئة المتفق عليها .
ومن ثم قبضه اتفاقى مع دوبييرو . إلى الخصى أنتى وهينيه
السيد المارشال - على أن يؤول ثلثه لى تيموثاوس سبيد - راسم -

إلى الثلاثمائة فرنك التي كنت أتسلمها سنوياً من « دوشين » ، أصبح في وسعي أن أرتكن إلى دخل محترم لنفسى ، ولتبريز بعد مماتى . إذ تركت لها سبعمائة فرنك سنوياً ، من معاش « ريبى » ومن معاش السيد المارشال .

وهكذا لم يعد خوف لى من أن تفقد « تبريز » خبزها يوماً « أو من أن أشعر أنا الآخر بحاجة ! » . بيد أنه كان قد كتب لى أن اضطر إلى أن أثبذ كل الموارد التي سالتها إلى يدي الحظ أو جهدى . وأن أموت — كما عشت — فقيراً ! . . . وسيكون في الوسع تبين ما إذا كان في وسعي — دون أن أنزدي في أدنى مهاوى الهوان — أن أثبت بتدابير حرص الغير دائماً على أن يجعلوها مثلاً لى ، إذ عمداً — في عناية — إلى تجريدي من أية موارد أخرى ، لكي يتسرونى على أن أرضى بالهوان . فكيف خالجهم الشك في القرار الذي كنت خليفاً بأن اتخذه ، إذا ما خيرت بين الفقر ، وبين الرخاء مع الهوان ! . . لقدس كانوا دائماً يحكمون على قلبى ، بالتقاس إلى قلوبهم .

وإذا ارتاح بالى إلى موارد عيشى . لم يعد لدى أى شغل آخر . ومع أننى كنت قد تركت الميدان — في الدنيا — خالياً لأعدائى ، إلا أننى خلفت في الحساس النبيل الذى أملى على مؤلفائى ، وفي استمرار جهود مبادئى وتماسكها ، شاهداً على روحى التي كانت مسئولة عن كل النهج الذى اتخذته شخصيتى في مسلكتها . ولم أكن في حاجة إلى دفاع فوق هذا ، ضد من سموا بذهبتى وتشويه سمعتى . أنهم قد يصورون — تحت

اسمى — رجلاً آخر يختلف عني تماماً ، ولكنهم لا يملكون أن يخدعوا سوى أولئك الذين قد يرغبون في أن يكونوا مخدوعين ! . . لقد كان بوسعى أن أترك لهم حياتى لينتقدوها ، من أولها إلى آخرها . فلقد كنت مطمئناً إلى أنهم خليقون دائماً بأن يجدوا — وراء كل أغلاطى ومواطن ضعفى ، وعدم طائقتى على احتمال أى نير — رجلاً كان عدلاً « وصالحاً » وخلوا من الحقد والكراهية والغيرة « على استعداد دوماً لأن يعترف بأغلاطه الظالمية ، وأكثر استعداداً لأن ينسب مظالم الآخرين . . رجلاً كان ينشد كل سعادته في عواطف الحب واللفظ ، وكان يكشف في كل شيء عن إخلاص بلغ مبلغ التهور وأبعد حدود التجرد من الذاتية !

وعلى هذا . غابتنى — بشكل ما — ودعت القرن الذى كنت أعيش فيه ، وودعت معاصرى ، وودعت مجتمع البشر ، وأويت إلى هذه الجزيرة لأقضى ما تبقى لى من أيام . . وهكذا كان عزى ، وهتاك كنت أعول على أن أثد — أخيراً — مشروعى الكبير . . مشروع الحياة الخاملة ، التى كرسيت لها عبثاً — حتى ذلك الحين — كل الطاقة المتواضعة التى أودعها السماء في . . لقد كانت هذه الجزيرة جذيرة بأن تفدو لى كجزيرة بابيمانى (١) . تلك البلاد السعيدة ، التى ينلم فيها المرء :

« فهناك عمل جديد . . اتيان لا شيء البتة » (٢) !

(١) اسم ابتكره « رابليه » للأرض التى لا توجد فيها أى شغل .

(٢) من شعر لافونتين ، ويتخذ بالمثل ليدد . . عن المثل .

أو أن أصرح ، أو أن أثير ، إذا ما خطر لى أن أفعل .. بل إننى لا أجرؤ على أن أحلم ! .. غاشع لفورى بالسأم من البطالة . وبكل عذاب الضيق وضبط النفس . ذلك لأننى مضطر إلى أن أصبغ السمع لكل السخافات التى تقال ، وكل المجاملات التى تتبادل ، وأن اعتصر قريحتى باستمرار ، حتى لا أخفق فى أن أقدم - بدورى - مخالفتى أو أكذوبتى . وهذا ما يسمى بالتبطل . إنه عمل المحكوم عليهم بالسجن المؤبد !

أما البطالة التى أحبها ، فليست بطالة المتعطل الذى يبقى مكتوف الذراعين فى حالة توقف تام عن النشاط « فلا تفكر ولا حركة .. البطالة التى أحبها خليط بجمع بين بطالة الطفل الذى لا يكف عن الحراك دون ما عمل ، وبطالة المخرف الذى يهيم من موضوع إلى آخر ، وذراعه ساكنتان ! .. إننى أحب أن اشغل نفسى بالتواضع ، وأن اشرع فى مائة شيء ، ولا أتم شيئا ، وأن أجىء وأروح كما يحلنى هواى . وأن أبدل خططى فى كل دقيقة ، وأن أتبع ذبابة فى كل حركاتها ، وأن أحاول أن أقفل صخرة لاثين ما تحتها ، وأن اضطلع فى تحسس بعمل قد يستغرق عشر سنوات ، ثم أهجره - دون ما ندم - بعد عشر دقائق .. وقصارى القول ، إننى أحب أن أقضى نهائى كله على غير نظام ، ودون ما تبعه ، والأاتبع - فى كل شيء - سوى هوى لحظته ، ونزوة دقيقته !

لقد كان علم النبات - كما عيذته دائما ، وكما رجحته إذ بدأ يتلكنى الشغف به - هو الدراسة **التي** أحبها **أكثر** ، والصالحة للء فراغ أوقائى ، دون أن اضطر

هذا « العمل الجديد » كان هو كل شيء لى . لأننى لم أتحسر كثيرا على النوم - بل كانت البطالة تكفينى . فإذا ما قدر لى إلا أعمل شيئا ، فأننى أؤثر أحلام اليقظة على العمل . وإذا كانت سن المشروعات القصصية الخيالية قد ولت ، وبخور الجذ الباطل قد أغنى نفسى أكثر مما استوى غرورى ، فلم يبق لى - كابل آخر - سوى حياسة طلاقة من كل قبس . تنقى فى فراغ دائم . فهذه هى حياة المرضى عنهم فى العالم الآخر .. ومنذ ذلك الحين « قصرت سعادتى فى عالمي الراهن ، على هذا اللون من الحياة !

إن الذين يلومونى على كثرة متناقضاتى : لن يغفلوا أن يمتبوا على .. هنا - تناقضا جديدا . فلقد قلت - من قبل - أن البطالة فى المجتمعات ، كانت عبءا لا أطيقه . ومع ذلك . فما أنذا أنشد الوحدة هنا لغرض واحد ، هو أن أسلم نفسى للبطالة . ومع ذلك ، فهكذا هى طبيعتى . وإذا كان ثمة تناقض فى هذا ، فهو من عمل الطبيعة ، وليس من صنعى . ولكن هنا فارق جد صغير .. وبهذا الفارق الصغير تمتساز شخصيتى الحقيقية . إن بطالة المجتمعات مضىة ، لأنها مفروضة بحكم الضرورة ، أما بطالة الوحدة ، فمبهجة لأنها طلبية . وصادرة عن رضى ورغبة .. إن التعطل عن عمل شيء - إذا كنت بين الناس - مهمة شاقة ، لأننى أكون فى ذلك مضطرا . فأننا مضطر إلى أن أبقي بينهم ، مبرا إلى متعدي . أو واقعا منتصب القائمة كالعسكري فى الحراسة . دون أن أحرك يدا أو قدما .. لا أجرؤ على أن أجرى . أو أن أقفز . أو أن أغنى .

الخيال ، او لسامة التعطل الكامل .. فالضرب في الغابات والريق على غير مقصد ، والإقبال الآلى على اقتطاف زهرة من هنا ، او فرع من هناك ، والتهام الطعام دون موعد تقرييما . وتأمل الأتياء الف والف مرة - وهى هى لم تتغير - بنفس الاهتمام ، لأننى كنت أنساها جميعا أولا بأول .. كل هذه المؤلف الطريقة لاتفاق الزمن السرمدى ، نون لحظة واحدة من السام . ان تركيب النباتات - مهما يكن دقيقا ، ومهما يكن بديعا ، ومهما يكن متباينا - قل ان يسترعى العين الجاهلة إلى الدرجة التى تحملها على الاهتمام به .. إن التجانس الشامل المستطرد ، مع - وفى ذات الوقت - التباين الواسع النطاق الذى يميز أعضاء النباتات ، لا يبهجان سوى أولئك الذين اودوا فعلا فكرة ما عن نظام مملكة النبات . أما غير هؤلاء ، فانهم لا يشعرون - حين يرون كل هذه الكنوز الطبيعية - بغير إعجاب جامد ، متواتر على نسق واحد .. إنهم لا يرون شيئا - بتفصيله او دقائقه - لأنهم لا يكادون يعرفون أين يجب أن تتجه نظرتهم .. ثم إنهم لا يرونه فى مجموعه كذلك - لأنهم لم يؤثروا فكرة عن تسلسل الروابط والصلات التى تحرر بظرافتها وغرايتها ذهن التأمل . ولقد كنت - وكانت ذاكرتى الكلبة خاذقة بان نسفتينى دائما - فى تلك الحال المريحة .. الحال التى لم اكن اعرف فيها عن الشيء سوى القدر الضئيل الذى لا يبيده فى عيتى جديدا .. ولكن هذا القدر كان كافيا لأن يحملنى على التفكير ! . وكان تباين انواع الثروة الموزعة فى أرجاء الجزيرة ، بالرغم من صغر مساحتها ، يتيح لى تباينا فى نباتاتها ، كافيا للدراسة والتأمل بقية عمرى .. فعزمت على

الا ادع عرقا واحدا من عشب ، دون أن افحصه . وبدأت بالفعل اتخذ التدابير لأكتب عن مملكة النباتات (١) ، موردا مجموعة هائلة من المشاهدات الطريفة والغريبة !

وارسلت فى طلب « نيريز » وكتبى وامتعى ، فاقمنا فى دار محصل الضرائب . وكانت شقيقات زوجته - اللاتى كن يقمن فى (نيدوا) - يقدن لزيارتها « كل بدورها » فكان فى هذا إناس لتبريز . وهناك أحسبت بحياة ناعمة كنت أنهى لو تدوم إلى ما بعد انتهاء حياتى ، ولكن الشغف الذى ثرلانى بها - لم يؤد إلا إلى زيادة إحساسى بمرارة تلك الحياة التى كانت موشكة على أن تعقبها .

لقد اعتدت دائما ان احب الماء حب المشغوف ، حتى ان مرآه يلتقى بى إلى أحلام عذبة ، برغم انها كثيرا ما تنفقد الغاية المحددة . فلم اغفل يوما عند بقطتى ، أن اهرع إلى الشرفة - عندما يكون الطقس معتدلا - لأعب من هواء الصباح المصحى المليل . ولأطلق نظرانى إلى أفق البحيرة الجميلة ، التى كانت الجبال تحيط شطآنها ، فتؤلف منظرا فائنا . ولم أكن أجد تحية جذيرة بالذات الإلهية أكثر من الإعجاب الصامت ، الذى ينبع من تأمل خلقها ، والذي يعجز عن أن يعبر عن ذاته بنصرغات ظاهرة .. أن بومعى أن أدرك السر فى أن سكان المدن - الذين لا يرون سوى الجدران والطرقات والجرائم -

لا يؤتون سوى القليل من الإيمان . ولكنى لا استطيع ان افهم السر فى ان أولئك الذين يعيشون فى الريف - لاسيما فى الأماكن المنعزلة - يستطيعون ان يضلوا الطريق إلى الإيمان ! .. كيف يقسنى لأرواحهم الا تسمو فى غيبوبة نشوانة ، مائة مرة فى اليوم ، نحو مبدع العجائب التى تذهلهم ؟ .. أما أنا ، فقد عدت من أمد طويل أن أنساق عقب اليقظة بوجه خاصر - وأنا بعد كليل الجسم لحرماتى من النوم طيلة ليلى - إلى تلك النوبات التى يسمو فيها قلبى مقلقا ، والتى لا تفرض على عذاء التفكير . على أنه لا بد - لحدوث ذلك - من أن يصفنح عبنى بحر منظر الطبيعة ! .. أما فى حجرتى ، فان صلواتى لا تنبعث ببئس هذه الكثرة أو الحرارة ، ولكنى أشعر - إذا ما رايت منظرا طبيعيا جميلا - بتأثير عاطفى لا أدرى ماأنا . وأذكر أنني قرأت عن أسقف حكيم ، صادف أثناء زيارته لأبرشيته ، عجوزا لم تكن تملك فى صلاغها أن تقول أكثر من : « آواه ! » . فقال لها الأسقف : « وأصلى صلاتك على هذا النحو ، أينما الأم الصالحة ، فان صلاتك هذه خير من صلواتنا » .. وهذه الصلاة - التى هى خير من سواها - هى صلاتى أنا الآخر !

وكنت أسرع - بعد الفطور - إلى كتابة بعض الرسائل المقتضبة ، وأنا متجه ، ضيق الصدر ، متلهف إلى اللحظة السعيدة التى لا أعود فيها بحاجة إلى الكتابة . وكنت اقلب كئيبى وأورامى لبضع لحظات ، ورغبة فى غرزها وترتيبها ، أكثر منى فى قراءتها . وكانت هذه المهمة تتيج لى بمعة التأمل الفكرى للحظات قلائل ، أمل بعدها العمل ، غافضى الساعات الثلاث أو

الأربع المتبقية من فترة الصباح ، فى دراسة علم النبات ، لا سيما منهج « ليناوس » ، الذى تملكنى الشغف به ، حتى انتهى لم أبق على التحول عنه تماما ، حتى بعد أن تبينت عيوبه فان هذا المدقق العظيم . هو ، فى رأى ، الوحيد بعد « لودفيج » - حتى يومنا هذا - الذى نظر إلى علم النبات من ناحية رجل الطبيعة والفيلسوف . ولكنه أفرط - أكثر مما ينبغي - فى الاعتقاد فى دراسته على مجموعات الأعشاب المجففة وعلى الحدائق ، فلم يأخذ عن الطبيعة إلا القليل . أما أنا ، فقد كانت الجزيرة بأسرها حديقة لى ، وما أن احتاج إلى أن أتأمل أو أنحدر شيئا ، حتى أهرع إلى الغابات أو المروج ، متابطا كتابا .. وهناك ، كنت أنطرح على الأرض بجانب النبات الذى أقمده ، فأحمسه فى مكانه ، على مهل . ولقد اسأنتنى هذه الطريقة أكبر العون ، على أن أحصل معرفة بالنباتات وهى فى وضعها الطبيعى ، قبل أن تستفيتها يد الإنسان وثأى بها عن طبيعتها ! .. ويقال أن « فاجون » - الطبيب الأول للملك لويس الرابع عشر - كان ملها بأسماء جميع نباتات الحديقة الملكية ، وعلى معرفة تامة بها . ولكنه بقدر علمه هذا كان جاهلا بنفس النباتات : فى الريف ، حتى أنه كان يعجز عن معرفة شيء منها . وهذا على النقيض منى تماما ، غائى أعرف شيئا عن نتاج الطبيعة ، ولكن لا أعرف البتة عن نتاج البستانى !

أما الأوقات التى كانت تعقب الفطور ، فقد اضلوت
استسلم فيها تماما لميلى للبطلالة وعده

اتبع وحى لحظتى ، دون ما تاعدة أو نظام . وفى كثير من الأحيان كنت أبادر نور مفادرتى المائدة — عندما يكون الهواء ساكنا — إلى القفز وحيدا إلى قارب صغير ، علمنى محصل الضرائب كيف اتسلط عليه بمجداف واحد ، فكنت أجدف إلى منتصف البحيرة . وكانت لحظة انطلاقى تبعث فى نفسى فرحة يخلط لها قلبى . ومن المستحيل على أن أصف هذا الشعور ، أو أن أعظه . . اللهم إلا أن يكون اغتباطا مستترا بأفنى — فى هذه الحال — بمنأى عن الأشرار ! . . . وكنت أجدف فى البحيرة وحيدا ، أقترب من الشاطئ أحيانا ، ولكنى لم أكن أرسو عليه قط . وكثيرا ما نركت قاربى لرحمة الماء والهواء . وأسلمت نفسى لخواطر شاردة ، قد تكون منطوية على غباء . ولكن هذا لم يكن يضعف من غزوبتها . وكنت أهنأ أحيانا . فى انفعال : « آواه ، أيتها الطبيعة ! . . آواه . يا أمى ، ها أنذا فى حمايتك وحذك ! . . ما من إنسان لثيم خست هنا . ليحول بينى وبينك ! » . وعلى هذا النحو كنت أبتعد عن البر بنصف فرسخ ، وأنا أتمنى لو أن هذه البحيرة كانت محيطا ! . . على اتنى — رغبة فى إرضاء كلبى المسكين ، الذى لم يكن شديد الحب مثلى لهذه النزعات المائنة الطويلة — اعتدت أن أجعل لنزهتى غاية . . . تلك هى أن أرسو عند الجزيرة الصغيرة ، غاششى على أرضها سامة أو ساعتين ، أو أسئلنى على الحشائش ، على قمة البقعة المرتفعة فيها لأستمرى لذة الإعجاب بهذه البحيرة وبما يحيط بها ، ولاعكف على فحص وتشريح كل النباتات التى تقع عليها يدى ، ولأبنى لنفسى مسكنا

خياليا ، على هذه الجزيرة الصغيرة ، وكأنى « روبنسن كروزو » جديد ! . . ولقد تعلق قلبى بهذه البقعة المرتفعة ! . . وعندما كنت أصحب « تيريز » وزوجة محصل الضرائب وشقيقاتها للزفة ، كان الزهو يستخفى بأن أكون دليلهن ومرشدهن ! . . لقد نقلنا — فى موكب بهيج — بعض الأرائب لنصير بها هذه البقعة ، فكان هذا عبدا من أعياد جان جاك ! . . ولقد أضفى هؤلاء السكان على الجزيرة الصغيرة مزيدا من الرواء والقيية ، فى نظرى . فأصبحت أكثر من التردد عليها فى مزيد من السرور ، لأتفقد مظاهر تقدم السكان الجدد !

ولقد أضفت إلى هذه الملاهى ، ملهاة أخرى ذكرتنى بالحياة البهيجة فى إليه شارميت ، وحفوتى إليها ، ذلك الفصل من السنة . تلك هى ممارسة أعمال الحياة الريفية بجمع الفاكهة والخضر ، التى كنت وتيريز نسر أن نقاسمها مع محصل الضرائب وأسرته . وأذكر أن شخصا من أبناء (بيرن) — يدعى السيد كيرشبيرجر — جاء يوما لزيارتى ، فوجدنى محشورا فوق غروع شجرة عالية ، وقد ربطت إلى خاصرتى كيسا امقلا بالتفاح إلى درجة تعذرت على معها الحركة ! . . ولم استأن هذا اللقاء ، ولا للقاءات أخرى على شاكلته ، بل إثنى رجوت أن يكف أهل (بيرن) عن أن يعكروا صفو نراغى — بعد أن رأوا كيف كنت أمتفله — وأن يدعوني فى عزلتى آمنا . ولقد كنت أوشر أن أكون حبيس هذه الجزيرة بأرادتهم ، وليس بأرادتى . لأثنى كنت خلبعا بأن أكون — فى هذه الحال — أكثر أطمئنانا إلى عدم تعكير صفو راحتى

إن في هذا اعترافا من تلك الاعترافات ، التي اشعر
— مقدما — بأنها لن تلقى تصديقا من أولئك القراء الذين
يصرون دائما على أن يحكموا على بالقياس إلى أنفسهم ، بالرغم
من أنهم قد رأوا مرغمين — في سياق حياتي يأمره — الف
إحساس داخلي لا يشبه البقة أحاسيسهم في شيء ..! وأغرب
ما في الأمر ، أنهم في الوقت الذي ينكرون على فيه كل شعور
طيب أو مبرأ لم يؤثوه هم « إذا بهم على أنهم الاستعداد لأن
يخلعوا على من خبيث المشاعر ما لا قبل لهم بأن يبثوه — لو
شأوا — في أي قلب بشري ! .. فهم يجدون من البساطة أن
يصوروني على نقض الطبيعة ، وأن يرسموني كوحش هائل
لا يمكن أن يكون له وجود . فلك لأنهم يرون أن ليس ثمة
سخافة تجل على التصديق ، ما دامت موجبة إلى تشويهِه
سمعتي .. وليس من شيء خارق يبدو لهم محتملا ، طالما كان
فيه تعجيد لي .

ولكنني سامض بنفسي الإخلاص الصادق — بالرغم مما قد
يقولون أو يعتقدون — في عرض ما كان عليه «جان جاك روسو» ،
وما كان يفعله ، وما كان يطوف بخاطره ، دون ما إيضاح أو
تبرير لغرابة مشاعره وآرائه ، ودون أن اتحرى عما إذا كان
سواء قد فكر على نسقه . ولقد استوتوني جزيرة (سان بيير) ،
وكننت جد مرتاح إليها ، حتى أنني لغرط تركيز رغباتي على
هذه الجزيرة « عزمت على ألا أبرحها إطلاقا . فلقد ضقت
— بيني وبين نفسي — بالزيارات التي كنت أقبلها من أديباني
في المناطق المحيطة « والرحلات التي



وكانني « روسن كروزو » جديد .. ولقد تعلق قلبي بهذه البقة المرتفعة ..

إلى (ثيوساتيل) و (بين) و (أفردون) ، (نيداو) ..
كان اليوم الذى اتخذه خارج الجزيرة ، يبدو لى بمثابة انتقام
من سعادتى . كما أن تجاوز نطاق البحيرة ، غدا بالنسبة لى
بمثابة تحول عن طبيعتى الفطرية . وفلا عن ذلك ، فإن
تجاربى الماضية جعلتني هيبا بما إن كنت اصادف شيئا يرتاح
إليه قلبى ، حتى أتوقع أن أفقده .. وغدت رغبتى الحارة فى
أن أختم عمري فى هذه الجزيرة « مرتبطة — ارتباطا لا انفصام
له — بالخوف من أن أقصر على مفادتها !

واعدت أن أذهب كل مساء ، فأجلس على الشاطئ ،
لا سيما حين تكون البحيرة متلاطمة الأمواج .. كنت أحس بلذة
غدة إذ أرى الأمواج تتكسر عند قدمى ، فقد كانت تهمل لى
اصطحاب الدنيا ، وسكينة معلى . وكانت هذه الفكرة تهفو
بموالئى أحيانا ، حتى أشعر بالندوع تتساقط من عيني ! ..
ولم يكن يعكر هذه السكينة — التى امتدت أن أستمتع بها بكل
عواطفى — سوى توجس فقدانها .. على أن هذا التوجس
بالذات ، كان يفسد سحرها على ! .. كنت أشعر بوضعى
متارجحا إلى درجة لا تمكننى من أن أجرؤ على أن أعول عليه ،
أو أطمئن إليه ! .. وكنت أقول لنفسى « آه ! .. كم أتمنى
راضيا أن أستبدل حريتى فى مفادرة الجزيرة — الأمر الذى
لا أحفل به إطلاقا — بضمان تمكنى من البقاء فيها دائما ! ..
لماذا لا أستبقى هنا قسرا ، بدلا من أن أبقي بفضل ؟ .. إن
أولئك الذين يدعوننى هنا — من قبيل الفضل — يستطيعون
أن يطردونى فى أية لحظة ، فكيف لى أن أجرؤ على الأمل فى أن

بدعنى مضطهدى أو أصل هناعى — التى يروئنى عليها — هنة ؟
.. آه ! أن السماح لى بالعيش هنا ، أقل مما أصبو إليه ..
إنما أتمنى أن يقضى على البقاء .. أن أقصر على البقاء فى هذه
الجزيرة ، حتى لا أغضب على مبارحتها ! .. وكنت أرمق
بحسد ذلك السميد « بيكلى دوكره » ، الذى كان يعيش
آمنا فى قلعة (داربيرج) دون أن ينقصه — لكى يكون
سعيدا — سوى أن يرغب فى السعادة ! !

وأخيرا ، انتهيت — لفرط استسلامى لهذه الخواطر ،
واللهواجس المزعجة التى كانت تجعلنى دائما فى خوف من
التضاض عواصف جديدة على رأسى — إلى أن أتمنى ، فى لهفة
تفوق كل تصور ، أن يمدل ظالمى عن مجرد التساهل معى إزاء
مقامى فى الجزيرة ، وأن يجعلوها سجنا يتسروننى على ملازمته
طيلة حياتى .. ويوسعى أن أقسم إننى لو كنت أملك السلطة
على أن أحصل على حكم بهذا الصدد ، لفعلت بأقصى اغتباط ،
إذ كنت أؤثر — ألف مرة — أن أضطر اضطرارا إلى قضاء بقية
عمرى هناك ، على أن أتعرض لخاطر الطرد منها !



ولم تبق هواجسى طويلا ، دون تحقيق .. فقد تلقيت
— وأنا أقل ما أكون توقعنا لذلك — خطابا من حاكم (نيداو) ،
الذى كانت جزيرة (سان بيير) فى نطاق سلطانه .. وفى هذا
الخطاب ، أبلغنى — نيابة عن حكومته — بالاعتراف بجزيرة
والأراضى التابعة لهذه الحكومة !

وخيل إليّ ، عندما قرأت الخطاب ، أنني كنت أحلم ، فما كان ثمة ما هو أبعد عن الطبيعي ، ولا ما هو أبعد عن المنطق ، ولا ما هو أبعد عن التوقع ، من مثل هذا الأمر . ذلك لأنني كنت قد نظرت إلى هواجسي على أنها ثقل رجل أزعجته مصائبه ، أكثر منها توقعات تستند إلى آفته أساس . وكانت الخطوات التي اتخذتها لأطمئن نفسي إلى القبول الضمني الذي صدر من السلطات ، وإلى الأسلوب الواضع الذي أبيع لي بمقتضاه أن استقر في الجزيرة ، وإلى الزيارات التي تلقيتها من عديد من أهل بيرن ، ومن الحاكم نفسه — الذي أذهلني بما أبداه نحوي من ود ورعاية — وإلى مسودة الطقس ، التي كانت تجعل من العنف الوحشي طرد رجل معلول من مأواه . . . كل هذه الاعتبارات ، جعلتني — وجعلت كثيرين غيري — يؤمنون بأن ثمة شبهات تحوم حول هذا الأمر ، وأن ذوي النوايا السيئة نحوي ، قد تعمّدوا اختبار وقت جنى العنب وتغيب أعضاء مجلس الشيوخ ، كي يوقعوا بي هذه الضربة نجاة ، وبحدة !

ولو أنني أصفيت لأول إيعاز من كرامتي ، لكنت قد بادرت إلى الرحيل فوراً . ولكن ، إلى أين كنت أذهب ؟ . . وماذا يجري والثناء قد أقبل ، وليس لي من مقصد ، ولا اتخذت عدة ، وليس ثمة مرشد ، ولا عربات للقتل ؟ . . وما لم أترك ورائي كل شيء — أوراقي ، وامتعتي ، وكل شئوني — فقد كنت بحاجة إلى وقت كي أعدةا للنقل . . ثم إن الأمر لم يذكر ما إذا كان يسمح لي بأخذها أو لا يسمح !

وبدأت بلاحقة المصائب توهم جلدي . . ولأول مرة في حياتي ، شعرت بكبريائي الفطرية تنحني تحت وطأة الضرورة . وبالرغم من تدهور قلبي ، لم يكن ثمة بد من أن أنزل فأطلب إيمالا . وإلى السيد دي جرافنبريه — الذي أرسل إلي الأمر — وجهت مسمأى . وكان في خطابه قد عبر عن استهجائه الشديد لهذا الأمر ، وأنه ما أبلغني إياه إلا في أسف بالغ . فلاح لي مما تلا الخطاب من مظاهر الألم والتقدير ، أن هذا الخطاب لم يكن سوى دعوى مرفقة ، مطلقة ، إلى أن أفتحه بها في صدري . . وهذا ما فعلته . ولم أشك في أن خطابي خليق بأن يفتح عيون هؤلاء الجائرين على تصرفهم المجرّد من الإنسانية ، وأنهم — ولو لم يلغوا مثل هذا الأمر القاسي — سيمنحونني مهلة معتولة ، قد تشمل الشتاء كله ، لكي استعد للرحيل ، ولكي أختار مكانا لجا إليه .

وأخذت — في انتظار جوابه — أفكر في موقفي ، وأتدبر القرار الذي كان عليّ أن اتخذه . ورايت كثيرا من الصعاب في كل ناحية . وكان الحزن قد أثر على أشد تأثير ، كما كانت صحتي — في تلك الآونة — في أسوأ حال ، فأسلمت نفسي للتداعي ، وإذا ثبوت همتي يجردني مما تبقى لي من قوى عقلية متواضعة ، كان من الممكن أن تساعدني على أن أبت في موقفي الحزن . . كان من الواضح أنني لم أكن أملك أن أنفادي — في أي مكان قد ألؤذ به — أن أتعرض للأسلوبيين اللذين استخدماه حتى ذلك الحين ، في طردي . . وأولهما : إثارة الناس ضدي . بالوسائل المتوارية . . في حين إن الثاني : هو : تملي بالقوة الصريحة ، دون إبداء أي سبب أو مبرر لذلك . . .

ومن ثم فأننى لم أكن أملك أن أعمل على أى ملجأ ، وأطمئن إلى أنه مأمون ، اللهم إلا إذا ذهبت إلى أبعد مما كانت قواى . وموسم الشتاء ، تسمح به ، على ما تراهى لى ! . . . ولقد عادت بى كل هذه الاعتبارات ، إلى عين الأفكار التى كانت تشغل بالى منذ البداية . ورحت أشتكى لى أننى سجنحت طيلة العمر « بدلا من أساق إلى أن أضرب فى الأرض ، بلا انقطاع ! وأن أطرد من كل مكان ألوذ به ، على التعاقب !

وبعد رسالتى الأولى بيومين « كتبت رسالة ثانية إلى السيد دى جرافنرييه ، أسأله أن يعرض الاقتراح على المجلس . . . وجاء الرد على هاتين الرسالتين من « بيرن » . وكان أمرا صيغ فى أخشن عبارات رسمية ، بأن أغادر الجزيرة ، وكل الأرضى التى تتبع الجمهورية - مباشرة أو غير مباشرة - فى أربع وعشرين ساعة ، « إلا أنمود إلى دخولها قط ، وإلا تعرضت لأقسى صنوف العقاب !



وكانت تلك اللحظة رهيبة . . . ووجدت نفسى بمسدها فى أقصى الهموم ، وليس فى أعظم حيرة . . . على أن أشد ما ألمنى هو أن اضطر إلى التخلّى عن المشروع الذى كان يجعلنى أشتكى قضاء الشتاء فى الجزيرة . وقد حان الوقت كى أروى القصة الاليمية التى توجبت مصائبى « والتى استدرجت - إلى القضاء على - شعبا ثمنا ، كانت فضائله المتريدة تبشر بأنه سيعادل يوما شعبى (أسبارطة) و (روما) .

فلقد تحدثت فى « المقد الاجتماعى » عن الكورسيكيين كشعب جديد ، كان هو الشعب الوحيد - فى أوروبا - الذى لم يستغله التشريع أو يفسده . وقد أوضحت أن شمة آمالا كبارا قد ترتجى من مثل هؤلاء القوم ، لو أنهم وجدوا مرشدا حكيما !

ولقد اطلع على كتابى بعض الكورسيكيين ، الذين قدروا الأسلوب الكريم الذى تحدثت به عن شعبهم ، وإذا ألغوا أنفسهم مضطرين إلى أن يكرسوا كل همهم إلى إنشاء جمهوريتهم . فقد رأى بعض زعمائهم أن يستشيروننى فى هذا العمل الجليل . وكتب إلى - بهذا الصدد - سيد يدعى « بونافوكو » ، كان ينمى إلى إحدى الأسرات الكبرى فى الجزيرة ، وكان « كابتن » فى اللواء الملكى الإيطالى بفرنسا . وقد أمدنى بعدد من الوثائق التى كنت قد طلبتها منه ، لكن أزداد تعرفا على تاريخ الأمة ، وعلى أحوال البلد . كذلك كتب لى السيد « باولى » عدة مرات ، ومع أننى شعرت بأن مثل هذه المهمة فوق ما تتحمل قواى ، إلا أننى رأيت الأسبيل إلى أن أضن بمعاونتى فى مثل هذه المهمة الجليلة السامية . بعد أن حصلت على كل البيانات التى طلبتها . وبهذا المعنى كتبت إلى كل من السيدين ، وقد استمر تبادل الرسائل إلى أن غادرت « سان بيير » .

وفى تلك الفترة بالذات ، سمعت أن فرنسا كانت توفد جنودها إلى « كورسيكا » ، وأنها عقدت معاهدة مع « جزر بحر إيجه » . ولقد أثارت هذه المعاهدة ، وإيفاد الجنود ، ظمئى . ودار أن

أنتصور أن تكون لى أية علاقة بذلك « قدرت أن من المستحيل بل ومن العبث - أن أكرس اهتمامى لعمل يتطلب هدوءاً وسكينة كاملين .. وأعنى به تنظيم شعب ، فى اللحظة التى كان يحتمل أن يكون فيها على شفا إخضاعه لغير الطغيان !

ولم اخف قلقى عن السيد « بوتافوكو » ، الذى طماننى بأن أكد لى أنه - كمواطن صالح - ما كان ليبقى فى خدمة فرنسا ، كما كان فعلاً ، لو أن هذه المعاهدة اشتملت على ما يمس حرية بلاده . والواقع أن تحبسه للتبديدات التشريعية لكورسيكا « وعلاقته الوثيقة بالسيد « باولى » ، حالقاً دون أن يخالجنى أى شك من نأحيته . وعندما سمعت أنه كان يكثر من التردد على « مرساي » و « فونتينبلو » ، وأنه كان يقابل السيد دى شوازيل ، لم أملك سوى أن أستنتج أنه حصل على ضمانات بشأن النوايا الحقيقية للبلاد الفرنسى . وهو الأمر الذى تركنى أحدهم ، ولكنه لم يبد رغبة فى أن يشرح ما لديه بشأنه بجلاء ، فى خطاب !

ولقد طماننى كل هذا ، إلى حد ما . على اننى لم أقد على أن أفهم معنى إيفاد الجنود الفرنسيين ، ولم أستطع أن أرى أى إفراء يوحى بصديق أنهم كانوا لحماية حرية الكورسيكيين . فقد كان هؤلاء جد قادرين على أن يؤدوا عن حريتهم بأنفسهم ضد أهل جنوا .. كذلك لم أكن أملك أن أشعر بارتياح تام ، إلى أن أوقف اهتمامى فى إخلاص صادق لوضع الدستور المقترح ، ما لم يكن لدى الدليل المقتنع بأنه لم يكن مجرد دعابة

للضحك منى ! .. ولكم كنت أرجو أن أتحدث إلى السيد بوتافوكو ، فقد كانت هذه هى الوسيلة الوحيدة لكى أحصل منه على الإيضاحات التى كنت أتفهمها . ولقد أبدى إلمه فى أن يفتح لنا لقاء ، فرحت أنتظر هذا اللقاء بصبر جد نافذ . ولست أدرى ما إذا كان قد أعترم حقاً أن يتبع لى لقاء ، ولكن .. لو أن هذه كانت نيته حقاً ، لكأنت محض خليفة بأن تمنى من أن أفيد من هذا اللقاء !



وكنت كلما اطلت التفكير فى المشروع المقترح ، وكلما لمعت فى فحس الوثائق التى كانت بين يدي ، أزدت شعوراً بالحاجة الملحة إلى أن أدرس - من كتب - البلاد ، والشعب الذى كان التشريع يعد له ، والأرض التى يقيم عليها ، وكافة الوجوه التى كان عليه أن يطبق هذا التشريع فيها . وكنت أردد إفرانكا - يوماً بعد يوم - بأنه من المستحيل أن أظفر - وأنا بعيد - بكافة الأضواء اللازمة لإرشادى . ولقد كتبت عن هذه الأمور إلى « بوتافوكو » ، فأذا به كان يشعر بها . وإذا كنت لم أستقر تماماً على قرار الانتقال إلى كورسيكا ، إلا اننى شغلت كل الشغل بوسائل أداء هذه الرحلة . فتكلمت إلى السيد داستييه ، الذى كان خليقاً بأن يلم بها ، إذ كان قد عمل حيناً - فيما مضى - تحت رئاسة السيد دى مايبوا . ولكنه لم يدخر وسعاً ، فى سبيل إثنائى عن نيته ، واعترف أن الصورة البشعة التى رسمها للكورسيكيين ببلادهم ، أخت كثير من جذوة رغبتى فى الذهاب إليهم والإقامة بينهم !

على ان هذه الرغبة عادت إلى التاجح — عندما أدى الاضطهاد الذى تعرضت إليه في (مونتير) إلى ان أفكر في مفسادة سويسرا — بفضل الأمل في أن أجسد بين هؤلاء الجزائريين الهدوء الذى حرمت منه في كل مكان آخر . ولم يكن يزعجنى — بصدد هذه الرحلة — سوى أمر واحد . . . عدم قدرتى الصحية عليها ، والنفور الذى طالما تملكته نحو الحياة النشيطة التى قد أضطر إلى ممارستها . ذلك لأن الطبيعة هبأتنى لكي أتأمل وأفكر في الوحدة ، وحسب هوائى ، ومن ثم فإننى لم أكن مهياً البتة للكلام ، والعمل ، وتوجيه الشئون والمسائل ، وسط الناس . . ان الطبيعة حين منحتنى الموهبة للحال الأولى ، أبت على الموهبة للثانية ! . . ومع ذلك فقد شعرت أننى خليق بأن أضطر بمجرد وصولى إلى كورسيكا . بأن ألقى بنفسى في غمار تلهف الشعب ، وأن أعقد عدة مؤتمرات مع الشخصيات التى تتولى الزعامة في الجزيرة ، ولولم أساهم بدور مباشر في المسائل العامة . وكانت غاية رجلي ذاتها ، ففرض على السعى — وسط هذه الأمة — إلى العثور على المعلومات التى كنت أحتاجها ، بدلا من السعى إلى الراحة والعزلة . . كان من الواضح أننى لن أستطيع أن أظل بحريتى واستقلالى . إذ أننى سأدفع — على الرغم منى — إلى دوامة من النشاط ، لم أكن بغيرتى مهيئا لها . وأننى سأمارس حياة تتعارض تماما مع أهوائى ، ولا توحى بنفع لى . وتكهننت بأننى لن أحقق بوجودى ، الفكرة التى ربما كانت قد تكونت عن قدرتى خلال كتبى . . وكان معنى ذلك ، أن أفقد مكانتى لدى الكورسيكيين .

بعد الثقة التى أضفوها على ، وأتى ما كنت لأملك بدونها ان أحقق العمل الذى كانوا بثوقهونه منه . ولقد شعرت بيقين من أننى إذ أخرج — بهذا — من الجو الذى خلقت به ، لن أغدو ذا نفع لهم ، وإنما سأعمل على إلقاء نفسى !

وكنت مكروبا ، محببا ، حطفتنى العواصف من كل نوع . وأضفتنى التقلبات والاضطهادات خلال السنوات العديدة . وأصبحت أشعر شعورا طاعيا بالحاجة إلى الراحة التى اتخذ أعدائى — الغلاظ القلوب — ملهاة من حرمائى منها ! . . ورحلت أتهد حجرة — كما لم أتهد من قبل — على ذلك الفراغ المحبب إلى نفسى ، وعلى تلك الدعة الفاعمة التى تشمل عقلى وجسمى ، والتى طالما صوبت إليها واقتصرت عليها السعادة العظمى لقلبى الذى شفى من أوهام الحب والصداقة !

لذلك تطلعت في جزع إلى المهمة التى كنت أوشك أن أقدم عليها . . إلى الحياة الصاخبة التى كنت أوشك على أن أنفوس فيها . . وإذا كان جلال الهدف وجهاله ونفعه قد أذكّت عزيمتى ، فإن استحالة ارضاء نفسى بالنجاح ، وتعميضا عما كانت فيه ، شبط تلك العزيمة تماما . . إن عشرين عاما من التفكير العميق والتأمل — في وحدة — كانت أقل عناء ، في نظرى ، من سنة أشهر انقيصيا في حياة حافلة بالنشاط ، وسط أناس ومسائل عامة كنت موقنا من الفشل فيها !

وغيرت في حيلة لاحت لى جد مأسسة لشهيرة كل شئ . . ذلك لأننى — وقد كانت تتبعينى —

الخفية التي كان يبذلها ظالمى المستترون - لم أر سوى (كورسيكا) مكانا أستطيع أن اتطلع إليه في شيخوختي ، للحصول على الراحة التي أبوها على في كل مكان - فقررت أن أذهب إلى هناك ، وفقا لتعليمات « بوتافوكو » ، بمجرد أن يتسنى لى ذلك . ولكنني عقدت عزمى - لكى أعيش في هدوء هناك - على أن أطرح عنى مهمة التشريع « ولو في الظاهر ، على الأقل . ولكى أرد إلى مضيئى كرمهم » بطريقة ما ، قررت أن أعكف على كتابة تاريخهم ، في مسرحه . . على أن أجمع - في هدوء - المعلومات اللازمة التي تجعلنى ذا نفع كبير لهم ، إذا ما لاح لى أى أمل في النجاح . ودأخلنى الأمل بأن أستطيع - إذا لم أقيد نفسى بشئ » ، على هذا النسق - أن أفكر فيما بينى وبين نفسى ، وأنا مطلق الحرية ، في مشروع مناسب . دون أن أثبذ آمالى المشتتة في العزلة ، ودون أن أنتهج أى أسلوب للحياة لا اقوى على احتفاله ، ولا أنا مبيأ له !

غير أن هذه الرحلة لم تكن سهلة التحقق ، في وضعى الراهن . فعلى ما أثباتنى به السيد داستييه عن (كورسيكا) « لم أتوقع أن أجد هناك أبسط أسباب الراحة في الحياة ، بما لم أصحب هذه الأسباب معى : من أثشة ، إلى ملابس ، إلى أطباق وصحاف ، إلى آتية المطبخ ، إلى الورق والكتب . . كان لا بد للمرء من أن يحمل كل هذه معه . ولكني انتقل إلى هناك مع « تيريز » ، كان من الضروري اجتياز جبال الألب ، وأن أجز خلفى متاعى مائتى فرسخ . . وكان لا بد من اجتياز أراضى عدة حكومات ، وعلى ضوء المعاملة التي لقيتها من أوروبا كلها ،

كان من الجدير أن أستعد - بطبيعة الوضع ، وبعد المحن والنكبات - لأن أصادف عقبات في كل مكان ، ولأن أجد كل امرئ غخورا بأن يعزبنى بمحنة جديدة ، وبأن يمتن - في شخصى - كل حقوق الشعوب والإنسانية . ولقد اضطررتى نداحة نفقات رحلة كهذه « ومتاعبها » وأخطارها ، إلى أن اتدبر مقبلا كل مصابها ، وأن أزنها وأقدرها في غناية .

وفيما كنت مترددا - بهذا الشكل - حدثت اضطرابات (موتير) التي اضطررتى إلى الانسحاب . ولم أكن مستعدا لرحلة طويلة ، لا سيما إلى (كورسيكا) ، فقد كنت أرتقب ردا من « بوتافوكو » « ومن ثم فقد لفتت بجزيرة (سان بيار) ، التي طردت منها في بداية الشتاء ، على ما فكرت من قبل . وكان الجليد الذى اكتسبت به (الألب) يجعل من المستحيل على أن أبرح البلاد - عن ذلك الطريق - لا سيما بعد إندثار قصر الأبد . والواقع أن تطرف أمر كهذا ، جعل الصدوع به مستحيلا . فلتد كان من العسير أن أطيعه وأنا في مقامى المنزل المحوط بالماء ، وليس أمامى سوى أربع وعشرين ساعة - بدأت منذ إخطارى بالأمر - لأقوم باستعداداتى للرحيل ، ولأستأجر القوارب ووسائل النقل التي أغادر بها الجزيرة والمنطقة . . كان من العسير أن أنفذ الأمر « ولو أوتيت أجنحة !

ولقد أثبات حاكم (نيداو) بذلك في ردى عن خطابه ، ثم رحلت أنتعل ما استطعت ، فراق هذه البلاد ، التي لم ألق بها سوى الاضطرابات . . وهكذا اضطررت إلى العود عن مشروعى الفالى . . وهكذا أيضا فرت - إلى الجزيرة - في

تنوطى وثبوت عزييمتى ، من أن أحمل أعدائى على أن يترفقوا بى - أن أرحل إلى برلين ، بدعوة من السيد المارشال ، تاركا « تيريز » لتقضى الشتاء فى جزيرة إسان - ببيير - مع مناعى وكتبى ، بعد أن أودعت أوراقى بين يدى دوببيرو . ولقد بذلت كل تعجل ، حتى أننى غادرت الجزيرة فى الصباح القللى لوصول الأمر ، قبلت إبيير قبيل الظهر - وقد كادت رحلتى تنتهى هناك تقريبا ، بحادث يجب عدم إغفال ذكره .

فما أن تردد أننى تلقت أمرا بمغادرة مكرى ، حتى تدفق على الزائرون من المناطق المجاورة ، لاسيما من أبناء (بيرن) الذين جاءوا ليراعونى ويطيّبوا خاطرى ، فى أبشع آيات النفاق ، وليلوكدوا لى أن فرصة المظلات وفياب كثير من أعضاء مجلس الشيوخ ، قد استغفلت لإصدار هذا الأمر - الذى استنكره كل « الماتنين » ، على ما قالوا - وإنذارى به . وكان بين هذا الحشد من المواسين « بضعة أشخاص من مدينة (بيبين) ، وهى ولاية صغيرة حرة ، تحيط بها أراضي جمهورية (بيرن) . . . وكان بين هؤلاء شاب يدعى « فيلدرميه » ، كانت أسرته تحتل الصدارة ، وتستمتع بأرفع سمعة فى هذه المدينة الصغيرة . ولقد ألح على « فيلدرميه » فى حرارة - باسم مواطنيه - كى اتخذ ملجئى بينهم ، مؤكدا لى أنهم كانوا نواقين ومتحمسين لاستقبالى . . . وأنهم يعتبرون مساعدتى على أن اتنى المظالم التى عانيتها ، شرفا وواجبا . . . وأننى لن أجد ما أخشاه من نفوذ أهل (بيرن) بينهم ، فإن (بيبين) كانت مدينة حرة .

لا تخضع لتسلطان أحد : وقد أجمع مواطنوها - عن بكرة أبيهم - على ألا يصفوا إلى أى طلب يسئ إلى !

وعندما رأى فيلدرميه أن ليس بوسعه أن يزعزع إصرارى ، اهلب بعدة أشخاص آخرين من (بيبين) والمناطق المجاورة - بل ومن (بيرن) ذاتها - أن ينضموا إليه ويؤيدوه . . . وكان بين هؤلاء « كيرشبيرجر » - الذى سبق لى أن تحدثت عنه - الذى زارنى مع فيلدرميه ، وراح يستحثنى فى إلحاف على أن يحتجب اهتمامى إليه بفضل مواهبه ومبادئه . ولقد كانت أبعد الرجاءات عن توثقى ، وأشدّها إلحاحا « هى تلك التى راح يفضّلها السيد « بارثيه » - سكرتير السفارة الفرنسية - الذى زارنى مع فيلدرميه ، وراح يستحثنى فى إلحاف على أن أقبل دعوته . وقد أدهشنى بما أبداه لى من اهتمام كريم وحرار . ولم أكن أعرف السيد « بارثيه » إطلاقا ، ولكنى - مع ذلك - لمست فى كلماته حرارة وحشية المداقة ، ورأيت أنه كان تواقا حقا إلى إقناعى بالإقامة فى (بيبين) . . . ولقد امتدح - فى أسلوب رفيع ، طلق - تلك المدينة وأهلها ، الذين بدا أنه كان على وثام بالغ معهم ، حتى أنه كان يدعوهم ، فى كثير من المناسبات - فى حضورى - رعاته وأهله !

ولقد قوضت هذه الخطوة - من « بارثيه » - كل تكهناتى . نلقد اعتدت دائما أن ارتاب فى أن السيد دى شوازيل ، كان المصدر السرى لكل الاضطهادات والمظالم التى تعرضت لها فى سويسرا . ولم يؤد تصرف الوزير الفرنسى فى جنيف ، والسفير الفرنسى فى (سلور) ، إلا إلى تعزيز هذه الأفكار بقوة .

شخصي - هذا الملجأ في (بين) ، حتى أستطيع أن أعيش هناك في سلام ، تحت رعايته . ولقد شعرت بامتنان لهذه اللقطة ، وإن لم أر أن أعيد نها . ولما كنت قد عقدت العزم على الرحيل إلى (برلين) ، فأننى رحمت أتلطع في لهنة إلى اللحظة التي انضم فيها إلى السيد المارشال ، وأنا موثق من أنني لن أحظى بلراحة الحقيقية ، والسعادة الباقية ، إلا معه .

ورافقتي كرشبيرجر - عند رحيلي عن الجزيرة - حتى (بين) ، حيث ألقيت فيلدرمي ، وبعض البينيين الآخرين ، في انتظارى . وتناولنا الغداء معا في فندق البلدة ، وكان أول ما فعلته - عند الوصول - هو البحث عن محفة ، إذ كنت معتقما الرحيل في الصباح التالي . ولقد عاد أولئك السادة - أثناء الغداء - إلى تجديد إلحاحهم على بالبقاء بينهم ، في حرارة ، وفي تأكيدات مؤثرة ، حتى أن عواطلي لانت لهم بالرغم من كل إصراري ، ومن قلبي . وما أن رأوا أنني بدأت أتزعزع ، حتى ضاعفوا جهودهم ، ووفقوا في ذلك ، حتى أنني ارتضيت - في النهاية - أن أغلب على أموري ، ووافقت على البقاء في (بين) . . . حتى الربيع المقبل ، على الأقل .

ويلدر فيلدرمي - لفوره - إلى البحث لي عن مسكن ، وراح يطرق لي في خمس غرفة صغيرة تمسكة ، في مؤخرة طابق ثالث من مبنى ، تطل على فناء أستطيع أن أمتع بصري فيه . على مرأى الجلود ذات الرائحة النفاذة في بيت اليهود . وكان

كنت أرى النفوذ الخفي لفرنسا في كل ما حدث لي في (بين) و (جنيف) و (نيوشاتيل) ، وقد خيل إلي أن عدوى القوى الوحيد في فرنسا ، هو الدوق دي ثوازيل . فكيف كان خليقا بي أن أرى زيارة (بارثيه) والاهتمام الكريم الذي بدا منه نحو مصري . . . لم تكن مصائبى قد قوضت ما كان يعمر قلبي من ثقة فطرية وسذاجة طليعية ، ولم تكن التجربة قد علمتني كيف أتبين في كل مظهر للود والعطف غشا للايقاع بي ! . . . وأخذت أبحث في دهشة عن سبب هذا الكرم من بارثيه ، فما كنت من الغفلة بحيث أصدق أنه اتخذ هذه الخطوة من تلقاء نفسه . ولعل في مسلكه دعاية ، بل وتظاهرا ، يتحان عن مقصد مستقر ، وكنت بعيد البال عن أن أبصر في كل هذه العناصر الثانوية البسيطة ، تلك الشهامة الكريمة التي كانت كئيبة بأن تجعل قلبي يغلي غليانا ، لو أنني كنت في مركز مشابه لمركز محدثي !

وكنت قد تعرغت - في الماضي - بالشغالييه دي بوتنيل ، معرفة بسيطة ، في قصر لوكسبورج ، حيث أبدى لي بعض الكرم . ولقد حرص - منذ تعيينه سفيراً - على أن يظهر أنه لم ينسني ، حتى لقد دعاني إلى أن أزوره في (سلور) . ومع أنني لم ألب الدموي ، إلا أنني تأثرت بها ، إذ أنني لم أعتد أن أحبل بمثل هذا الكرم ، من أصحاب هذه المراكز الرفيعة . ومن ثم فقد حدثت - من مسلك بارثيه - أن السيد دي بوتنيل ، وإن كان مضطرا إلى إطاعة التعليمات فيما يتعلق بشئون جنيف - إلا أنه أشفق على في محنتي ، وأعد لي - بما له من نفوذ

صاحب المسكن رجلا ضئيل الجسم ، وغدا وضيعا ، لا ضرر منه . وقد سمعت عنه - في اليوم التالي - انه كان سكيراً مقابراً ، سيئ السمعة جدا في المنطقة . ولم تكن له زوجة ولا اطفال ولا خدم . وإذا احتسبت نفسي - في غرفتي المنفصلة - في وحدة كثيفة ، شعرت اننى - في ابهج بلد في العالم - قد انسقت في سكناى « لأفضل خطة مدبرة للقضاء على رجل بالموت اكتئابا وغما ، في بضعة ايام قلائل . وكان أشد ما أحزننى اننى - بالرغم من كل ما قيل لى عن تلف الأهل على ان اقيم بينهم - لم أكن لاحظ ، عندما اسير في الطرقات ، أى كرم في السلوك ، أو أى ود في النظرات ! .. ومع ذلك فإئننى كنت قد عقدت عزمى تماما على ان امكث هناك ، عندما علمت - في اليوم التالي بالذات - ورايت ، ولاحظت بنفسى « أن المدينة كانت في اضطراب فظيع من اجلى . ويلج الكرم بعدد من الناس ، أن أسرموا إلى إبتائى بأننى سأخطر - في اليوم التالي ، وباخشن الأساليب - بأن اغادر لنفورى البلاد . اعنى البلدة !

ولم أجد من استطيع ان اعتد عليه ، فقد تشتت كل أولئك الذين كانوا قد الحوا على في البقاء .. فاختفى فيلدرمييه ، ولم أعد أسمع شيئا عن بارئيه ، ولم يلج لى ما ينم عن أن توصياته قد أكسبته رضى « رعائه وأهله » ، الذين كان يفخر بهم . على أن سييدا من أبناء (بيرن) « يدعى السيد دي « فو - ترانير » ، كان يمتلك بيتا بديما بالقرب من المدينة ، فعرض على أن يأوينى ، أملا في أن أنجو - كما قال - من

الرجم بالطوب . ولم يبد هذا العرض كالميا لإغرائى على أن أطيل مقامى بين هؤلاء القوم المضايقين .

وإذا كنت قد بددت بهذا التأخير ثلاثة أيام ، فإئننى كنت قد تجاوزت الأربع والعشرين الساعة - التى أمهلتنها سلطات (بيرن) لأغادر أراضيهما - بأمد كبير . ولما كنت أعرف غلظة القوم ، فإئننى لم اخل من قلق بشأن الطريقة التى قد يعاملوننى بها في مرورى بأراضيهم . وأعفانى من هذه الحيرة حاكم (نيدوا) ، بصرف كان أبعد ما يخطر بالبال . فقد أعرب جهرا عن عدم رضائه عن الأساليب العنيفة التى انتهجها أعضاء مجلس نلشوخ ، وفكر - بكرامة نفس - أنه يرى ان واجبه يقتضيه أن يشهد الملا على انه لم يكن ذا علاقة بالامر . ولم يتورع عن أن يغادر منطقته ، ليفد لزيارتى في (بيرن) !

ووصل في اليوم السابق على رحيلى ، غير مستخف ، بل في كثير من المظاهر ، فقد جاء في زيه الرسمى وعربته ، مصطحبا سكرتيره . وحمل إلى جواز سفر صادر منه ، يمكننى من عبور اراضى حكومة (بيرن) ، دون ما خوف من اعتداء . ولقد أثرت الزيارة في نفسى ، أكثر مما أثر جواز السفر . وما كان شعورى بهذا التأثير ليقل ، لو ان هذه الزيارة كانت لشخص آخر غيرى . فليست أعرف شيئا أعظم تفودا على القلب من الشهامة التى تؤدي في لحظتها المناسبة ، من أجل شخصى ، تستغف

اضطهد ظلما !

واستطعت - أخيرا - أن استأجر محفة ، بعد عناء ،
فانطلقت في الصباح التالي ، مخاضرا هذه الأرض القاتلة ، قبل
وصول الوغد الذي أريد به تكريسي .. بل قبل أن أتمكن من
رؤية « تيريز » مرة أخرى . إذ أننى - حين ظننت أنني
سأكتب في بيبين - كنت قد كتبت إليها لتطيق بي .. بل إننى
كنت لا أجد وقتا كافيا لأكتب لها بضعة سطور ، أتبعها فيها
بسوء ظلمي الجديد ، ولمسوف يتبدى في الجزء الثالث من
« اعترافى » - إذا قدر لى أن أوتي القوة كي أكتبه - كيف
أننى كنت في الواقع منطلقا إلى إنجلترا ، وأنا أظننى منطلقا
إلى برلين .. وكيف أن السيدتين اللتين كلتاه تواتنتن إلى أن
تتحكما في حركاتى - بعد أن طارفتان بمؤامراتهما من سويسرا -
حيث كنت في قبضة نفوذهما تايما - أغلجتا في النهاية ، في
أن تسوقان إلى أيدي أصدقائهما !



ولقد أضلت ما يلى ، عند قرائتى هذه « الاعترافات »
على السيد والسيدة كونته ديجمون ، والسيد الأمير بيجناتيللى ،
والسيدة المركيزة دى ميم ، والسيد المركيز دى جيبييه :

« إننا قلنا الحق » فإن مرف أحد اشياء تناقض ما عرضت ،
فلنأى يعرف أكاذيب واعترافات ، ولو تلم عليها ألف دليل ..
وإذا هو أبى أن يتجرى صحتها ، وأن يحصنها محى ، وأنا بعد
على قيد الحياة ، فهو لا يجب العدالة ولا الحقيقة .. أما أنا ،
فلنأى أعلن بصوت عال ، ودون ما خوف : أن أى امرئ ،

يستطيع - ولو لم يقرأ مؤلفاتى - أن يصدق بعد أن يقبين
بمبنيه طباعى ، وخلقى « ومسلكى ، وميولى ، ومساتو ،
وعادائى » أننى رجل عديم الشرف والاستقامة .. فلنأى هو
رجل جدير بأن يخلق !

بهذا اختتمت قراءة « اعترافى » ، والجميع سكوت ..
وكانت السيدة ديجمون هى الوحيدة التى بدا عليها التأثر ،
فراحت ترتجف بوضوح .. ولكنها سرعان ما ثألت نفسها ،
ولانت بالصمت ، كبقية الجماعة .

وهكذا كانت النتيجة التى خرجت بها من هذه القراءة
ومن بيباتى .

تمت هذه الترجمة . وهى أول ترجمة عربية لبينة ،
كلمة « لكتاب « اعترافات جان جاك روسو »

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية

محفوظة لدار « كتابى »

Looloo

www.dvd4arab.com



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزي القارئ :

إذا أردت أن تعرف قيمة الكنز الأدبي الخالد الذي توافيك به (مطبوعات كتابي) اليوم ، فإليك ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ «سلامة موسى» في عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) ، إذ قال :

«اعترافات جان جاك روسو من الكتب التي كان يجب أن تترجم إلى لغتنا قبل ٤٠ أو ١٥٠ سنة .»

كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ «عبد الرحمن صدقي» في مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩٣٩ يقول : «انقضى نصف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدباء ، وجمهرة القراء ، عن مطالعة كتب «روسو» الأخرى . ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، ذلك أن الآراء في السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهي لا تتغير ولا تتبدل .»

والواقع أن هذه (الاعترافات) التي تقدم (مطبوعات كتابي) إليك اليوم أول ترجمة أمينة - كاملة - لها باللغة العربية ، هي أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقري «جان جاك روسو» ولقد كان من أهم الميزات التي كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، أنها كانت أول عمل أدبي يكشف صاحبه ^{في} عن نفسه ، فقد سجل «روسو» في هذا الكتاب أدق أحداث حياته - خيرها وشرها - طبيها وخبثها - دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة :

ماي مراد

